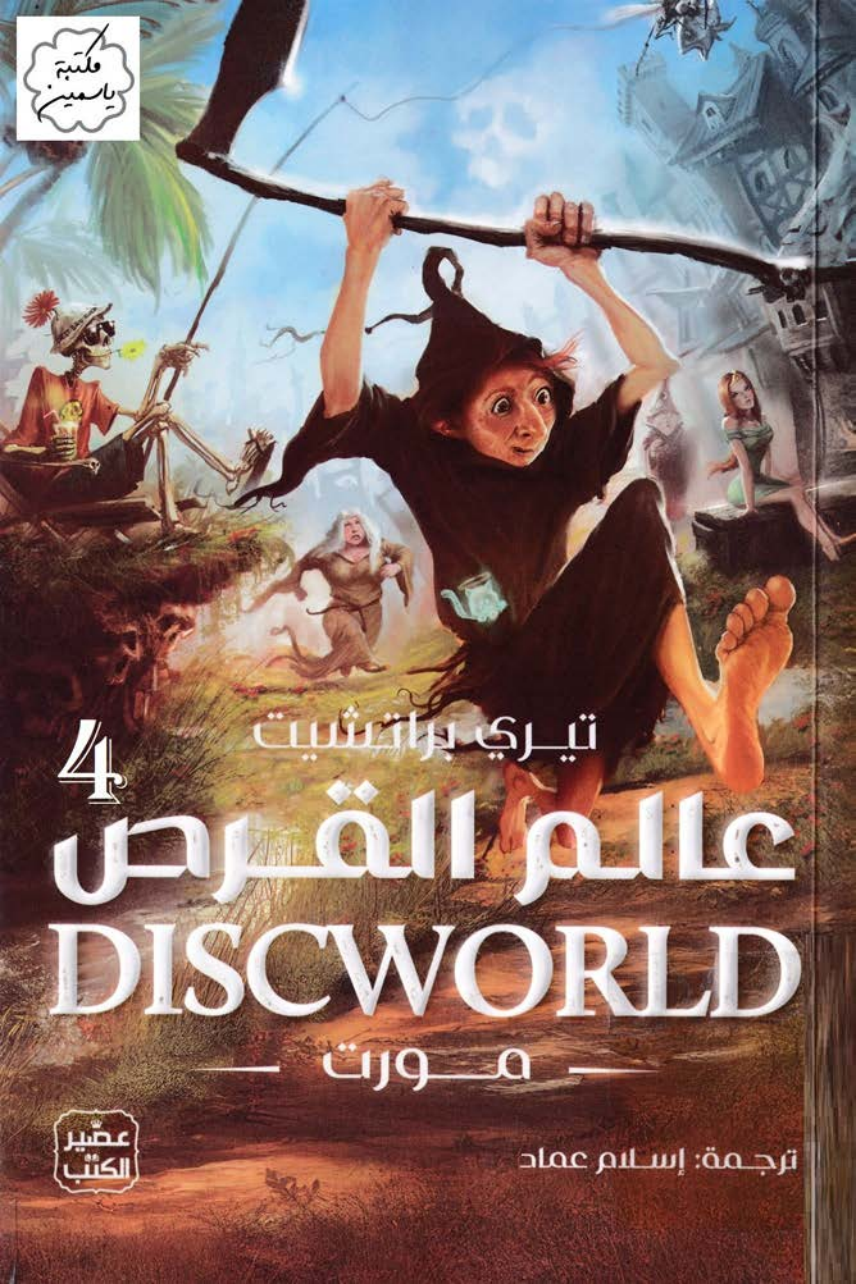




تيري براتشيت

4 عالم القرص DISCWORLD

— مورت —

ترجمة: إسلام عماد



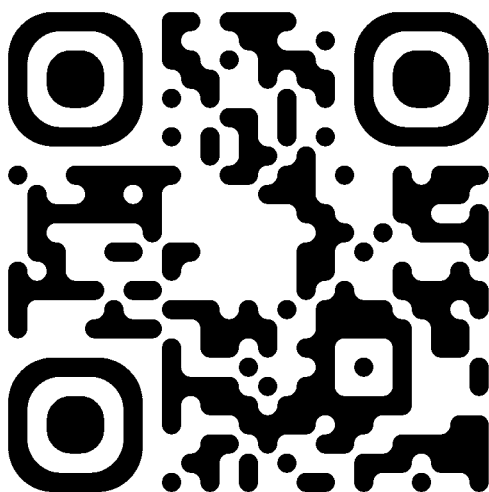
4 عالم القرص DISCWORLD

— مورت —

يسعدنا انضمامكم إلى قاعة

مكتبة ياسمين

معكم تكبر ونستمر بكل جديد





telegram @
yasmeenbook

● تأليف: تيري براتشيت

● ترجمة: إسلام عماد

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: كارم أحمد

● تنسيق داخلي: معتر حسنين علي

● الطبعة الأولى: يناير/ 2025م

● رقم الإيداع: 26395/ 2024م

● الترخيم الدولي: 5-446-992-977-978

● العنوان الأصلي: Mort

● العنوان العربي: مورت

● حقوق النشر:

Copyright © Terry Pratchett 1987

Discworld® is a trade mark registered by
Terry Pratchett

The right of Terry Pratchett to be identified
as the author of this work has been asserted
by him in accordance with the Copyright,
Designs and Patents Act 1988.

First published in Great Britain in 1987 by
Victor Gollancz Ltd

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب



تيري براتشيت

عالم القرص DISCWORLD — مورت —

ترجمة: إسلام عماد



مورت



telegram @
yasmeenbook

هذه هي الغرفة المضاءة بوهج الشموع حيث تُخزَّن مؤقتات حيوات الناس في رفوف عدَّة، رف فوق رف، تتراكم عليهم الساعات الرملية، مؤقتٌ لكل شخص حي، يُفرغ رماله الناعمة من المستقبل إلى الماضي. والحفيف المتراكم للحبات الساقطة يجعل الغرفة تهدر كالبحر.

هذا هو مالك الغرفة، يتجول فيها وقد بدا مُشغولاً. اسمه الموت. لكن ليس أي موت. هذا هو الموت صاحب مجال العمليات المُحدَّد، حسناً، ليس مجالاً في الحقيقة، بل هو عالم القرص، عالم مسطح ويرتكز على ظهر أربع فيلة عملاقة تقف على صَدَفَة السلحفاة النجمية الهائلة آتوين العظيم، والمحدود بشلال ينهار بلا نهاية إلى الفضاء. وقد حسب العلماء أن احتمالية وجود شيء بهذه السخافة تساوي ملايين إلى واحد.

لكنَّ السحرة حسبوا أن احتمالات ملايين إلى واحد تحدث تسع مرات من أصل عشر.

نقر الموت خلال الأرضية المبلَّطة بالأبيض والأسود بخطوات قدمه العظمية، مُتمتِّماً داخل قناعه فيما تُعدُّ أصابعه العظمية صفوف الساعات الرملية المشغولة.

وأخيراً يجد واحدة يبدو أنها ترضيه، فيرفعها بحذر من رفها ويحملها إلى أقرب شمعة. ثم يمسك بها بحيث ينعكس الضوء عليها، ويحرق إلى نقطة صغيرة للمعانٍ منعكسٍ.

نظرته الثابتة من محجري عينيه المتلألئتين شملت السلحفاة الكونية، السابحة خلال أعماق الفضاء، بصدفاتها المجروحة بالمذنبات والمثقوبة بالنيازك. يعلم الموت أن يوماً ما حتى آتوين العظيم سيموت، حينها، هذا هو التحدي الحقيقي.

لكن واصلت نظرة الموت تعمقها نحو روعة القرص الزرقاء والخضراء، إذ يتحرك ببطء تحت شمس الصغيرة الدائرة في مدارها. ثم ابتعدتُ نظرته نحو سلسلة الجبال العظيمة المسماة رامتوبس. تمتلئ جبال رامتوبس بالأودية العميقة والنتوءات المفاجئة وتضاريس أكثر من القدرة على التعامل معها. لديهم جوههم الغريب الخاص، المملوء بالأمطار المتناثرة والرياح العاصفة والعواصف الرعدية الدائمة. يقول البعض إن كل ذلك لأن جبال رامتوبس هي موطن السحر الخام القديم. على أي حال، بعض الناس سيقولون أي شيء.

رمش الموت بعينه، ليضبط عمق رؤيته. الآن يرى البلدة الملأى بالأعشاب على منحدرات الجبل ناحية اتجاه دوران القرص.

الآن يرى تلاً معيناً.

الآن يرى حقلاً.

الآن يرى صبياً يركض.

الآن يشاهده.

الآن، يقول بصوت كالصخور الرصاصية المُلَقاة على الجرانيت: أجل.



telegram @
yasmeenbook

لا شك في أن هناك شيئاً سحرياً في تربة تلك المنطقة الجبلية غير الممهدة التي -بسبب اللون الغريب الذي أضفته على النباتات المحلية- عُرِفَتْ باسم بلاد العشب الأوكتارينى. فعلى سبيل المثال، كانت إحدى الأماكن القليلة على القرص حيث تنتج النباتات أصنافاً حولية عكسية النمو.

النباتات الحولية هي نباتات تنمو عكسياً خلال الزمن. تُزَرَع البذور هذا العام فتنبو العام الماضي.

تخصصتُ أسرة مورت في تقطير النبيذ من العنب الحولى. كان هذا النبيذ قوياً جداً ومطلوباً بشدة من قبل العرافين، لأنه طبعاً يُمكنهم من رؤية المستقبل. العقبة الوحيدة كانت أنك تصاب بالغول في صباح اليوم السابق، ويجب أن تشرب الكثير لتتعافى منه.

مزارعو النباتات الحولية عكسية النمو كانوا كثيراً رجالاً كباراً وجادّين، يميلون إلى التفكير العميق والفحص الدقيق للتقويم. فالمزارع الذي يهمل زراعة البذور العادية يخسر المحصول فقط، أما أي شخص ينسى زراعة بذور محصول حُصِدَ فعلاً قبل اثني عشر شهراً فسيخاطر بإزعاج البنية الكلية لأحداث الواقع، ناهيك بالإحراج الشديد.

وكان من المخرج للغاية لأسرة مورت أن الابن الأصغر لم يكن جاداً على الإطلاق، وحظي بموهبة في الزراعة تشابه تلك التي تجدها في نجم بحر ميت. لم يكن الأمر أنه لا يمد يد العون، لكن كانت مساعدته من النوع المبتهج المبهم الذي سرعان ما يتعلم الرجال الجادون أن يخشونها. إذ اتسمت مساعدته بشيء مُعَدٍ، وربما حتى مميت. كان طويلاً، ذا شعر أحمر ونمش، وبدا جسده كأنه تحت سيطرته هامشياً فقط؛ فقد بدا كأنه بلا رُكبتين.

في هذا اليوم المحدد، اندفع الفتى خلال الحقول العالية، مُلَوِّحًا بيديه وصائحًا. فيما شاهده والده وعمه بوجوه شاحبة من خلف الجدار الحجري.

قال الأب ليزيك: «ما لا أفهمه هو أن الطيور لا تهرب حتى. لو كنت طيرًا لفررتُ عندما أراه يقترب مني».

- آه. جسم الإنسان شيء رائع. أعني، تتحرك ساقاه بلا تركيز، لكن بسرعة جيدة.

وصل مورت إلى نهاية خط المحراث، فتحرّكت حمامة سميّة ببطء مبتعدة عن طريقه.

قال ليزيك بحذر: «على أي حال، قلبه طيب».

- آه. طبعًا، المشكلة في باقي جسده.

قال ليزيك: «إنه يُبقي المنزلَ نظيفًا. ولا يأكل كثيرًا».

- أجل، لاحظتُ ذلك.

نظر ليزيك إلى جانبه حيث كان شقيقه ينظر بثبات إلى السماء.

قال ليزيك: «سمعتُ أنك لديك وظيفة خالية في مزرعتك يا هاميش».

رد هاميش: «آه. جلبتُ متدربًا فعليًا».

قال ليزيك بكآبة: «آه، متى كان ذلك إذن؟».

أجاب شقيقه كاذبًا بسرعة الثعابين: «أمس. كل شيء موقع ومختوم.

آسف. انظر، لستُ رافضًا الفتى مورت، إنه لطيف للغاية، المشكلة فقط هي...».

قاطعه ليزيك: «أعرف، أعرف. إنه غبي لدرجة أنه يعجز عن إيجاد

مؤخرته إن بحث عنها».

تطلعوا إلى الفتى من بعيد. كان قد سقط، واقترب منه بعض الحمام ليفحصه.

قال هاميش: «إنه ليس غيبًا، أو ليس غيبًا بقدر ما تظن».

أقر ليزيك: «لديه عقل في رأسه بالتأكيد. أحيانًا يبدأ في التفكير بعمق لدرجة أنك تحتاج إلى ضربه على رأسه لجذب انتباهه. علّمته جدته القراءة، أظن أن ذلك أثر في عقله».

نهض مورت، ثم تعثر في رداءه.

قال هاميش بتفكير: «يجب أن تعلمه حرفة ما. الكهنوت، ربما. أو السحر. السحرة يقرؤون كثيرًا».

نظرا إلى بعضهما. وتسالت فكرة إلى أذهانهما عما يستطيع مورت فعله إذا حصل على كتاب سحر.

قال هاميش بسرعة: «حسنًا، شيء آخر إذن. لا بد أن هناك الكثير من الأشياء التي يمكنه فعلها».

قال ليزيك: «مشكلته أنه يبدأ في التفكير كثيرًا. انظر إليه الآن. إنك لا تفكر في كيفية إخافة الطيور، بل تفعلها فقط. أعني كأني صبي عادي». حك هاميش ذقنه مُفكّرًا ثم قال: «ربما كانت مشكلة شخص آخر». لم يتغير تعبير ليزيك، لكن ظهر تغير طفيف حول عينيه، وقال: «ماذا تعني بذلك؟».

رد هاميش: «هناك معرض للتوظيف في شيبيريدج الأسبوع المقبل. يمكنك أن تجعله متدربًا، ويتولّى معلمه الجديد مهمة تكوينه. هكذا هو القانون. إذا تعيّن متدربًا، فمعلمه ملزمٌ بذلك».

نظر ليزيك خلال الحقل إلى ابنه الذي انهمك في فحص صخرة، ثم قال بشك: «لا أريد أن يصيبه مكروه، أنا ووالدته نحبّه. لقد اعتدنا وجوده».

قال هاميش: «سيكون ذلك من أجل مصلحته، سترى. سيجعله رجلًا».

أجاب ليزيك بحسرة: «آه، حسنًا. بداخله الكثير من المواد الخام بالتأكيد».

كان مورت مهتمًا بالصخرة. إذ احتوت على أصدافٍ ملتوية، بقايا من أيام بداية العالم عندما صنع الخالق مخلوقاتٍ من الحجر، ولم يعرف أحدٌ سببَ ذلك.

اهتمَّ مورت بأشياءَ عدّة. فمثلاً، لماذا تتراكب أسنان الناس في بعضها بدقّة؟ لقد فكّر في ذلك كثيرًا. ثم أتى لغز سبب شروق الشمس في أثناء النهار بدلًا من الليل، إذ سيصبح ضوءها مفيدًا حينها. وقد عرف التفسير الشائع لذلك، لكنه لم يبدُ مُرضيًا له.

بإيجاز، كان مورت واحدًا من أولئك الأشخاص الذين هم أكثر خطورة من كيس مملوء بأفاعي الجرس. كان مُصممًا على اكتشاف المنطق الأساسي وراء الكون.

وكان ذلك صعبًا، لأنه لا وجود للمنطق. كان لدى الخالق الكثير من الأفكار الرائعة عندما صنع العالم، لكنّ ليس منها أن يجعل ذلك العالم مفهومًا.

دائمًا ما ينوح الأبطال التراجيديون عندما يُبدي الآلهة اهتمامًا بهم، ولكنَّ الأشخاص الذين تتجاهلهم الآلهة هم الذين يواجهون الأمور الصعبة حقًا.

كان والده يصيح به، كالمعتاد. فرمى مورت الصخرة على حمالة ممثلة لدرجة أنها بالكاد تحركت بعيدًا عن الطريق، وتوجه عائداً خلال الحقل.

ولهذا السبب سار مورت ووالده خلال الجبال إلى شيبيريدج في ليلة الهوجسووتش، وقد وُضعت ممتلكات مورت القليلة في كيس على ظهر حمار. لم تكن المدينة أكثر من مجرد ميدان مرصوف بالحجارة، تصطفُ على أضلاعه الأربعة محالٌ تُقدِّم جميع الخِدْمَات اللازمة للمجتمع الزراعي.

بعد خمس دقائق خرج مورت من محل الخياطين مُرتدياً ثوباً بنياً فضفاضاً غير محدد الوظيفة، لم يُطالب به مالكة السابق لسبب مفهوم، واحتوى على مساحة كافية لينمو جسده فيها، على افتراض أنه سينمو ليصبح فيلاً ذا تسع عشرة ساقيًا.

نظر والده إليه ناقدًا هيئته، ثم قال: «جيد جدًّا، بالنسبة إلى ثمنه». قال مورت: «إنه يسبب الحكَّة. أعتقد أن بالداخل أشياء تشاركني الثوب».

قال ليزيك: «هناك آلاف الفتیان حول العالم سيشعرون بالامتنان لـ...». ثم صمت، ليكمل بعدها باستسلام: «لثوب دافئ مثل ذاك يا ولدي».

قال مورت بأمل: «أيمكنني مشاركته معهم؟».

قال ليزيك بصرامة: «عليك أن تبدو أنيقًا. عليك أن تترك انطباعًا، أن تبرز وسط الزحام».

لم يكن في ذلك شك. سيفعل ذلك. انطلقا بين الحشود التي ملأت الميدان، وكل منهما لا يسمع سوى أفكاره الخاصة. استمتع مورت عادةً بزيارة المدينة، بجوها الكوزموبوليتاني ولهجاتها الغريبة من قرى تبعد عنها بخمسة، بل حتى عشرة أميال، لكن هذه المرة شعر بقلق غير مريح، كأنه يتذكر شيئًا لم يحدث بعد.

يبدو أن المعرض يعمل بهذه الطريقة: يقف الرجال الباحثون عن عمل في صفوف غير منتظمة في وسط الميدان. وضع العديد منهم رموزًا صغيرة في قبعاتهم ليخبروا من يراهم بنوع العمل الذي تدربوا عليه؛ وضع الرعاة خصلات من الصوف، الحمالون خصلات من شعر الخيل، مزيّنو الديكور الداخلي يضعون قطعًا من ورق الحائط المصنوع من الخيش المثير للاهتمام، وهكذا.

فيما تجمّع الأولاد الباحثون عن التدريب في جانب الميدان المواجه لمركز القرص.

قال ليزيك بصوت متردد: «فلتذهب فحسب وقِف هناك، وسيأتي أحدهم ليعرض عليك التدرّب، إذا أعجبه مظهرك».

سأل مورت: «وكيف يفعلون ذلك؟».

قال ليزيك: «حسنًا». ثم سكت. لم يشرح هاميش هذه النقطة. فاعتمد على معرفته المحدودة بالسوق التي اقتصرت على مبيعات الماشية، وقال: «أعتقد أنهم يحصون عدد أسنانك ويتأكدون من أنك لا تصدر صوت صغير، وأن قدميك بخير. إياك أن تخبرهم بالقراءة، فهذا يزعج الناس».

سأل مورت: «وماذا بعد ذلك؟».

قال ليزيك: «ثم تذهب وتتعلم حرفة».

سأل مورت: «أي حرفة بالضبط؟».

قال ليزيك بحذر: «حسنًا... النجارة مهنة جيدة. أو السرقة. يجب أن يفعلها أحد».

نظر مورت إلى قدميه. كان ابنًا مطيعًا، حسبما يتذكر، وإذا كان من المتوقع أن يصبح متدربًا فقد عزم على أن يصبح متدربًا جيدًا. مع ذلك، لم تبدُ النجارة واعدةً جدًّا.. فالخشب لديه حياة عنيدة خاصة به ويميل إلى التشقق. وقد ندر اللصوص الرسميون في رامتوبس، حيث لم يكن الناس أغنياء بما يكفي لتحملهم.

قال في النهاية: «حسنًا، سأذهب وأحاول. لكن ماذا يحدث إذا لم أحصل على تدريب؟».

حكَّ ليزيك رأسه، وقال: «لا أعرف. أتوقع أن تنتظر حتى نهاية المعرض. عند منتصف الليل، حسبما أظن».

والآن اقترب منتصف الليل.

بدأ صقيع خفيف يُبرِّد الأحجار المرصوفة. وفي برج الساعة المزخرف الذي يطل على الميدان، خرجت بعض الآلات المتحركة الصغيرة المنحوتة بدقة من أبواب الساعة خلال واجهتها، لتضرب الربع ساعة.

خمس عشرة دقيقة قبل منتصف الليل. ارتجف مورت، لكنَّ نيران الخجل والعناد المشتعلة داخله كانت أحر من منحدرات الجحيم. نفخ في أصابعه ليفعل أي شيء، ونظر إلى السماء المتجمدة، محاولاً تجنب نظرات القلائل المتبقيين في المعرض.

حزم معظم أصحاب الأكشاك أمتعتهم وذهبوا. حتى بائع فطائر اللحم الساخن قد توقف عن النداء لبضاعته، وأكل واحدة دون أي اعتبار للسلامة الشخصية.

اختفى آخر زملاء مورت الطموحين منذ ساعات. كان شابًا بعينين ذاتي حَوْلٍ وظهر محدودب وأنف يسيل، واعتبره متسول شيبيريدج المرخص الوحيد أنه مادة مثالية للتسول. فيما ذهب الشاب الواقف بجانب مورت ليصبح صانع ألعاب. انصرف الجميع واحدًا تلو الآخر، البنّاءون، الحدادون، القتلة، التجار، صانعو البراميل، المحتالون والفلاحون. سيحلُّ العام الجديد في غضون دقائق، وسيبدأ مئة فتى مسيراتهم المهنية بأمل، لتجري أمام أعينهم حيواتهم الجديدة الجديدة بالاهتمام ذات الخدمة المفيدة.

تساءل مورت بحزن عن سبب عدم اختياره. حاول أن يبدو محترمًا، ونظر إلى جميع الأساتذة المحتملين مباشرةً إلى أعينهم ليبهرهم بطبيعته الممتازة وصفاته المحبوبة للغاية. لكن يبدو أن ذلك لم يؤثر بالطريقة الصحيحة.

قال والده: «هل تريد فطيرة لحم ساخنة؟».

- لا.

- إنه يبيعهها بسعر رخيص.

- لا. شكرًا.

رد والده: «آه». ثم تردد وهلةً قبل أن يقول بلطف: «أستطيع أن أسأل الرجل إذا كان يريد متدربًا. تقديم الطعام صناعة موثوقة للغاية».

قال مورت: «لا أعتقد أنه يريد ذلك».

قال ليزيك: «لا، ربما لا. يبدو أنها تجارة فردية. على أي حال، لقد ذهب الآن. سأحتفظ لك بجزء من فطيرتي».

- لا أشعر بالجوع يا أبي.

- اللحم خالٍ من أي غضاريف.

- لا. لكن شكرًا على كل حال.

رد ليزيك: «آه». ثم بدا عليه الإحباط قليلًا. بدأ يهزُّ ساقيه قليلًا ليعيد الحياة إلى قدميه، وصَفَر ببضعة ألحان غير متناغمة بين أسنانه. شعر أنه ينبغي له قول شيء ما، أن يُقدِّم بعض النصائح، أو يشير إلى أن الحياة ملأى بأوقات النجاح والإخفاق، أو أن يضع ذراعه حول كتف ابنه ويتحدث بإسهاب عن مشكلات النضج، أو الإشارة - باختصار - إلى أن العالم مكان غريب حيث لا ينبغي للمرء، مجازيًا، أن يفتخر بشدة برفض عرض تناول فطيرة لحم ساخنة جيدة.

كانا بمفردهما الآن، بينما أحكم الصقيع - وهو آخر صقيع في السنة - قبضته على الأحجار.

في أعلى البرج فوقهما، تحركت عجلة مسنَّنة، فضغطت ذراعًا، لتُطلق سقاطة أوقعت وزنًا ثقیلاً من الرصاص، فأصدر صوتًا معدنيًا رهيبًا وعندما انفتحت الأبواب الصغيرة في واجهة الساعة، خرج الرجال الصغار الميكانيكيون، ملوحين بمطارقهم بطريقة متشنجة، كأنهم مصابون بالتهاب المفاصل الروبوتي، وبدأوا في قرع الأجراس إيمانًا بوصول اليوم الجديد.

قال ليزيك بأمل: «حسنًا، انتهى الأمر». تعيَّن عليهما أن يجدا مكانًا للنوم، فليلة الهوجسووتش ليست الوقت المناسب للمشى في الجبال. ربما كان هناك مستودع في مكان ما...

قال مورت في شرود: «لن يحلّ منتصف الليل إلا بعد الدقة الأخيرة». هزّ ليزيك كتفيه في يأس، إذ هزمته قوة عناد مورت الصلب، وقال: «حسنًا، سننتظر إذن».

ثم سمعا صوت نقرات الحوافر الذي انطلق بدرجة أعلى بكثير من مقداره العادي في ذلك الميدان البارد. في الواقع، «نقرات الحوافر» كانت كلمة غير دقيقة لوصف ذلك الضجيج الذي تردد في رأس مورت؛ إذ تدلُّ «نقرات الحوافر» على حصان بسيط، في الغالب يعتمر قبعة قش ذات ثقبين لأذنيه. لكنّ حدة ما في هذا الصوت أوضحت جدًّا أنه لا يرتدي تلك القبعة القشية.

دخل الحصان الميدان خلال الطريق المواجه لاتجاه مركز القرص، والبخار يلتفُّ حول رقبتة الضخمة البيضاء المبلّلة، والشرر يتطاير من الأحجار المرصوفة تحته. كان يركض بفخر، كما يفعل حصان الحرب. بالتأكيد لم يعتمر قبعة قش.

كان الشخص الطويل على ظهره متدثرًا لاتقاء البرد. عندما وصل الحصان إلى قلب الميدان، نزل الراكب ببطء عنه، وتشابك مع شيء خلف السرج. في النهاية، أخرج -أو أخرجت- كيسًا لطعام الحصان، وربطه فوق أذنيه، مع تربيت رقبتة بلطف.

أصبح الهواء ثقيلًا وزيتيًا، وتحددت الظلال العميقة حول مورت محددةً بأقواس طيف زرقاء وبنفسجية. تقدّم الراكب نحوه، فيما يتموج رداؤه الأسود وقدماه تصدران أصوات نقر صغيرة على الأحجار المرصوفة. كانت هذه هي الأصوات الوحيدة بالمكان، إذ ساد الصمت الميدان كطبقات كبيرة من القطن الصوفي.

لكنّ تعطلّ ذلك التأثير الباهر بسبب بقعة جليد.

- يا للسخافة.

لم يكن صوتًا بالتحديد. الكلمات موجودة بالتأكيد، لكنها وصلت إلى رأس مورت دون أن تمرّ خلال أذنيه.

اندفع إلى الأمام لمساعدة الشخص الذي سقط على بقعة الجليد، ووجد نفسه يمسك بيد ليست سوى كف عظمية مصقولة، ناعمة ومصفرّة إلى حد ما كأنها كرة بلياردو قديمة. سقطت قلنسوة الشخص، ليرى أمامه جمجمة عارية تدير عينيها الفارغتين نحوه.

لم تكونا فارغتين تمامًا، ففي أعماقهما، بدوا كما لو كانتا نافذتين تطلّان خلال خلجان الفضاء، كانتا نجمين زرقاوين صغيرين.

خطر لمورت أنه ينبغي له أن يشعر بالرعب، لذا تفاجأ قليلاً لاكتشاف أنه لم يكن كذلك. يوجد هيكل عظمي يجلس أمامه، يفرك ركبتيه مُتذمّرًا، ولكنه حيّ. شيء مثير للإعجاب والفضول، لكنّ لأسباب غريبة، ليس مخيفًا للغاية.

قالت الجمجمة: «شكرًا لك يا فتى. ما اسمك؟».

قال مورت: «آه، مورتيمر... يا سيدي. ينادونني مورت».

أجابته الجمجمة: «يا لها من مصادفة⁽¹⁾. ساعدني من فضلك».

قام الشخص بعدم اتزان، نافضًا ملابسه بيديه. الآن يمكن لمورت رؤية حزام ثقيل حول خصر الشخص، وقد تعلق به سيف بمقبض أبيض.

قال مورت بلباقة: «آمل أنك لم تُصَبَّ يا سيدي».

ابتسمت الجمجمة. ففكر مورت بداخله: طبعًا، ليس لديه خيارات أخرى سوى الابتسام.

(1) اسم الفتى مورت Mort في اللغة الفرنسية معناه «الموت»، ويعود إلى أصوله اللاتينية «مورتم Mortem» بالمعنى نفسه. (المُترجم)

- لم يحدث أي ضرر، أنا متأكد.

ثم نظر حوله، ويبدو أنه رأى ليزيك الذي بدا متجمدًا في مكانه أول مرة. فظنَّ مورت أنه من الضروري تقديم تفسير.

قال مورت: «هذا والدي». ثم حاول أن يتحرك بشكل وقائي أمام أبيه دون قصد أي إساءة وقال: «عذرًا يا سيدي، هل أنت الموت؟».

- صحيح. لقد نلتَ الدرجة النهائية في قوة الملاحظة أيها الفتى.

ابتلع مورت ريقه، وقال: «والدي رجل طيب». ثم فكر قليلًا، وأضاف: «طيب جدًّا. أفضل أن تتركه وشأنه، إن لم يكن لديك مانع. لا أعرف ماذا فعلتَ به، لكنني أود أن تتوقف عن ذلك. لا أقصد الإساءة».

تراجع الموت إلى الخلف، مائلًا بجمجمته إلى الجانب، وقال: «لقد وضعتُنا فقط خارج الزمن لحظةً. لن يرى أو يسمع شيئًا يزعجه. لا، أيها الفتى، لقد جئتُ من أجلك».

- أنا؟

- ألسَتَ هنا تبحث عن عمل؟

استوعب مورت الأمر فجأة، فقال: «أبحث عن متدرب؟».

تحول محجرا العينين نحوه، متوهجين بنقاط ضوء ساطعة، ليقول الموت: «طبعًا».

لَوَّح الموت بيده العظمية. فظهر وميض من الضوء الأرجواني، وفرقة واضحة، فعاد ليزيك إلى طبيعته. وفوق رأسه، استمرت الآلات الميكانيكية في إعلان منتصف الليل، بعدما سُمِحَ للزمن بالعودة ببطء، فرمش ليزيك بعينه وقال: «لم أركَ هناك لحظةً، آسف، ربما كان عقلي في مكان آخر».

قال الموت: «كنتُ أعرض على ابنك وظيفة. أظن أن ذلك سينال موافقتك؟».

قال ليزيك، متحدثًا إلى الهيكل العظمي ذي الرداء الأسود دون أن يُظهر أي علامة دهشة: «ماذا كانت وظيفتك مرة أخرى؟».

قال الموت: «أرشد الأرواح إلى العالم التالي».

قال ليزيك: «آه، طبعًا، آسف، كان يجب أن أخمن من الملابس. عمل ضروري جدًّا، ومستقر. أهو عمل قديم؟».

قال الموت: «نعم، كنتُ أعمل هذا منذ مدة».

قال ليزيك: «جيد. جيد. لم أفكر في الأمر حقًّا كوظيفة لمورت. لكنها وظيفة جيدة، وموثوقة دائميًا. ما اسمك؟».

- الموت.

قال مورت بشوق: «أبي...».

قال ليزيك: «لا أستطيع أن أتعرّف الشركة. أين موقعكم بالضبط؟».

قال الموت: «من أعماق البحر إلى أعلى الأماكن التي لا يصل إليها حتى النسر».

هز ليزيك رأسه قائلاً: «هذا عادل بما فيه الكفاية. حسنًا، أنا...».

قال مورت وهو يسحب معطف والده: «أبي...».

وضع الموت يده على كتف مورت وقال: «ما يراه ويسمعه والدك ليس ما تراه وتسمعه أنت. لا تُقلِّقه. هل تعتقد أنه سيرغب في رؤيتي... شخصيًّا، كما تعلم؟».

قال مورت: «لكنك الموت! أنت تقتل الناس!».

قال الموت، وقد بدا عليه الضيق بوضوح: «أنا! أقتل! طبعًا لا. الناس يُقتَلون، لكنَّ ذلك شأنهم. أنا فقط أتولى الأمور بعد ذلك. في النهاية، سيكون عالمًا شديد الغباء إذا قُتِلَ الناس دون أن يموتوا، أليس كذلك؟». قال مورت، بشك: «حسنًا، أجل...».

لم يسمع مورت كلمة «مفتون» من قبل. لم تُستخدَم في مفردات الأسرة. لكنَّ أخبرته شرارة داخل روحه أن هنا شيئًا غريبًا وجذابًا وليس مرعبًا بالكامل، وأنه إذا ترك هذه اللحظة تمر فسيقضي بقية حياته نادمًا. وتذكر الإهانات التي تعرض لها خلال اليوم، والمسيرة الطويلة للعودة إلى المنزل...

فقال: «آه، هل يجب أن أموت لأحصل على الوظيفة؟».

قال الموت: «الموت ليس إجباريًا».

قال مورت: «والعظام...؟».

قال الموت: «ليس إذا كنت لا تريد ذلك».

تنفس مورت بارتياح. كان الأمر بدأ يشغل باله، فقال: «إذا وافق والدي، فلا مانع».

نظرا إلى ليزيك الذي كان يحكُّ لحيته، فقال بصوت لطيف لكنْ هش كمن يعاني الحمى: «ما رأيك حيال هذا يا مورت؟ إنها ليست مهنة كما يظن البعض. أو ليس ما ظننتُ لك، أعترف بذلك. لكنْ يُقال إن دفن الموتى مهنة محترمة. إنه خيارك».

قال مورت: «دفن الموتى؟» فأوماً الموت برأسه، ورفع إصبعه إلى شفتيه في إيماءة تأمرية.

قال مورت ببطء: «إنه أمر مثير للاهتمام. أعتقد أنني أرغب في تجربته».

قال ليزيك: «أين قلتَ يوجد مقر عملك؟ أهو بعيد؟».

قال الموت: «ليس أبعد من سُمك الظِّل. حيث كان النداء البدائي الأول، كنت أنا أيضًا. حيثما يكون الإنسان، أكون أنا. عندما يزحف آخر كائن حي تحت النجوم المتجمدة، سأكون هناك».

قال ليزيك: «آه، إنك كثير التنقل إذن». ثم بدت عليه الحيرة، كمن يُكافح لتذكُّر شيء مهم، ثم استسلم بوضوح، فربت الموت كتفه بلطف ثم التفت إلى مورت وقال: «ألديك أي ممتلكات أيها الفتى؟».

قال مورت: «نعم»، ثم تذكَّر. «لكن أعتقد أنني تركتها في المتجر. أبي، لقد تركنا الكيس في متجر الملابس!».

قال ليزيك: «سيكون مغلقًا. المتاجر لا تُفتح في يوم الهوجسووتش. ستضطر إلى العودة بعد غد.. حسنًا، أو غدًا بعد أن بدأ اليوم الجديد».

قال الموت: «لا يهم. سنغادر الآن. لا شك أنني سأجري أعمالًا هنا قريبًا بما فيه الكفاية».

قال ليزيك: «أمل أن تتمكن من زيارتنا قريبًا». وبدا كأنه يصارع خواطره.

فقال مورت: «لست متأكدًا من أنها فكرة جيدة».

قال ليزيك: «حسنًا، وداعًا يا ولدي. عليك أن تفعل ما يُطلب منك، أفهم؟ و... عذرًا يا سيدي، هل لديك ابن؟».

بدا الموت متفاجئًا إلى حد ما، ثم قال: «لا، ليس لدي أبناء».

قال ليزيك: «أريد فقط أن أتحدث مع ابني لآخر مرة، إذا لم تمنع».

قال الموت، بلباقة أكثر من المعتاد: «إذن سأذهب لأجهز الحصان».

وضع ليزيك ذراعه حول كتفي ابنه بصعوبة لاختلاف طولهما، ودفعه برفق خلال الميدان هامسًا: «مورت، تعرف أن عمك هاميش أخبرني بموضوع التدريب هذا، أليس كذلك؟».

قال مورت: «بلى؟».

أفضى الشيخ بالسر قائلًا: «حسنًا، لقد أخبرني بشيء آخر. قال إنه من المعروف أن يرث المتدرب عمل معلمه. فما رأيك في ذلك؟».

قال مورت: «امم. لست متأكدًا».

- إنه أمر يستحق التفكير.

- أنا أفكر في ذلك يا أبي.

- قال هاميش إن الكثير من الفتيان الصغار قد بدأوا بهذه الطريقة. يجعلون أنفسهم مفيدتين، يكسبون ثقة معلمهم، وحسنًا، إذا كان هناك بنات في المنزل... هل قال السيد، آآ، هل قال أي شيء عن وجود بنات له؟

- السيد من؟

- السيد... معلمك الجديد.

قال مورت ببطء: «آه. هو. لا. لا أعتقد ذلك. لا أعتقد أنه من النوع

الذي يتزوج».

- يدين الكثير من الشباب الطموحين بتقدمهم لزواجهم.

- هل فعل ذلك حقًا؟

- مورت، لا أعتقد أنك تسمعي فعلًا.

- ماذا؟

توقف ليزيك على الأحجار المتجمدة وأدار الفتى ليواجهه، ثم قال: «ستحتاج حقًا إلى أن تصبح أفضل من هذا. ألا تفهم، يا فتى؟ إذا أردت

أن تصبح شيئاً في هذا العالم، فعليك أن تستمع. أنا والدك وأخبرك بهذه الأمور».

نظر مورت إلى وجه والده. أراد أن يقول الكثير من الأشياء: أراد أن يقول كم يحبه، وكم هو قلق؛ أراد أن يسأل عما يعتقدده والده حقاً بشأن ما رآه وسمعه. أراد أن يقول إنه يشعر كأنه خطأ على تل صغير واكتشف أنه بركان في الحقيقة. أراد أن يسأله عن معنى كلمة «حفلات الزفاف».

لكنَّ ما قاله فعلاً كان: «نعم. شكراً لك. من الأفضل أن أذهب الآن. سأحاول أن أكتب لك خطاباً».

قال ليزيك: «بشرط أن نجد أحدهم بالجوار ويستطيع قراءته لنا. وداعاً يا مورت». ونفخ أنفه في فخر.

قال مورت: «وداعاً، أبي. سأعود لزيارتك». سعل الموت بلباقة، رغم أن صوت السعال بدا كصوت إطلاق نار من مسدس على عارضة قديمة مملوءة بالخنافس.

قال الموت: «من الأفضل أن نذهب. اركب يا مورت».

وبينما ركب مورت خلفه على السرج الفضي المزخرف، انحنى الموت وصافح ليزيك قائلاً: «شكراً لك».

قال ليزيك: «إنه فتى طيب. كل ما في الأمر أنه حالم قليلاً. أعتقد أننا كنا جميعاً صغاراً في يوم ما».

فكر الموت في هذا وقال: «لا، لا أعتقد ذلك».

شدَّ الموت اللجام وأدار الحصان نحو طريق الحافة، فلوح مورت بياس من موضعه خلف ذي الرداء الأسود.

لَوْح ليزيك بيده أيضاً. ثم، بينما اختفى الحصان وراكباه عن الأنظار، خفض يده ونظر إليها. المصافحة... نتج عنها إحساس غريب. لكن، بطريقة ما، لم يستطع تذكر السبب بالضبط.

استمع مورت إلى قعقة الحجارة تحت حوافر الحصان. ثم أثار صوت خافت للأرض الممهدة عندما وصلوا إلى الطريق، ثم لم يكن هناك شيء على الإطلاق.

نظر إلى الأسفل ورأى الأرض ممتدة تحته، والليل منقوش بضوء القمر الفضي. إذا سقط، فإن الشيء الوحيد الذي سيصطدم به هو الهواء، فضاغف إحكام قبضته على السرج، فقال الموت: «هل أنت جائع يا فتى؟».

قال مورت بكلمات لم تأت من عقله، بل مباشرة من معدته: «أجل يا سيدي».

فأوماً الموت وأوقف الحصان في الهواء، فيما يلمع تحته المنظر البانورامي الدائري الكبير للقرص. توهجت المدينة في مختلف أنحائها بتوهج برتقالي؛ مع لمحة من الألوان الفسفورية في البحار الدافئة بالقرب من الحافة. أما في بعض الأودية العميقة كان ضوء النهار المحبوس في القرص، والذي امتاز ببطئه وثقل وزنه قليلاً⁽¹⁾، يتبخر مثل البخار الفضي.

(1) يمكن عملياً لأي شيء أن يتحرك أسرع من ضوء القرص، فهو كسلان وخامل، على عكس الضوء العادي. الشيء الوحيد المعروف بأنه أسرع من الضوء العادي هو النظام الملكي، وفق الفيلسوف لي تين ويدل. فقد استنتج أنه لا يمكن أن يكون هناك أكثر من ملك واحد، وتتطلب التقاليد عدم وجود فراغ بين الملوك، لذا عندما يموت الملك يجب أن ينتقل العرش إلى الوريث على الفور. يفترض، كما قال، أنه يجب أن تكون هناك بعض الجسيمات الأولية -مثل الملوكونات، أو ربما الملكانات-

لكنّ تلاشى كل ذلك أمام التوهج الذي ارتفع نحو النجوم من الحافة نفسها. أشرطة ضخمة من الضوء لمعت وتلألأت خلال الليل، كجدران ذهبية عظيمة تحيط بالعالم.

قال مورت بهدوء: «إنها جميلة. ما هذه؟».

قال الموت: «الشمس تحت القرص».

- أ تكون هكذا كل ليلة؟

- كل ليلة. هكذا هي الطبيعة.

- ألا يعرف أحد ذلك؟

- أنا. أنت. الآلهة. شيء جميل، أليس كذلك؟

- يا إلهي!

انحنى الموت فوق السرج ونظر إلى ممالك العالم، ثم قال: «لا أعلم شعورك، لكنني أشعر برغبة شديدة في تناول الكاري».

رغم أن الوقت قد تخطى منتصف الليل، كانت المدينة المزدوجة عنخ-موربورك تضجّ بالحياة. ظنّ مورت أن شيبيريدج بدت مزدحمة، لكنّ مقارنة بما يراه من فوضى في الشارع من حوله، اعتبر شيبيريدج كالمشرحة.

حاول الشعراء أن يصفوا عنخ-موربورك وأخفقوا. ربما كان ذلك بسبب الحيوية الشديدة للمكان، أو ربما فقط لأن مدينة تضم مليون

التي تؤدي هذه المهمة، لكن طبعًا قد يخفق الانتقال أحيانًا إذا اصطدمت الجسيمات، في منتصف رحلتها، بجسيم مضاد، أو جسيمات الجمهوريات. خططه الطموحة لاستخدام اكتشافه في إرسال الرسائل التي تتضمن تعذيبًا دقيقًا لملك صغير من أجل تعديل الإشارة، لم تُعرض بالكامل لأن البار أغلق في تلك اللحظة. (المؤلف)

نسمة وبلا مجارٍ، قد تكون قاسيةً على الشعراء الذين يفضلون النرجس البري، وذلك ليس بالأمر الغريب. لذا دعنا نقول فقط إن عنخ-موربورك ملأى بالحياة كالجبين القديم في يوم حار، صاخبة كسُباب في كاتدرائية، لامعة كبقعة زيت، مُلوّنة ككدمة، ملأى بالنشاط، والصناعة، والزحام، والانشغال النابض بالحياة ككلب ميت على مستعمرة نمل أبيض.

كانت هناك معابد، أبوابها مفتوحة على مصراعيها، لتملأ الشوارع بأصوات الأجراس والصنوج، وفي حالة بعض الأديان الأصولية الأكثر تحفظاً، صرخات الضحايا القصيرة. وهناك متاجر ألقت بضاعتها الغريبة على الأرصفة. بدا أن هناك الكثير من الشابات الودودات اللواتي لا يستطعن تحمل تكاليف ارتداء الكثير من الملابس. وهناك مشاعل، ومهرجون، وباعة مختلفون يبيعون أدوات الارتقاء الروحي الفوري.

ومشى الموت بين كل ذلك. توقّع مورت بشكل ما أن يمر خلال الحشود مثل الدخان، لكنه لم يفعل ذلك على الإطلاق. الحقيقة البسيطة أنه أينما سار الموت، كان الناس يبتعدون عن طريقه فحسب.

لكن لم تجرِ الأمور هكذا بالنسبة إلى مورت. فالحشود التي تباعدت برفق أمام معلمه الجديد، كانت تعود لتغلق الطريق أمامه. داس الناس أصابع قدمه، وأصابوا أضلاعه بكدمات، وحاولوا باستمرار أن يبيعوا له توابل كريهة وخضراوات ذات أشكال موحية، وقالت له عجوز، رغم كل الأدلة المخالفة لذلك، إنه يبدو شاباً وسيماً يرغب في قضاء وقت ممتع. فشكرها مورت بشدة، وقال إنه يأمل أن يكون قد قضى وقتاً مُمتعاً فعلاً.

وصل الموت إلى زاوية الشارع، فانعكس الضوء المنبعث من المشاعل بشكل لامع على قبة جمجمته المصقولة، وشمّ الهواء. ترنّح

سكير نحوه، ومن دون أن يدرك سبب ذلك بالتحديد، انحرف انحرافاً بسيطاً في طريقه المتعرج دون سبب واضح.

قال الموت: «هذه هي المدينة يا فتى. ما رأيك؟».

قال مورت بتردد: «إنها كبيرة جداً. أعني، لماذا يريد الجميع العيش متكديسين معاً هكذا؟».

هزَّ الموت كتفيه وقال: «أحبها. إنها ملأى بالحياة».

- سيدي؟

- أجل؟

- ما الكاري؟

اشتعلتِ النيران الزرقاء بعمق في عيني الموت، وقال: «هل سبق لك أن عضضتَ مكعب ثلج متوهج من فرط الحرارة؟».

- لا يا سيدي.

- الكاري يشبه ذلك.

قال مورت مُجدداً: «سيدي؟».

- أجل؟

ازدرد مورت لعابه بصعوبة وقال: «معذرة يا سيدي، لكنَّ والدي قال إنه إذا لم أفهم، فيجب أن أطرح الأسئلة يا سيدي؟».

قال الموت: «أمر جدير بالثناء». وانطلق في شارع جانبي، لتبتعد الحشود من أمامه مثل جزيئات عشوائية.

- حسناً، سيدي، لا أستطيع إلا أن ألاحظ، ما أقصده هو، حسناً، حقيقة الأمر يا سيدي، هي...

قال الموت: «قل ما عندك يا فتى».

- كيف يمكنك أن تأكل الأشياء يا سيدي؟

توقف الموت فجأة، فاصطدم مورت به. وعندما بدأ الفتى في الكلام أشار له الموت بالصمت، إذ بدا كأنه يستمع لشيء ما. قال الموت هامسًا لنفسه: «هناك أوقات، كما تعلم، أشعر فيها بالانزعاج الشديد».

ثم استدار بسرعة وانطلق في زقاق بسرعة عالية، وعباءته ترفرف خلفه. تعرّج الزقاق بين جدران داكنة ومبانٍ نائمة، لم يكن ممرًا بقدر ما هو فجوة متعرجة.

توقّف الموت بجانب برميل ماء متهاك وغمس ذراعه بالكامل، ليُخرج كيسًا صغيرًا مربوطًا بحجر. ثم سحب سيفه، وهو خط من النار الزرقاء المتلألئة في الظلام، وقطع الخيط.

قال الموت: «أشعر بالغضب الشديد فعلاً». وأفرغ الكيس، فشاهد مورت قطع الفرو البائسة المبللة تنزلق لتستقر في بركة متسعة وسط الحصى. مدّ الموت أصابعه البيضاء ولمسها بلطف. وبعد مدة، ارتفع شيء يشبه الدخان الرمادي من جثث القطط الصغيرة، لتتشكل ثلاث غيوم صغيرة على شكل قطط في الهواء، تمايلت أحيانًا دون شكل واضح، وحدّقت إلى مورت بأعين رمادية متحيرة. وعندما حاول لمس إحداهنّ، عبرت يده مباشرة من خلالها وشعر بوخز.

قال الموت: «لا ترى الناس في أفضل حالاتهم في هذا العمل». ونفخ نحو إحدى القطط الصغيرة، وهذا ما جعلها تتدحرج بلطف، فجاء مواؤها المُحتج كأنه قادم من مكان بعيد خلال أنبوب معدني. قال مورت: «إنها أرواح، أليس كذلك؟ كيف يبدو الناس؟».

أجابه الموت: «يبدون كالناس. الأمر كله يتعلق بالمجال المورفوجيني الأساسي».

ثم تنهد بصوت كحفيف الكفن، والتقط القطط الصغيرة من الهواء ليضعها بعناية في مكان ما في الجوانب المظلمة من رده، ثم نهض واقفاً وقال: «حان وقت الكاري».

ازدحم مطعم حدائق الكاري عند تقاطع شارع الإله مع زقاق الدم، لكن احتوى الزحام على أرقى شخصيات المجتمع أو على الأقل، بأولئك الطافين على سطحه ومن الحكمة أن نسميهم النُخبة. كادت الشجيرات العطرة المزروعة بين المناضد تُخفي الرائحة الأساسية للمدينة نفسها، والتي شُبّهت في قوتها بالمعادل الشمّي لصوت البوق الضخم.

أكل مورت بنهم، لكنه كبح فضوله ولم يشاهد كيف يُمكن للموت أن يأكل أي شيء. كان الطعام موجوداً في البداية ثم اختفى لاحقاً، لذا من المفترض أن شيئاً ما حدث في المنتصف. شعر مورت أن الموت لم يكن معتاداً كل هذا، ولكنه يفعله ليجعله يشعر بالراحة، مثل العم العازب المسن الذي أُجبرَ على قضاء العطلة مع ابن أخيه، فيصيبه الرعب من ارتكاب أي خطأ.

لم يلاحظ زبائن المطعم الآخرين ما يحدث، حتى عندما اتكأ الموت وأشعل غليوناً فاخراً. فوجود شخص يخرج الدخان من تجويف عينيه يحتاج إلى جهد لتجاهله، لكن تجاهله الجميع بنجاح.

قال مورت: «أهذا سحر؟».

أجابه الموت: «ماذا تظن؟ هل أنا هنا حقاً أيها الفتى؟».

قال مورت ببطء: «نعم، لقد... لقد راقبتُ الناس. إنهم ينظرون إليك ولكنهم لا يرونك، حسبما أعتقد. إنك تفعل شيئاً ما لعقولهم».

هزَّ الموت رأسه، ثم قال: «هم من يفعلونه بأنفسهم. لا يوجد سحر. لا يستطيع الناس أن يروني، إنهم ببساطة لا يسمحون لأنفسهم بذلك. إلى أن يحين الوقت، طبعاً. السحرة يمكنهم رؤيتي، وكذلك القطط. ولكنَّ الإنسان العادي... لا، أبداً». ثم نفخ حلقة من الدخان نحو السماء، وأضاف: «أمر غريب لكنَّ حقيقي».

راقب مورت حلقة الدخان تتمايل في السماء وتنحرف نحو النهر، ثم قال: «أستطيع أن أراك».

- هذا أمر مُختلف.

وصل النادل الكلاتشي بالفاتورة، ليضعها أمام الموت. كان رجلاً قصيراً وبنياً، وله تسريحة شعر تشبه ثمرة جوز هند متفجرة، فيما تجعَّد وجهه المستدير بعبوس حائر عندما أوماً له الموت بأدب. فهزَّ رأسه كشخص يحاول إزاحة الصابون من أذنيه، ومشى بعيداً.

مدَّ الموت يده إلى أعماق رداءه وأخرج حقيبة جلدية كبيرة ملأى بالعملات النحاسية المتنوعة، تلوَّن معظمها باللونين الأزرق والأخضر بسبب الزمن. ثم فحص الفاتورة بعناية، ليعدَّ بعدها اثنتي عشرة عملة نقدية، ثم نهض وقال: «هيا، علينا الذهاب».

ركض مورت خلفه في أثناء خروجه من الحديقة إلى الشارع، الذي كان لا يزال مزدحماً على الرغم من ظهور بواذر الفجر الأولى في الأفق. قال مورت: «ماذا سنفعل الآن؟».

- سنشتري لك بعض الملابس الجديدة.

- هذه الملابس كانت جديدة اليوم، أعني بالأمس.

قال مورت في أثناء ركضه محاولًا اللحاق به: «قال والدي إن المتجر اشتهر بملابسه الرخيصة».

- لقد أضافت رُعبًا جديدًا إلى الفقر بالتأكيد.

ثم انعطفا إلى شارع أوسع يؤدي إلى جزء أكثر رفاهية من المدينة (حيث كانت المشاعل أقرب إلى بعضها والمزابل أبعد). لم تكن هناك أكشاك ولا تجار في زوايا الأزقة هنا، بل هناك مبانٍ حقيقية ذات لافتات معلقة خارجها. لم تكن مجرد محال، بل كانت متاجر كبرى، ويوجد بها بائعون، وكراسي، وأوعية للبصق. كانت معظمها مفتوحة حتى في هذا الوقت من الليل، لأن تاجر مدينة عنخ العادي لا يمكنه النوم بسبب التفكير في المال الذي لم يربحه.

قال مورت: «ألا يذهب أحد للنوم هنا؟».

قال الموت: «إنها المدينة». ثم فتح باب متجر للملابس. عندما خرجا بعد عشرين دقيقة، كان مورت يرتدي رداءً أسودً أنيقًا مع تطريز فضي خافت، وصاحب المتجر ينظر إلى حَفنة من العملات النحاسية القديمة متسائلًا كيف حصل عليها.

سأله مورت: «كيف تحصل على كل تلك العملات؟».

- في أزواج.

قصَّ حلاق مسائي شعر مورت وَفَّق أحدث صيحات الموضة بين شباب المدينة، فيما استرخى الموت في الكرسي المجاور يهتمهم لنفسه. ودِهَشَ بقوة عندما شعر أنه في مزاج جيد.

في الواقع، بعد مدة، دفع الموت غطاء رأسه إلى الوراء ونظر إلى صبي الحلاق الذي ربط منشفة حول عنقه بطريقة خفية ومنومة أدركها مورت، وقال: «أريد رشةً من ماء المرحاض وتلميعاً أيها الرجل الطيب». تصلّب ساحر مسن تُهذّب لحيته في الجهة الأخرى عندما سمع تلك النبذة الرصينة والثقيلة، ثم استدار، فشحب وبدأ يتمتم ببعض التعاويذ الوقائية بعدما استدار الموت، ببطء شديد لتحقيق أقصى تأثير، وأهداه ابتسامة.

بعد بضع دقائق، بينما يشعر مورت ببعض الحرج والبرد حول أذنيه، اتجه نحو الإصطبلات حيث ربط الموت حصانه. حاول أن يتبخر بشكل تجريبي، إذ شعر أن بدلته وقصة شعره الجديدتين تتطلبان ذلك. لكن لم تنجح المحاولة بالكامل.

استيقظ مورت من النوم.

ظلّ مستلقياً ينظر إلى السقف فيما استعادت ذاكرته أحداث اليوم السابق بسرعة، لتتبلور الأحداث في ذهنه كمكعبات الجليد الصغيرة. لا يمكن أن يكون قد قابل الموت. لا يمكن أن يكون قد تناول وجبة مع هيكل عظمي بعينين زرقاوين متوهجتين. لا بدّ أنه حلم غريب. لا يمكن أن يكون قد ركب حصاناً أبيض عظيمًا صعد به إلى السماء ثم ذهب...

...إلى أين؟

تدفّق الجواب إلى ذهنه بشكل لا يمكن اجتنابه كالطلب الضريبي.

هنا.

امتدت يداه بحثاً إلى شعره المقصوص، ونزلت إلى أغطية مصنوعة من مادة ناعمة وزلقة. كانت أرقى بكثير من الصوف الذي اعتاده في المنزل، والذي كان خشناً وانبعثت منه رائحة الأغنام دائماً، فشعر بها كأنها جليد دافئ جاف.

قفز من السرير بسرعة ونظر حول الغرفة.

أولاً، كانت غرفة كبيرة، أكبر من منزل أهله كله، وجافة، جافة كالأقبية القديمة أسفل الصحاري العتيقة. بدا الهواء كأنه قد طُبِّخَ لساعات ثم تَرَكَ لِيَبْرُدَ. كانت السجادة تحت قدميه عميقة بما يكفي لتُخفي قبيلة من الأقزام، وصدرت عنها فرقعات كهربائية في أثناء سيره عليها. وكل شيء من حوله مُصمَّم بدرجات من اللونين الأرجواني والأسود.

نظر إلى جسده، فوجد نفسه يرتدي ملابس نوم بيضاء طويلة. كانت ملابسه الأصلية مطويةً بعناية على كرسي بجانب السرير، ولم يستطع إلا أن يلاحظ، أن الكرسي كان منحوتاً بدقة بنقوش لجماجم وعظام. جلس مورت على حافة السرير وبدأ يرتدي ملابسه، وعقله يسابق الزمن.

فتح البابَ الثقيلَ المصنوعَ من خشب البلوط بحذر، وشعر بخيبة أمل غريبة عندما لم يصدر الباب صريراً مرعباً.

رأى أمامه ممراً خشبياً خالياً بالخارج، مع شموع صفراء كبيرة مثبتة في حوامل على الحائط البعيد. تسلَّل مورت خارجاً خلال الردهة حتى وصل إلى الدرج، فنزله بنجاح دون أن يحدث شيء مروع، ووصل إلى ما يبدو كقاعة رئيسية ملأى بالأبواب، والكثير من الستائر الجنائزية، وساعة جدارية ذات دقات مثل نبض قلب الجبل، وبجانبيها حامل للمظلات.

هناك منجل على الحامل.

نظر مورت حوله نحو الأبواب، بدت مهمة، ونَحِتَتْ أقواسها بنمط العظام المألوف له الآن. ذهب ليحاول فتح أقرب باب، فقال صوت من خلفه: «إياك أن تدخل هناك يا فتى».

استغرق الأمر لحظةً ليدرك أن هذا ليس صوتًا في رأسه، بل كلمات بشرية حقيقية قالها فم وانتقلت إلى أذنيه بنظام ضغط الهواء المناسب، كما تنصُّ الطبيعة. بذلت الطبيعة جهدًا كبيرًا من أجل ست كلمات قيلت بنبرة طفولية قليلًا.

استدار، فرأى فتاة في طوله نفسه تقريبًا، وربما أكبر منه ببضع سنوات. كان شعرها فضيًا، وعيناها بلون اللؤلؤ، وترتدي فستانًا جميلًا طويلًا نوعًا ما لكن غير عملي كالذي ترتديه البطلات الدراميات اللواتي يحتضننَّ ورودًا إلى صدورهنَّ وهنَّ ينظرن بتأمل إلى القمر. لم يسمع مورت قطُّ بعبارة «ما قبل الرافائييليين»، وهو أمر مؤسف لأنه كان الوصف المناسب تقريبًا. ومع ذلك، فمثل هؤلاء الفتيات يميلنَّ إلى أن يكنَّ نحيلات وضعيفات، في حين أن هذه الفتاة كانت تحمل إشارة طفيفة لتناول الكثير من الشوكولاتة.

نظرت إليه ومال رأسها جانبًا، وقدمها تنقران بتوتر على الأرض. ثم مدت يدها بسرعة وقرصته بقوة في ذراعه.

- آه!

- همم. إذن أنت حقيقي حقًا. ما اسمك يا فتى؟

قال مورت وهو يفرك مرفقه: «مورتمير. ينادونني مورت. لماذا فعلت ذلك؟».

قالت: «سأناديك بالفتى. وليس عليَّ حقًا أن أشرح نفسي، تفهم ذلك، لكن إذا كنت تريد أن تعرف، فقد ظننتُ أنك ميت. تبدو ميتًا».

لم يقل مورت شيئاً، فسألتها الفتاة: «هل فقدت لسانك؟».

كان مورت، في الواقع، يعدُّ حتى العشرة، ثم قال في النهاية: «لست ميتاً، على الأقل، لا أعتقد ذلك. من الصعب قليلاً التأكد. من أنت؟».

قالت بتكبر: «يمكنك أن تنادينني الآنسة يزابيل. أخبرني والدي أنك لا بدُّ أن تتناول شيئاً ما. اتبعني».

ثم انطلقت نحو أحد الأبواب الأخرى، فتبعها مورت بالمسافة المناسبة لتأرجح الباب وعودته، فضرب الباب مرفقه الآخر.

كان هناك مطبخٌ خلف الباب؛ طويل، منخفض ودافئ، بأوانٍ نحاسية معلقة من السقف وموقد ضخم من الحديد الأسود يحتل كامل الجدار الطويل. وجد شيخاً يقف أمامه، يقلي البيض واللحم المقدد ويصفّر من بين أسنانه.

جذبتِ الرائحة براعم التذوق لدى مورت خلال الغرفة، ملمحةً إلى أنهما إذا اجتمعا فسيستمتعان حقاً. فوجد نفسه يتحرك إلى الأمام دون حتى استشارة ساقيه.

قالت يزابيل بحدة: «ألبرت، أضف فرداً آخر إلى الإفطار».

استدار الرجل ببطء وأومأ إليها دون أن ينطق بكلمة. فالتفتت يزابيل إلى مورت وقالت: «يجب أن أقول، إنه مع وجود القرص بأكمله للاختيار منه، كنت أظن أن والدي قادر على أن يجد مَنْ هو أفضل منك. أعتقد أنك ستضطر إلى أداء الأمر».

ثم خرجت من الغرفة بعنف، وأغلقت الباب خلفها. فقال مورت لنفسه: «أفعل ماذا؟».

كانت الغرفة صامتةً، باستثناء صوت الطهو في المقلاة واحتراق الفحم في قلب الموقد المنصهر. رأى مورت أن الباب الخاص بالفرن نُقِشَتْ عليه كلمات «المولوخ الصغير (علامة مسجلة)».

لم يبدُ أن الطباخ لاحظ وجوده، لذا سحب مورت كرسيًا وجلس إلى المنضدة البيضاء النظيفة.

قال الشيخ دون أن ينظر حوله: «فطر؟».

- همم؟ ماذا؟

- قلت، هل تريد الفطر؟

- آه. آسف. لا، شكرًا لك.

- حسنًا يا سيدي الشاب.

ثم استدار وأتى نحو المنضدة.

حتى بعد أن تعود ذلك، ظلَّ مورت يحبس أنفاسه كلما شاهد ألبرت سائرًا. فقد كان خادم الموت من هؤلاء الشيوخ النحيفين ذوي الأنوف الحمراء الذين يبدو دائمًا كأنهم يرتدون قفازات بأصابع مقطوعة - حتى عندما لا يرتدونها- وتضمنت مشيته تسلسلاً معقدًا من الحركات. كان ألبرت يميل إلى الأمام وتبدأ ذراعه اليسرى بالتأرجح، ببطء في البداية، لكن سرعان ما تتطور إلى حركة عنيفة متشنجة تنقل نفسها أخيرًا وفجأة، في الوقت الذي يتوقع فيه من يشاهده أن تطير الذراع من مفصل الكوع، ثم تهبط على امتداد جسده إلى ساقيه وتدفعه إلى الأمام مثل مهرجي السيقان الخشبية العالية. مرَّت المقلاة بسلسلة من المنحنيات المعقدة في الهواء وتوقَّفت عند صحن مورت.

كان لدى ألبرت فعلاً النوع المناسب من النظارات نصف القمرية لينظر من خلفها، قائلاً: «قد تأتي بعض العصيدة بعد الإفطار»، ثم غمز بعينه مشيراً إلى ضمه مورت في مؤامرة العصيدة العالمية.

فقال مورت: «عذراً، لكن أين أنا بالضبط؟».

- ألا تعرف؟ هذا هو بيت الموت يا فتى. لقد أحضرك هنا الليلة الماضية.

- أ.. أتذكر تقريباً. فقط...

- همم؟

قال مورت بغموض: «حسناً. البيض واللحم المقدد.. لا يبدو، حسناً، مناسباً».

قال ألبرت: «لديّ بعض البودنج الأسود في مكان ما».

قال مورت: «لا، أعني...». ثم تردد وأكمل: «الأمر فقط أنني لا أستطيع تخيله جالساً لتناول شرائح اللحم المقلي والبيض».

ابتسم ألبرت، وقال: «أوه، هو لا يفعل ذلك يا فتى. ليس بانتظام، لا. من السهل تلبية احتياجات السيد. أنا فقط أطبخ لنفسي و...». ثم توقف هنيهة وقال: «...للشابة، طبعاً».

أوما مورت وقال: «ابنتك».

قال ألبرت: «ابنتي؟ ها، أنت مخطئ. إنها ابنته».

حدق مورت إلى بيضه المقلي القابع في بحيرة من الدهون. سمع ألبرت بالقيم الغذائية، لكنه لم يكن يهتم بها.

فقال مورت أخيراً: «هل نتحدث عن الشخص نفسه؟ طويل، يرتدي الأسود، و... نحيف قليلاً...».

قال ألبرت بلطف: «ابنته بالتبني. إنها قصة طويلة نوعاً ما...».

رَنَّ جرس بجانب رأسه، فأكمل: «...التي سأحكيها لاحقًا. إنه يريد رؤيتك في مكتبه. يجب أن تسرع إذا كنت مكانك. فهو لا يحب الانتظار. مفهوم، حقًا. أعلى الدرج ثم أول باب على اليسار. لا يمكنك أن تخطئه». قال مورت وهو يدفع كرسيه إلى الخلف: «أهناك جماجم وعظام منقوشة حول الباب؟».

تنهد ألبرت وقال: «كلهم هكذا تقريبًا، أو معظمهم. إنه مجرد ذوقه الخاص. لا يعني بها شيئًا».

ترك مورت فطوره ليتجمد، وأسرع على الدرج، ثم عَبَرَ الممر وتوقف أمام الباب الأول، ورفع يده ليترك الباب. - ادخل.

دار المقبض من تلقاء نفسه، وانفتح الباب للداخل.

جلس الموت خلف مكتبه، يتفحص بتركيز كتابًا جلدًا ضخمًا يكاد يكون أكبر من المكتب نفسه. رفع رأسه عندما دخل مورت، محتفظًا بإصبعه الكلسية ليحدد موضع قراءته، وابتسم. لم يكن هناك بديل لذلك. قال: «آه». ثم توقف، وخدش ذقنه بصوت يشبه سحب ظُفر على مشط، ليكمل بعدها: «مَنْ أنت يا فتى؟».

قال مورت: «مورت يا سيدي. تلميذك. ألا تذكر؟».

حدَّق الموت إليه بعض الوقت، ثم تحولت عيناه الزرقاوان الحادثان إلى الكتاب مرة أخرى، وقال:

«آه، نعم، مورت. حسنًا يا فتى، هل تتمنى بصدق أن تتعلم أقصى أسرار الزمان والمكان؟».

- نعم يا سيدي. أعتقد ذلك، سيدي.

- جيد. الإصطبلات خلف المبنى. الجرافة معلقة داخل الباب مباشرة.

ثم نظر إلى الأسفل، بعدها إلى الأعلى. لم يتحرك مورت، فقال: «أهناك أي احتمال أنك لا تفهمني؟».

قال مورت: «ليس بالكامل يا سيدي».

- السماد يا فتى. السماد. لدى ألبرت كومة سماد في الحديقة.

أتصور أن هناك عربة يدوية في مكان ما في المبنى. انطلق».

فأوماً مورت بأسى وقال: «نعم يا سيدي. حسناً يا سيدي. سيدي؟».

- نعم؟

- لا أرى ما علاقة هذا بأسرار الزمان والمكان يا سيدي.

لم يرفع الموت عينيه عن الكتاب، وقال: «ذلك، لأنك هنا لتتعلم».

رغم أن الموت في عالم القرص وكما يقول بنفسه، هو «تجسيد أنثروبومورفي»، فقد تولى منذ مدة طويلة عن استخدام الخيول العظمية التقليدية، بسبب المتاعب الناجمة عن الاضطرار إلى التوقف كل مدة إلى توصيل الأجزاء المنفصلة. الآن صارت خيوله دائماً كائنات حية من أفضل السلالات. وعرف مورت أن تلك الخيول تتغذى جيداً.

تقدّم بعض الوظائف زيادات في الراتب. هذه الوظيفة قدمت عكس ذلك، لكنها كانت على الأقل في مكان دافئ وسهل تعودها. بعد مدة، اعتاد وتيرتها وبدأ يلعب اللعبة الخاصة بحساب الكميات مثلما يفعل الجميع في هذه الظروف. ففكر قائلاً: لنر، لقد أنجزت تقريباً ربع المهمة، دعونا نسّمها الثلث، لذا عندما أنتهي من تلك الزاوية عند رف التبّين ستكون أكثر من نصف المهمة، دعونا نسّمها خمسة أثمان، وهذا ما يعني ثلاث عربات يدوية أخرى... لا يثبت هذا الكثير، باستثناء

أن روعة الكون الهائلة تصبح أسهل في التعامل معها إذا فكرت فيها كسلسلة من القطع الصغيرة.

راقبه الحصان من مرعاه، محاولاً بين الحين والآخر أن يأكل شعره بطريقة ودية.

وبعد مدة، أدرك أن شخصاً آخر كان يراقبه. اتكأت الفتاة يزابيل على الباب الصغير، وذقنها بين يديها، فقالت: «هل أنت خادم؟».

اعتدل مورت في وقفته وأجابها: «لا. أنا متدرب».

- هذا سخيف. قال ألبرت إنك لا يمكن أن تكون متدرباً.

رَكَّز مورت على رفع حَفَنَة من السماد إلى العربة اليدوية. حفنتين أخريين، دعونا نسميها ثلاثاً إذا كانت معبأة بإحكام، وهذا يعني أربع عربات أخرى، حسناً، لنقل خمساً، قبل أن أنتهي من نصف الطريق إلى...

قالت يزابيل بصوت أعلى: «يقول إن المتدربين يصبحون أساتذة، ولا يمكن أن يوجد أكثر من موت واحد. لذا فأنت مجرد خادم، ويجب أن تفعل ما أقول».

...ثم ثمانى عربات أخرى تعني أنني قد انتهيتُ من كامل المسافة وصولاً إلى الباب، وهو ما يقرب من ثلثي المهمة، وهذا ما يعني...

- هل سمعتَ ما قلته، أيها الفتى؟

أوماً مورت برأسه. ثم ستكون أربع عشرة عربة أخرى، لنقل خمس عشرة فقط لأنني لم أنتهِ من التنظيف في الزاوية جيداً، و...

- هل فقدتَ لسانك؟

قال مورت بهدوء: «مورت».

نظرتُ إليه بغضب وقالت: «ماذا؟».

قال مورت: «اسمي مورت، أو مورتيمر. معظم الناس ينادونني مورت. هل أردتِ التحدث معي عن شيء ما؟».

صمتت لحظةً، لتنتقلَ النظرَ من وجهه إلى المجرفة.

قال مورت: «لقد طُلبَ مني أن أستمِر في هذا العمل فحسب».

انفجرتُ يزابيل: «لماذا أنت هنا؟ لماذا أحضركَ والدي هنا؟».

قال مورت: «لقد وظَّفني في معرض التوظيف. لقد توظَّف جميع الأولاد. وأنا كذلك».

قالت بغضب: «وأنت تريد أن تتوظف؟ إنه الموت، كما تعلم. حاصد الأرواح. إنه مهم جدًا. ليس شيئًا يمكنك أن تصبَّحه، إنه شيء أنت عليه من البداية».

أشار مورت ببطء نحو العربة، وقال: «أتوقع أن الأمور ستتحسن في النهاية. والدي يقول دائمًا إن الأمور تتحسن عمومًا».

رفع مورت المجرفة واستدار، وابتسم من خلف الحصان عندما سمع يزابيل تزمجر وتبتعد.

عمل مورت بانتظام خلال العشرات الست، الأثمان، ثم الأرباع والأثلث، مُدحرجًا العربة خلال الفناء إلى الكومة بجانب شجرة التفاح. كانت حديقة الموت كبيرة، مُرتَّبة ومُعتنى بها جيدًا. وكانت سوداء جدًا جدًا كذلك. العشب أسود. الزهور سوداء. وهنا تفاح أسود يلمع بين أوراق شجرة التفاح السوداء. حتى الهواء بدا حالًا.

بعد مدةٍ، ظنَّ مورت أنه يستطيع أن يرى. لا، لم يمكنه أن يتخيل أنه يرى... ألوانًا مختلفة من الأسود. بمعنى، ليس فقط درجات داكنة جدًا من الأحمر والأخضر وأي شيء آخر، بل درجات حقيقية من الأسود.

طيف كامل من الألوان، كلها مختلفة وكلها... حسنًا، سوداء. أفرغ مورت آخر حمولة، وضع العربة جانبًا، ثم عاد إلى المنزل.
- ادخل.

كان الموت واقفًا خلف منصة، يتفحص خريطة. فنظر إلى مورت كأنه ليس موجودًا بالكامل.

- هل سمعتَ بخليج مانتي؟

قال مورت: «لا يا سيدي».

- هناك حادثة شهيرة لغرق سفينة.

- حدثت هناك؟

أجابه الموت: «ستحدث هناك، فقط إذا تمكنتَ من العثور على ذلك المكان اللعين».

تجوّل مورت حول المنصة وتفحص الخريطة قائلاً: «هل ستغرق السفينة؟».

بدا الموت مصعوقًا، وقال: «طبعًا لا. إنه مجرد مزيج من الملاحة السيئة، المياه الضحلة والرياح المعاكسة».

قال مورت: «هذا رهيب. هل سيكون هناك الكثير من الغرقى؟».

قال الموت: «هذا بيد القدر». ثم أدار وجهه نحو المكتبة خلفه وسحب معجمًا جغرافيًا ثقيلًا وقال: «لا يمكنني فعل شيء حيال ذلك. ما هذه الرائحة؟»

قال مورت ببساطة: «إنها رائحتي».

قال الموت: «آه. الإصطبلات». ثم سكت الموت واضعًا يده على كعب الكتاب، وقال: «ولماذا تعتقد أنني وجهتُك إلى الإصطبلات؟ فكّر بعناية الآن».

تردد مورت. كان يفكر بعناية في أثناء عدّ العربات. تساءل أكان ذلك لتوجيه حركة يده وعينه، أو لتعليمه عادة الطاعة، أو لإدراكه أهمية المهام الصغيرة، على النطاق البشري، أو لجعله يدرك أن حتى العظماء يجب أن يبدأوا من الأسفل. لم تبدُ أي من هذه التفسيرات صحيحة تمامًا.

- أعتقد...

- أجل؟

- حسنًا، أعتقد أن ذلك لأن الإصطبلات غارقة في الروث، لأكون صادقًا.

نظر الموت إليه مدةً طويلةً، فتنقّل مورت في وقفته بقلق من قدم إلى أخرى.

قال الموت بحدة: «هذا صحيح تمامًا. وضوح التفكير. النهج الواقعي. أمور مهمة جدًا في وظيفة مثل وظيفتنا».

- أجل يا سيدي. سيدي؟

- هممم؟

إذ انهمك الموت في كفاحه مع المعجم الجغرافي.

- يموت الناس طوال الوقت، أليس كذلك يا سيدي؟ بالملايين. لا بدّ أنك مشغول جدًا. لكن...

رمق الموت مورت بالنظرة التي بدأ يعتادها. تبدأ بدهشة خاوية، ثم تومض مدةً وجيزةً نحو الانزعاج، وتوقف قصير عند الإدراك، لتستقرّ أخيرًا على الصبر الغامض.

- لكن ماذا؟

- ظننتُ أنك ستكون، حسنًا، أكثر تجوالًا. كما تعلم. تتجول في الشوارع. التقويم السنوي لجدتي يحتوي على صورة لك مع منجل وأشياء أخرى.

- أفهم ما تقصده. أخشى أنه من الصعب الشرح إلا إذا كنتَ تعرف نقطة التجسيد والتركيز على نقطة اللقاء. أتعرفهما؟
- لا أظن ذلك.

- عادةً ما يُتوقع مني الظهور الفعلي في مناسبات خاصة.
قال مورت: «آه، مثل الملك. أعني، يظل الملك حاكمًا حتى عندما يُشغَل بشيء آخر أو حتى عند نومه. أهذا ما تبحث عنه يا سيدي؟»
قال الموت: «ستفي بالغرض». ثم لفَّ الخرائط وقال: «والآن يا فتى، إذا أنهيتَ الإصطبل يمكنك الذهاب لترى أكان لدى ألبرت أي أعمال يريدك أن تنفذها. وإذا أردتَ، يمكنك الخروج معي في جولتي هذا المساء».
أومأ مورت، فعاد الموت إلى كتابه الجلدي الكبير، وأخذ قلمًا، حدق إليه لحظةً، ثم نظر إلى مورت وقد مالت جمجمته: «هل قابلت ابنتي؟».
قال مورت ويده على مقبض الباب: «آآآ.. أجل يا سيدي».
قال الموت: «إنها فتاة لطيفة جدًا، لكنني أعتقد أنها تحب أن يوجد شخص في مثل عمرها للتحدث إليه».

- سيدي؟

- وطبعًا، في يوم ما سيصبح كل هذا ملكًا لها.
أضاء شيء مثل نجم أزرق صغير لحظةً في أعماق تجاويف عينيه، فأدرك مورت، بشيء من الإحراج والافتقار التام إلى الخبرة، أن الموت كان يحاول الغمز.

في مكان لا يدين بشيء للزمان والمكان، ولم يظهر على أي خريطة، بل وُجِدَ فقط في تلك النواحي البعيدة من الكون متعدد الأبعاد، المعروفة للقليل من علماء الفيزياء الفلكية الذين تعاطوا مواد مُهلوسة سيئة، قضى مورت وقت ما بعد الظهر يساعد ألبرت في زراعة البروكلي. كان أسود، مُلوَّنًا باللون الأرجواني.

قال ألبرت وهو يلوّح بأداة الزرع: «إنه يحاول، كما ترى. الأمر فقط أنه عندما يتعلق الأمر بالألوان، لا يمتلك خيالاً واسعاً». قال مورت: «لست متأكدًا أنني أفهم كل هذا. هل قلت إنه صنع كل هذا؟».

وراء جدار الحديقة، انحدرت الأرض نحو وادٍ عميق ثم ارتفعت إلى أراضٍ موحشة مظلمة تمتد إلى الجبال البعيدة، مسننة مثل أسنان القطط.

قال ألبرت: «نعم. انتبه لما تفعله بعلبة الري تلك».

قال مورت: «ماذا كان هنا من قبل؟».

قال ألبرت وهو يبدأ صفاً جديداً: «لا أعرف. أعتقد أنها كانت فراغاً، هذا هو الاسم الفاخر للعدم الخام. في الحقيقة، هذا ليس عملاً جيداً. أعني، الحديقة جيدة، لكنّ الجبال سيئة الصنع. تبدو كلها مشوشة عندما تقترب منها. ذهبْتُ وألقيْتُ نظرةً إحدى المرات».

حدّق مورت بقوة إلى الأشجار الأقرب إليه. بدت صلبة بشكل يستحق الثناء، فقال: «لماذا فعل كل هذا؟».

تذمّر ألبرت وقال: «هل تعرف ما يحدث للأولاد الذين يطرحون الكثير من الأسئلة؟».

فكّر مورت لحظة ثم قال في النهاية: «لا، ماذا؟».

عمّ الصمت، ثم اعتدل ألبرت وقال: «لا أعرف. ربما يحصلون على إجابات، وهذا عقاب كافٍ لهم».

قال مورت: «قال لي إنه يمكنني الخروج معه الليلة».

قال ألبرت بشكل غامض وهو يتجه نحو الكوخ: «أنت فتى محظوظ إذن، أليس كذلك؟».

قال مورت وهو يلحق به: «هل حقاً صنع كل هذا؟».

- أجل.

- لماذا؟

- أعتقد أنه أراد مكاناً يمكنه أن يشعر فيه كأنه في منزله.

- هل أنت ميت يا ألبرت؟

- أنا؟ هل أبدو ميتاً؟

فزمجر الشيخ عندما بدأ مورت ينظر إليه ببطء وبنظرة فاحصة، وقال: «يمكنك أن تتوقف عن ذلك. أنا حيٌّ مثلك. ربما أكثر».

- آسف.

قال ألبرت: «حسناً». ثم دفع الباب الخلفي، والتفت لينظر إلى مورت بأكبر قدر من اللطف الذي استطاع أن يظهره، وقال: «من الأفضل ألا تسأل كل هذه الأسئلة، إنها تزعج الناس. الآن، ما رأيك في تناول وجبة فطور مُشبعة؟».

رنَّ الجرس وكانا يلعبان الدومينو، فجلس مورت في انتباه.

قال ألبرت: «سيحتاج إلى تجهيز الحصان، هيا».

خرجوا إلى الإصطبل في بدايات الغسق، وراقب مورت الشيخ وهو يجهز حصان الموت.

قال ألبرت وهو يشد حزام الحصان: «اسمه بينكي. وهذا دليل لك، لا يمكنك التنبؤ أبداً».

حاول بينكي أن يأكل وشاحه بطريقة مُحِبَّة. فتذكر مورت التصميم الخشبي في تقويم جدته، بين صفحة أوقات الزراعة وقسم مراحل القمر الذي يظهر «الموت العظيم القادم إلى جميع الناس». لقد حدَّق إليها مئات المرات عندما كان يتعلم الحروف. لم يكن أمراً مثيراً للإعجاب، بالقدر نفسه لو كان معروفاً بالعموم أن الحصان الذي يركبه الشبح، وينفث النار يُسمَّى بينكي.

قال ألبرت: «كنت سأفكر في شيء مثل ناب أو سيف أو أسود. لكن لدى السيد أهواؤه الصغيرة، كما تعلم. تتطلع إلى ذلك، أليس كذلك؟».

قال مورت بتردد: «أعتقد ذلك، لم أر الموت يعمل فعلياً من قبل».

قال ألبرت: «لم يره الكثيرون، ليس مرتين على الأقل».

أخذ مورت نفساً عميقاً، ثم قال: «بخصوص ابنته...».

جاء الموت قائلاً: «آه، مساء الخير يا ألبرت وأيتها الفتى».

قال مورت تلقائياً: «اسمي مورت».

دخل الموت إلى الإسطبل، حانياً قامته قليلاً لتفادي السقف. لاحظ مورت أن ألبرت أوماً برأسه، ليس بطريقة خاضعة، بل كجزء من الطقوس. قابل مورت بعض الخدم في المناسبات النادرة التي أخذ فيها إلى المدينة، ولم يكن ألبرت مثل أي منهم. كان يتصرف كأن المنزل ملكه حقاً وصاحبه مجرد ضيف عابر، شيء يجب تحمُّله مثل طلاء مقشَّر أو عناكب في المرحاض. تقبَّل الموت ذلك أيضاً، وكأنهما قد قالا كل ما يلزم قوله منذ وقت طويل، وكانا الآن راضيين بمواصلة أعمالهما بأقل قدر من الإزعاج. بالنسبة إلى مورت، كان الأمر أشبه بالخروج في

نزهة بعد عاصفة رعدية شديدة؛ كل شيء كان نقيًا، لا شيء كان غير سار بشكل خاص، لكن هناك إحساس بالطاقة الهائلة المستهلكة للتوّ. أصبح اكتشاف حقيقة ألبرت جزءًا من قائمة مهام مورت.

قال الموت: «أمسك هذا»، ودفع بمنجل إلى يد مورت فيما تسلق بنفسه على بينكي. بدا المنجل عاديًا بما يكفي، باستثناء نصله: كان رقيقًا جدًا لدرجة أن مورت استطاع أن يرى من خلاله، كوميض أزرق باهت في الهواء يمكن أن يقطع النار ويمزق الصوت، فأمسكه مورت بحذر شديد.

قال الموت: «حسنًا، أيها الفتى. تعال اصعد. لا تنتظرنا يا ألبرت». ثم انطلق الحصان خارج الفناء إلى السماء. كان ينبغي أن يظهر وميض أو تدفق من النجوم. أو أن يدور الهواء ويتحول إلى شرارات مسرعة كما يحدث عادةً في القفزات البعدية العادية كل يوم. لكن هذا كان الموت الذي أتقن فن الذهاب إلى أي مكان دون استعراض، ويمكنه الانزلاق بين الأبعاد بنفس سهولة التسلل خلال باب مغلق، وتحركا في رحلة مريحة خلال أودية السحاب، مرورًا بجبال ضخمة من السحب الركامية، إلى أن تفرقت الأغصان وانبسط القرص أمامهما، مستمتعًا بأشعة الشمس.

قال الموت، عندما أشار مورت إلى ذلك: «هذا لأن الوقت قابل للتعديل. إنه ليس مهمًا حقًا».

قال مورت: «ظننت دائمًا أنه مهم».

قال الموت بجدية: «يظن الناس أنه مهم فقط لأنهم اخترعوه». اعتبر مورت هذا القول مبتذلًا نوعًا ما، لكنه قرّر ألا يجادل، فقال: «ماذا سنفعل الآن؟».

قال الموت: «هناك حرب واحدة في كلاشستان. عدة تفشيات للطاعون. واغتيال مهم، إذا كنت تفضل ذلك».

قال مورت: «ماذا، جريمة قتل؟».

- أجل، ملك.

قال مورت بلا مبالاة: «أوه، ملوك». كان يعرف الملوك. فمرة كل عام، تأتي إلى شيبيريدج فرقة من اللاعبين المتجولين، أو من المشاة على الأقل، وكانت العروض التي يقدمونها دائماً عن الملوك. اعتاد الملوك دائماً أن يقتلوا بعضهم، أو يُقتلون. كانت الحكبات معقدة، تتضمن هوية خاطئة، سموماً، معارك، أبناء مفقودين منذ زمن، أشباحاً، ساحرات، وعادة الكثير من الخناجر. ولأنه من الواضح أن كونك ملكاً ليس نزهة، كان من المدهش أن نصف شخصيات الفرقة على ما يبدو كانوا يحاولون أن يصبحوا ملوكاً. كانت فكرة مورت عن الحياة في القصر ضبابية بعض الشيء، لكنه تخيل أن لا أحد يحصل على الكثير من النوم.

قال: «أود أن أرى ملكاً حقيقياً. قالت جدتي إنهم يرتدون التيجان طوال الوقت. حتى عندما يذهبون إلى المرحاض».

فكر الموت في هذا بعناية، وقال: «لا يوجد سبب تقني يمنع ذلك. ومع ذلك، من واقع خبرتي، ليست هذه هي الحال عادةً».

دار الحصان، وسرعان ما انطلق فوق الأراضي الشاسعة مترامية الأطراف لسهول ستو بسرعة البرق. كان هذا بلدًا غنيًا، مليئًا بالطمي وحقول الكرنب المتموجة وممالك صغيرة أنيقة تتعرج حدودها مثل الثعابين مع تغير الشكل السياسي للأرض بسبب الحروب الصغيرة، عهود الزواج، والتحالفات المعقدة، وبعض الخرائط السيئة أحياناً.

قال مورت والغابة تنزلق تحتهم: «هذا الملك، أهو جيد أم سيئ؟».

قال الموت: «لا أهتم بمثل هذه الأمور. لا أظن أنه أسوأ من أي ملك آخر».

قال مورت: «هل يأمر بإعدام الناس؟». وعندما تذكّر مع من يتحدث أضاف: «مع حفظ المقامات طبعاً».

قال الموت: «أحياناً. هناك بعض الأمور التي عليك عملها عندما تكون ملكاً».

ظهرت مدينة أسفلهم، متجمعة حول قلعة مبنية على نتوء صخري برز من السهل مثل بثرة جيولوجية. قال الموت إنها كانت صخرة ضخمة من جبال رامتوبس البعيدة، تركتها الأنهار الجليدية المنسحبة في الأيام القديمة عندما خاض عمالقة الجليد حرباً على الآلهة وركبوا الأسطح الجليدية خلال الأرض في محاولة لتجميد العالم بأسره. في النهاية، تخلّوا عن محاولتهم وقادوا قطعانهم اللامعة العظيمة إلى أراضيهم المخفية بين الجبال ذات الحواف الحادة بالقرب من المركز. لم يدرك أحد في السهول لماذا فعلوا ذلك، وعلى العموم، اعتبر الجيل الأصغر في مدينة ستولات، المدينة المحيطة بالصخرة، أنهم فعلوا ذلك لأن المكان كان مُملًا بشكل مميت.

تربّع بينكي على اللاشيء وهبط على أحجار القلعة في أعلى أبراجها. ترجّل الموت وأمر مورت بتحضير حقيبة الطعام للحصان.

قال مورت فيما كانا يسيران نحو درج: «ألن يلاحظ الناس وجود حصان هنا؟».

هزّ الموت رأسه وقال: «أتصدق أنه من الممكن أن يوجد حصان في أعلى هذا البرج؟».

قال مورت: «لا. لا يمكنك إيصال حصان إلى هنا خلال هذه السلاالم».

- حسنًا، إذن؟

- أوه. فهمت. الناس لا يريدون رؤية ما لا يمكن أن يوجد.

- أحسنت.

سارا الآن في ممر واسع عُلِّقَتْ فيه سجاجيد الحائط المزخرفة. أخرج الموت ساعة رملية من تحت رداءه، وتفحصها عن قرب في الضوء الخافت.

كانت ساعة رملية مميزة، قُطِّعَ زجاجها إلى جوانب معقدة ومحاطة بإطار مزخرف من الخشب والنحاس، وحُفِرَت كلمات «الملك أوليفر الوجد» بعمق على الساعة.

لمعت الرمال بداخلها بشكل غريب. لم يتبقَّ الكثير منها. فهمهم الموت لنفسه وأعاد الساعة إلى مكانها الغامض.

عندما انعطفا في الزاوية، اصطدما بجدارٍ من الصوت. وجدا قاعة مملأى بالناس، تحت سحابة من الدخان والثرثرات التي ارتفعت إلى أعلى لتصل إلى الظلال المملأى باللافتات في السقف. في الشرفة العلوية، وقف ثلاثة من المنشدين يحاولون بأقصى جهدهم أن يُسمِعوا الناس أصواتهم ولكنهم لم ينجحوا.

لم يسبب ظهور الموت الكثير من الضجة. استدار الحاجب عند الباب نحو الموت، فتح فمه ثم عبس في تشتت وفكرٍ في شيء آخر. نظر بعضهم تجاههما، فتشتت أعينهم على الفور فيما تغلَّبت فطرتهم السليمة على الحواس الخمس الأخرى.

قال الموت: «لدينا بضع دقائق»، ثم أخذ كأس شراب من على صينية عابرة، وقال: «دعنا نختلط بالحضور».

قال مورت: «إنهم لا يستطيعون رؤيتي أيضًا! ولكنني حقيقي!».

قال الموت: «الواقع ليس كما يبدو دائماً. على أي حال، إذا كانوا لا يريدون رؤيتي، فهم بالتأكيد لا يريدون رؤيتك. هؤلاء أرسطقراطيون يا فتى. إنهم بارعون في عدم رؤية الأشياء. لماذا هناك حبة كرز على عود في هذا المشروب؟».

قال مورت تلقائياً: «مورت».

- الأمر ليس كأنه يضيف أي شيء إلى النكهة. لماذا يأتي أحد بمشروب عالي الجودة، ثم يضع حبة كرز على عصا؟

قال مورت: «ماذا سيحدث لاحقاً؟». اصطدم به إيرل مُسنّ، نظر في كل مكان إلا نحوه مباشرةً، ثم هز كتفيه ومشى بعيداً.

قال الموت وهو يلمس قطعة كانابيه عابرة: «خذ هذه الأشياء الآن كمثال. أعني، لا بأس بالفطر، وكذلك الدجاج، والكريمة، ليس لدي شيء ضد أي منهم، لكن لماذا باسم العقل تُفرَم جميعاً وتوضع في قوالب معجنات صغيرة؟».

قال مورت: «عفواً؟».

تابع الموت: «هذه هي حال البشر، لديهم فقط بضع سنوات في هذا العالم، ويقضونها جميعاً في تعقيد الأمور على أنفسهم. رائع. تناول مخللاً».

قال مورت، محاولاً النظر فوق رؤوس الحاشية: «أين الملك؟».

قال الموت: «الشخص ذو اللحية الذهبية». ثم نقر كتف أحد الخدم، وعندما استدار الرجل ونظر حوله في حيرة، أخذ مشروباً آخر ببراعة من صينيته.

تلقت مورت حوله إلى أن رأى الشخص الواقف في مجموعة صغيرة في وسط الحشد، مائلاً قليلاً ليسمع بشكل أفضل ما يقوله له أحد رجال

الحاشية القصيرين. كان رجلاً طويلاً وضخم البنية بوجه صبور ومتين يُمكن للمرء أن يشتري منه حصاناً مستعملاً بثقة.

قال مورت: «لا يبدو أنه ملك سيئ، لماذا يرغب أحد في قتله؟».

أشار الموت بمنجله قائلاً: «هل ترى الرجل الواقف بجانبه؟ صاحب الشارب الصغير والابتسامة التي تشبه السحلية؟».

- أجل؟

قال الموت: «إنه ابن عمه، دوق ستو هيليت. ليس أفضل الناس. رجل ماهر في استخدام السموم. كان الخامس في ترتيب تولي العرش العام الماضي، والآن هو الثاني في الترتيب. يمكن القول إنه متسلق اجتماعي»، ثم أخرج من تحت رداءه ساعة رملية تجري فيها الرمال السوداء بين شبكة حديدية مسننة. هزّها قليلاً لتجربتها، ثم قال متنهّداً: «ومن المقرر أن يعيش ثلاثين، خمساً وثلاثين سنة أخرى».

قال مورت: «وهل سيستمر في قتل الناس؟»، ثم هز رأسه وقال: «لا وجود للعدل».

تنهّد الموت، وقال وهو يُسلم شرابه لخادم تفاجأ بكونه فجأة يحمل كأساً فارغة: «لا، يوجد أنا فقط».

ثم أخرج سيفه الذي كان له النصل الأزرق الجليدي الرفيع نفسه كالظل مثل منجل المكتب، وتقدّم إلى الأمام، فهمس مورت: «ظننتُ أنك تستخدم المنجل».

قال الموت: «الملوك يحصلون على السيف. إنه امتياز ملكي».

ثم دفع يده الحرة بأصابعه العظمية تحت رداءه مرة أخرى وأخرج ساعة الملك أوليف الرملية. وفي نصفها العلوي، اجتمعت الحبوب الأخيرة من الرمال معاً.

قال الموت: «انتبه جيدًا، قد تُسأل عنه بعد ذلك».

قال مورت بيأس: «انتظر، هذا ليس عدلاً. ألا يمكنك إيقافه؟».

قال الموت: «عدل؟ مَنْ تَحَدَّثَ عَنِ العدل؟».

- حسنًا، إذا كان الرجل الآخر بهذا الـ...

- اسمعني، لا صلة للعدل بذلك الأمر. لا يمكنك أن تتخذ جانبًا ما.

يا إلهي. عندما يحين الوقت، لا بديل لذلك. هذا كل ما في الأمر يا

فتى.

تأوّه مورت ناظرًا إلى الحشد: «مورت».

ثم رآها. فتحت حركة عشوائية وسط الناس قناة بين مورت وفتاة نحيلة ذات شعر أحمر تجلس بين مجموعة من النساء الأكبر سنًا خلف الملك. لم تكن جميلة تمامًا، إذ اتصفت بنمش مُفرط، وبصراحة، كانت نحيفة جدًا. لكن رؤيتها سببت صدمة وصلت إلى الجزء الخلفي من دماغ مورت ونزلت إلى قاع معدته وهي تضحك بخبث.

قال الموت وهو يدفع مورت بمرفقه الحاد: «حان الوقت، اتبعني».

توجه الموت نحو الملك، وهو يزن سيفه في يده. رمش مورت وبدأ في اتّباعه. التقت عينا الفتاة بعينيّه لحظة ثم ابتعدتا على الفور ثم عادت إليه، مُجبرةً رأسها على الدوران، فيما بدأ فمها يتشكل على شكل دائرة بسبب الرعب.

ذاب عمود مورت الفقري، فبدأ في الجري نحو الملك صارخًا: «احترس! إنك في خطر كبير!».

وسادت الفوضى أرجاء المكان، وبدأت تمتلئ بظلال زرقاء وبنفسجية، مثل حلم ضربة شمس، وتلاشى الصوت حتى أصبح هدير

القاعة بعيدًا ومبهمةً، مثل الموسيقى في سماعات رأس شخص آخر.
رأى مورت الموتَ واقفًا بجانب الملك، عينيه موجّهتين نحو...
...شُرفة فرقة المنشدين.

رأى مورت الرامي، رأى القوس، ثم رأى السهم يطير في الهواء بسرعة
حلزون مريض. ورغم بطئه، لم يستطع اللحاق به. بدا كأن ساعات قد
مرت قبل أن يتمكن من التحكم في ساقيه الثقيلتين، لكنه أخيرًا تمكن
من جعل كلا قدميه تلامسان الأرض في الوقت نفسه، واندفع ببطء
شديد يشبه التسارع الظاهري لانجراف القارات من مواضعها.

بينما يتلوى مورت ببطء في الهواء، قال الموت دون ضغينة: «لن
ينجح الأمر، كما تعلم. من الطبيعي أن ترغب في المحاولة، لكنه لن
ينجح».

في عالم أشبه بالحلم، انجرف مورت خلال عالم صامت...
أصاب السهم هدفه، ولوّح الموت بسيفه في حركة مزدوجة اليدين
مرّت بلطف خلال رقبة الملك دون أن تترك أي أثر. بالنسبة إلى مورت
الذي تحرّك ببطء خلال عالم الشفق، بدا له الأمر كأن شكلاً شبحياً قد
سقط بعيدًا.

لا يمكن أن يكون الملك، لأنه لا يزال واقفًا بوضوح هناك، ينظر
مباشرة إلى الموت بتعبير مدهوش للغاية. كان هناك ظل ما حول قدميه،
ومن بعيد تفاعل الناس بالصراخ والصياح.

قال الموت: «مهمة نظيفة ناجحة. دائمًا يثير الملوك المشكلات.
يميلون إلى التمسك بحيواتهم. الآن، الفلاح العادي، لا يمكنه الانتظار».
قال الملك: «من تكون بحق الجحيم؟ ماذا تفعل هنا؟ هاه؟ حراس!
أطلب الـ...».

اخترقت الرسالة المُلحّة من عينيه أخيرًا عقله. فأثار ذلك إعجاب مورت، إذ تمسّك الملك أوليف بعرشه سنواتٍ عدّة، حتى وهو ميت، عرف كيف يتصرف.

قال الملك: «أوه، الآن أفهم. لم أتوقع أن أراك قريبًا هكذا».

قال الموت مُنحنيًا: «جلالتك، قليل من يتوقعون ذلك».

نظر الملك حوله. ساد الهدوء والظلام في عالم الظلال هذا، لكن في الخارج بدا أن هناك الكثير من الإثارة.

- هذا أنا هناك، أليس كذلك؟

- أخشى ذلك يا سيدي.

- عمل نظيف. هل كان بقاذفة أسهم؟

- أجل. والآن يا سيدي، إذا تفضلت...

قال الملك: «من فعلها؟». فتردد الموت، ثم قال: «قاتل مأجور من عنخ-موربورك».

- همم. ماهر. أهنئ ستو هيلت. وهأنا أملأ نفسي بالترياق. لا يوجد

ترياق للفلواز البارد، ها؟ أليس كذلك؟

- بالتأكيد لا يا سيدي.

- خدعة سلم الحبال المُعلّق والحصان السريع عند الجسر المتحرك،

أليس كذلك؟

قال الموت، ممسكًا بظل الملك بلطف من ذراعه: «يبدو كذلك، يا

سيدي. إن كان هناك ما يواسيك، فالحصان يحتاج إلى أن يكون سريعًا».

- أليس كذلك؟

سمح الموت لابنته الثابتة بأن تتسع قليلاً، ثم قال: «لديّ موعد مع راكبه غداً في مدينة عنخ، لقد سمح للدوق بأن يزوده بوجبة غداء محمولة».

فكّر الملك في هذه اللحظة، إذ كان تميّزه الفائق في وظيفته يعني أنه لم يكن سريع الاستيعاب تلقائياً، ثم أطلق ضحكة قصيرة، ولاحظ مورت لأول مرة، فقال: «من هذا؟ أهو ميت أيضاً؟».

قال الموت: «إنه تلميذي الذي سينال توبيخاً جاداً قبل أن يزداد عمره، هذا الوغد».

قال مورت تلقائياً: «مورت». سمع صوت حديثهما، لكنه لم يستطع أن يرفع عينيه عن المشهد من حولهم. بدا واقعياً. بدا الموت صلباً. بدا الملك بصحة جيدة بشكل مدهش بالنسبة إلى شخص ميت. لكن بقية العالم كان كتلة من الظلال المتحركة. انحنى الأشخاص فوق الجسد المتراخي، يتحركون خلال مورت كما لو كانوا مجرد ضباب.

ورأى الفتاة تجثو باكية. قال الملك: «هذه ابنتي، يجب أن أشعر بالحزن. لماذا لا أشعر بذلك؟».

- الشعور تتركه خلفك. إنها مسألة غُد فقط.

- آه. ربما هذا هو السبب، حسبما أعتقد. لا يمكنها أن ترانا، أليس كذلك؟

- لا.

- أظن أنه لا توجد فرصة أنني قد...؟

قال الموت: «لا توجد أي فرصة».

- فقط لأنها ستصبح ملكة، ولو استطعت فقط أن...

- آسف.

نظرت الفتاة إلى الأعلى وخلال مورت. شاهد الدوق يسير نحوها ويربّت بيده كتفها لطمأننتها. ارتسمت ابتسامة خافتة على شفتي الرجل. ابتسامة من النوع الذي يتربص على الشواطئ الرملية منتظرًا السباحين الغافلين.

قال مورت: «لا أستطيع أن أجعلك تسمعينني، لا تثقي به!».

حدّقت الفتاة إلى مورت، وأغمضت عينيها قليلًا، فمدّ يده، وشاهدها تمرّ مباشرةً من خلال يدها.

قال الموت: «تعال يا فتى. لا تتباطأ».

شعر مورت بيد الموت تضيق على كتفه، ليس بطريقة غير ودية. فاستدار على مضض، ليتبع الموت والملك.

خرجوا من خلال الجدار. وصل إلى منتصف الطريق بعدهما قبل أن يدرك أن المشي خلال الجدران كان مستحيلًا.

كاد يقتله المنطق الانتحاري لهذه الفكرة. شعر ببرودة الحجر حول أطرافه قبل أن يقول صوت في أذنه: «فكّر في الأمر بهذه الطريقة. لا يمكن للجدار أن يكون موجودًا. وإلا لما كنتَ تمشي من خلاله. أليس كذلك، يا فتى؟».

قال مورت: «مورت».

- ماذا؟

قال مورت بغضب، متقدمًا إلى الأمام: «اسمي مورت. أو مورتيمر». فيما تراجع البرودة خلفه.

- ها. لم يكن ذلك صعبًا، أليس كذلك؟

نظر مورت صعودًا وهبوطًا على طول الممر، ثم جَرَّب أن يخطب الجدار. لا بُدَّ أنه مشى خلاله، لكنه شعر به صلبًا كفاية الآن، وتلألأت ذرات الجدار الحجري الصغيرة أمامه.

قال مورت: «كيف تفعل هذا الشيء؟ كيف أفعل ذلك؟ هل هو سحر؟».

- السحر هو الشيء الوحيد الذي ليس كذلك يا فتى. عندما تستطيع فعل ذلك بنفسك، لن يتبقى هناك شيء آخر يمكنني أن أعلمك إياه.

قال الملك، الذي أصبحت هيئته أكثر تشتتًا الآن: «أعترف أنه أمر مثير للإعجاب. بالمناسبة، يبدو أنني أختفي».

قال الموت: «إنه ضعف الحقل المورفوجيني».

قال الملك بصوت لا يعلو على الهمس: «هل هذا هو السبب؟».

- يحدث ذلك للجميع. حاول أن تستمتع به.

سأله الملك بصوتٍ لم يعد أعلى من طيف في الهواء: «كيف؟».

فأجاب الموت: «كُن نفسك فقط».

في تلك اللحظة، انهار الملك، أصبح أصغر وأصغر في الهواء بعدما انهار الحقل أخيرًا، وصار نقطة صغيرة لامعة. حدث ذلك بسرعة كبيرة لدرجة أن مورت كاد يفوته الأمر. من شبح إلى نقطة صغيرة في نصف ثانية، مع تنهيدة خافتة.

أمسك الموت بالشيء المتلألئ برفق ووضعه في مكان ما تحت عباءته.

قال مورت: «ماذا أصابه؟».

قال الموت: «هو وحده من يعرف. تعال».

أضاف مورت، بشيء من الأمل: « تقول جدتي إن الموت يشبه الذهاب إلى النوم».

- لا أعرف. لم أفعل أيًا منهما.

ألقي مورت نظرةً أخيرةً على طول الممر. انفتحت الأبواب الكبيرة وتدفق منها رواد القاعة إلى الخارج. حاولت عجوزان مواساة الأميرة، لكنها تقدمت أمامهما بسرعة حتى كانتا تتأرجحان خلفها مثل بالونتين مهُوستين، ثم اختفين في ممر آخر.

قال الموت مؤكّداً: «ملكة فعلاً». فقد أحبّ الموت الأناقة.

وصلا إلى السطح قبل أن يتحدث الموت مرة أخرى قائلاً وهو يزيل حقيبة طعام بينكي: «لقد حاولت أن تحذره».

- أجل يا سيدي. آسف.

- لا يمكنك التدخل في القدر. من أنت لتحكم من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت؟

راقب الموت تعبيرَ مورت بعناية، ثم أضاف: «الآلهة فقط مسموح لها بذلك. العبث بمصير فرد واحد يمكن أن يدمر العالم بأسره. هل تفهم؟».

أوما مورت بحزن، ثم قال: «هل ستعيدني إلى منزلي؟».

مدّ الموت يده ورفعته وراء السرج وقال: «لأنك أظهرت تعاطفاً؟ لا. ربما كنتُ سأفعل لو أنك أظهرت استمتاعاً. لكن عليك أن تتعلم وسيلة التعاطف المناسب لمهنتك».

- ما هي؟

- نصل حاد.

مرَّت الأيام، مع أنَّ مورت لم يكن متأكدًا من عددها. تدرجت شمس عالم الموت الكثيبة بانتظام خلال السماء، لكنْ بدت الزيارات إلى فضاء البشر كأنها لا تتبع نظامًا معينًا. ولم تكن زيارات الموت للملوك والمعارك المهمة فقط، بل معظم الزيارات الشخصية كانت لأشخاص عاديين تمامًا.

ظلَّ ألبرت يُقدِّم الوجبات، ويبتسم لنفسه كثيرًا ولا يقول شيئًا يُذكر. واستمرت يزابل بالبقاء في غرفتها أغلب الوقت، أو تركب حصانها الصغير في الأراضي السوداء فوق الكوخ. كانت رؤيتها بشعرها المتطاير في الرياح ستصبح أكثر تأثيرًا لو كانت أفضل في ركوب الخيل، أو لو كان الحصان أكبر حجمًا، أو لو كان شعرها من النوع الذي يتطاير بشكل طبيعي. تمتلك بعض أنواع الشعر هذه الخاصية وبعضها لا يملكها. وشعرها لم يملكها.

في أوقات عدم خروجه في ما أسماه الموت بـ«الواجب»، انهمك مورت في مساعدة ألبرت، أو في أداء أعمالٍ في الحديقة أو الإصطبل، أو تصفُّح مكتبة الموت الشاملة، فيقرأ بالسرعة والشغف اللذين يتمتع بهما أولئك الذين يكتشفون سحر الكلمة المكتوبة لأول مرة.

ومعظم الكتب في المكتبة هي سير ذاتية، طبعًا.

كانت غير عادية في جانب واحد، إذ كانت تكتب نفسها. الأشخاص الذين ماتوا فعلًا، طبعًا، ملأوا كتبهم من الغلاف إلى الغلاف، وأولئك الذين لم يُولدوا بعد كان عليهم التعامل مع صفحات فارغة. أما الباقون... فلاحظهم مورت بتحديد أماكنهم وعدَّ الأسطر الإضافية، فقدَّر أن بعض الكتب تضيف فقرات بمعدل أربع أو خمس يوميًا، ولم يتعرَّف الخط. وأخيرًا استجمع شجاعته.

قال الموت بدهشة: «ماذا؟». في أثناء جلوسه خلف مكتبه المزخرف، يدور في يديه سكين الورق على شكل منجل.

كرر مورت: «إجازة بعد الظهر». فجأة بدت الغرفة كبيرة بشكل مرهق، وبدأ مورت مكشوفًا جدًا في وسط سجادة بحجم حقل.

قال الموت: «لكن لماذا؟ ليس بسبب حضور جنازة جدتك. كنت سأعرف ذلك».

قال مورت، محاولاً أن يحدّق بتصميم إلى تلك النظرة الزرقاء الثابتة: «أريد فقط، كما تعلم، أن أخرج وألتقي الناس»، فاحتجّ الموت قائلاً: «لكنك تلتقي الناس كل يوم».

قال مورت: «أجل، أعلم ذلك، فقط، حسنًا، ليس لمدة طويلة جدًا. أعني، سيكون من الجميل أن ألتقي شخصًا ستدوم حياته المتوقعة أكثر من بضع دقائق يا سيدي».

نقر الموت بأصابعه المكتب، مُحدثًا صوتًا يشبه إلى حد كبير صوت فأر يرقص على أطراف أصابعه، وحدّق إلى مورت بضع ثوانٍ أخرى. لاحظ أن الفتى يبدو أقل نحافة مما يتذكر، واقفًا بشكل أكثر استقامة، وبصراحة، أمكنه استخدام كلمة مثل «متوقّعة». كل ذلك بسبب تلك المكتبة.

قال بتردد: «حسنًا، لكن يبدو لي أنك تملك كل ما تحتاج إليه هنا. الواجب ليس شاقًا، أليس كذلك؟».

- لا يا سيدي.

- ولديك طعام جيد وسرير دافئ ووسائل ترفيه وأشخاص من عمرك.

قال مورت: «عذرًا، سيدي؟».

قال الموت: «ابنتي. أعتقد أنك قابلتها».

- أوه. أجل يا سيدي.

- لديها شخصية دافئة جدًا عندما تتعرفُها.

- أنا متأكد من ذلك يا سيدي.

قال الموت لافظًا الكلمات بازدياد: «ومع ذلك، ترغب في... إجازة بعد الظهر؟».

- أجل، سيدي. إذا سمحت يا سيدي.

- حسنًا. ليكن ذلك. يمكنك أن تذهب حتى غروب الشمس.

فتح الموت دفتره الكبير، والتقط قلمًا، وبدأ في الكتابة. وبين الحين والآخر يمدُّ يده ويُقلِّب خرزات العداد. وبعد دقيقة نظر من وراء الدفتر وقال بمرارة: «لا تزال هنا، وفي وقتك الخاص أيضًا».

قال مورت: «اممم.. هل سيتمكن الناس من رؤيتي يا سيدي؟».

قال الموت: «أعتقد ذلك، بالتأكيد. هناك أي شيء آخر يمكنني مساعدتك به قبل أن تغادر لهذه المغامرة؟».

قال مورت بئأس: «حسنًا يا سيدي، هناك شيء واحد، سيدي، لا أعرف كيف أصل إلى عالم البشر يا سيدي».

تنهَّد الموت بصوت عالٍ، وسحب درج المكتب، وقال: «امشِ هناك فحسب».

أوماً مورت بحزن، وسار على الممشى الطويل نحو باب غرفة المكتب. وعندما سحبه، سعل الموت وناداه: «يا فتى!». ثم قذف شيئًا خلال الغرفة نحو مورت.

أمسكه مورت تلقائيًا وانفتح الباب بصرير.

اختفى المدخل. أصبحت السجادة العميقة تحت قدميه حصى مُوجلاً، وغمره ضوء النهار الساطع كأنه زئبق.

قال مورت، للكون عامة: «اسمي مورت».

قال بائع في الجوار: «ماذا؟»، فنظر مورت حوله، ليجد نفسه في سوق مزدحم، مملوء بالناس والحيوانات. هناك يُباع كل شيء من الإبر إلى رؤى الخلاص (خلال بعض الدعاة الجوالين). كان من المستحيل إجراء أي محادثة بصوت أقل من الصراخ.

رَبَّتْ مورت ظهر البائع وسأله: «أيمكنك رؤيتي؟».

فحدق البائع إليه بنظرة ناقدة، وقال: «أعتقد ذلك، أو شخص يشبهك كثيرًا».

قال مورت بارتياح عارم: «شكرًا لك».

- لا داعي إلى الشكر. أرى الكثير من الناس كل يوم بلا مشكلة. أتريد شراء أي أربطة أحذية؟

- لا أعتقد ذلك. ما هذا المكان؟

- ألا تعرف؟

وقف اثنان من الناس عند الكشك المجاور ينظران إلى مورت بتفكير، فبدأ عقله يعمل بسرعة فائقة، وقال بصدق: «يسافر سيدي كثيرًا. وصلنا الليلة الماضية، وكنتُ نائمًا في العربة. الآن لديَّ إجازة لوقت ما بعد الظهر».

قال البائع: «آه»، ثم مال إلى الأمام بسرية قائلاً: «تبحث عن وقت ممتع، أليس كذلك؟ يمكنني أن أرتب لك شيئًا».

اعترف مورت: «سأكون سعيدًا بمعرفة أين أنا».

تفاجأ الرجل، وقال: «هذه هي عنخ-موربورك. يجب أن يتمكن أي شخص من رؤية ذلك، وأن يشمّه أيضًا».

استنشق مورت الهواء، شعر بوجود شيء معين في هواء المدينة، كأنه هواء قد واجه صِعب الحياة. لا يمكنك منع نفسك من أن تلاحظ مع كل نفس، أن الآلاف من الأشخاص الآخرين قريبون جدًا منك ومعظمهم لديهم إبطان بروائح نفاذة.

نظر البائع إلى مورت بنظرة ناقدة، مُلاحظًا الوجه الشاحب، الملابس المصممة جيدًا، والحضور الغريب، انطباع بسوء الفهم نوعًا ما. قال البائع: «انظر، سأكون صريحًا. يمكنني أن أوجّهك إلى ماخور رائع».

قال مورت بغموض: «لقد تناولتُ الغداء فعلًا. لكن يمكنك أن تخبرني إذا كنّا في مكان قريب من... أعتقد أنه يُدعى ستولات؟».

قال البائع بسرعة: «نحو عشرين ميلًا تجاه المركز، لكن لا يوجد هناك شيء لشاب مثلك. أعرف، أنت بالخارج وحدك، تريد تجارب جديدة، تريد الإثارة، الرومانسية...».

وفي هذه الأثناء، فتح مورت الحقيبة التي أعطاها إياه الموت. فوجدها ملأى بالعملات الذهبية الصغيرة بحجم حبات الترتر.

تشكّلت صورة مرة أخرى في ذهنه، لوجه شاحب تحت رأس من الشعر الأحمر الذي عرف بطريقة ما أنه كان هناك. الأحاسيس غير الواضحة التي سيطرت على عقله في الأيام القليلة الماضية تبلورت فجأة إلى نقطة واضحة، فقال بحزم: «أريد حصانًا سريعًا جدًا».

بعد خمس دقائق، تاه مورت.

هذه المنطقة من عنخ-موربورك عُرفت باسم «الظلال»، وهي منطقة داخل المدينة تحتاج بشدة إما إلى معونة من الحكومة وإما، الأفضل، إلى قاذف لهب. لا يمكن وصفها بالبائسة لأن ذلك سيُعتبر تضخيماً عظيماً للكلمة. لقد تجاوزت البؤس ووصلت إلى الجانب الآخر، حيث حققت رعباً مهيباً افتخرت به مثل جائزة معمارية. كانت صاخبةً وجوُّها قائظاً، ورائحتها كأرضية حظيرة البقر.

لم يكن لديها حيٌّ سكني بقدر ما كانت لديها بيئة عامة، مثل شعاب مرجانية ضخمة على الأرض. وسكن فيها البشر، النظائر البشرية للكركد والحبار والروبين وما إلى ذلك. وأسمك القرش.

تجوّل مورت بلا أمل في الشوارع المتعرجة. أي شخص يحوم على ارتفاع أسطح المنازل سيلاحظ نمطاً معيناً في الحشود خلفه، وهذا ما يشير إلى عدد من الرجال يتجمعون بلا مبالاة حول هدف، وسيستنتج بحق أن مورت وذهبه لديهما العمر نفسه المتوقع لقنفذ ثلاثي الأرجل على طريق سريع ذي ست حارات.

من المحتمل أنه صار واضحاً فعلاً أن «الظلال» لم تكن المكان الملائم لأن يسكنه الناس. ومع ذلك بها سُكَّان. حاول مورت بين الحين والآخر أن يتحدث مع أحدهم، لمعرفة الطريق إلى تاجر خيول جيد. كان السكان عادة يتمتمون بشيء ما ويسارعون بالابتعاد، لأن أي شخص يرغب في العيش في «الظلال» لأكثر من ثلاث ساعات تقريباً، طوّر حواس متخصصة جداً ولم يكن ليقف بالقرب من مورت أكثر مما يقف فلاح بجانب شجرة طويلة في جو عاصف.

وهكذا وصل مورت أخيراً إلى نهر عنخ، أعظم الأنهار. ومن قبل دخول النهر إلى المدينة، كان بطيئاً ومُحمّلاً بطمي السهول، وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى «الظلال»، كان يُمكن حتى للملحد أن يمشي

على سطحه. كان من الصعب الغرق في نهر عنخ، لكن من السهل الاختناق فيه.

نظر مورت إلى السطح بشكٍّ. بدا كأنه يتحرك. رأى فقاعات فيه، لا بُدَّ وأنها مياه. فتنهَّد واستدار مُبتعدًا.

ظهر ثلاثة رجال خلفه، كأنهم خرجوا من الحجارة. اتَّسموا بالمظهر الثقيل الجاد كأولئك البلطجية الذين يعني ظهورهم في أي رواية أنه حان وقت تهديد البطل قليلاً، لكن ليس كثيرًا، لأنه من الواضح أيضًا أنهم سيتفاجأون بشكل مروع.

ابتسموا ابتسامة خبيثة. كانوا جيدين في ذلك.

سحب أحدهم سكينًا، وأخذ يلوح بها في دوائر صغيرة في الهواء. تقدَّم ببطء نحو مورت، فيما بقي الاثنان الآخران في الخلف لتقديم الدعم غير الأخلاقي.

قال الرجل بصوت خشن: «أعطنا المال».

فامتدَّت يد مورت إلى الحقيبة المُعلَّقة بحزامه، وقال: «انتظر لحظة، ماذا سيحدث بعدها؟».

- ماذا؟

قال مورت: «أعني، هل هو مالي أو حياتي؟ هذا هو نوع الأشياء التي من المفترض أن يطلبها اللصوص. مالك أو حياتك. قرأتُ ذلك في كتاب ذات مرة».

أجابه اللص: «ربما، ربما»، وشعر بأنه يفقد زمام المبادرة، لكنه استجمع قواه بشكل رائع وقال: «من ناحية أخرى، يمكن أن يكون مالك وحياتك. أو كما قد تقول، تنفيذ مزدوج». ثم نظر الرجل إلى زميله اللذين ضحكا في الوقت المناسب.

قال مورت: «في هذه الحالة...»، ورفع الحقيبة بيده استعدادًا لرميها بأقصى ما يستطيع في نهر عنخ، حتى إن كان هناك احتمال معقول أن تتقاذف على سطح الماء.

قال اللص: «مهلاً، ماذا تفعل؟»، وبدأ يركض إلى الأمام، لكنه توقّف عندما لوّح مورت بالحقيبة في تهديد.

قال مورت: «حسنًا، الأمر بالنسبة إليّ هكذا. ما دمتم ستقتلونني على أي حال، فقد أتخلص أيضًا من المال. الأمر متروك لكم تمامًا»، ولتوضيح وجهة نظره، أخرج عملة واحدة من الحقيبة ورمّاها خلال الماء الذي استقبلها بصوت امتصاص غريب، فارتجف اللصوص.

نظر كبير اللصوص إلى الحقيبة، ثم إلى سكينه، ثم إلى وجه مورت، ثم إلى زميليه، ليقول بعدها: «عُذْرًا»، وانتظم اللصوص في نقاش صغير. قاس مورت المسافة إلى نهاية الزقاق. لم يكن سيصل. على أي حال، هؤلاء الثلاثة بدؤوا كأنّ مطاردة الناس شيء آخر يجيدونه. وحده المنطق فقط هو ما جعلهم يشعرون بالارتباك قليلًا.

عاد كبيرهم إلى مورت، وألقى نظرة أخيرة على الآخرين، فأومأ كلاهما بحزم، فقال: «أعتقد أننا سنقتلك ونخاطر بحظنا مع المال. لا نريد أن ينتشر هذا النوع من الأشياء».

أخرج الآخران سكاكينهما، فابتلع مورت ريقه وقال: «قد يكون هذا قرارًا غير حكيم».

- لماذا؟

- حسنًا، لن يعجبني، على الأقل.

قال اللص متقدمًا نحو مورت: «من المفترض ألاّ يعجبك، من المفترض أن تموت».

قال مورت متراجعًا: «لا أعتقد أنني أستحق الموت، أنا متأكد أنني كنت سأعلم ذلك الخبر».

قال اللص وقد بدأ يشعر بالملل: «نعم، نعم، حسنًا، لقد أتاكَ الخبر، أليس كذلك؟ يا لروث الفيل الساخن!».

تراجع مورت خطوة أخرى، فعَبَرَ جدارًا. حدَّق كبير اللصوص إلى الحجر الصلب الذي ابتلع مورت، ثم ألقى بسكينه.

قال: «حسنًا، اللعنة عليَّ. إنه ساحر ملعون. أكره السحرة الملعونين!».
تمتم أحد رجاله ناطقًا بصعوبة: «لا ينبغي أن تلعنهم إذن».
قال اللص الثالث الذي كان بطيء التفكير قليلًا: «هنا، لقد مشى خلال الجدار!».

تمتم الثاني: «ونحن نتبعه منذ زمن، أيضًا. أحسنت يا بيلجارليك. قلت إنني ظننته ساحرًا، فالسحرة فقط هم من يمشون هنا بمفردهم. ألم أقل إنه يبدو كساحر؟ قلت...».

قال القائد متذمرًا: «أنت تقول أمورًا كثيرة».

- لقد رأيته، مشى مباشرة خلال الجدار هناك...

- أوه، حقًا؟

- أجل!

- مباشرة من خلاله، ألم تر ذلك؟

- تظنُّ أنك حاد الذكاء، أليس كذلك؟

- ذكي بما يكفي!



telegram @
yasmeenbook

استلَّ كبير اللصوص سكينه من التراب بحركة سلسلة، وقال: «حاد مثل هذا؟».

ترنَّح اللص الثالث نحو الجدار وركله بقوة عدة مرات، فيما أتت من خلفه أصوات شجار وبعض أصوات الفقاقيع الرطبة.

قال: «نعم، إنه جدار بلا شك. هذا جدار إن كنتَ قد رأيتَ واحدًا من قبل. كيف تعتقدون أنهم يفعلون ذلك يا شباب؟».

- يا شباب؟

ثم تعثر فوق الأجساد المستلقية، فقال: «أوه»، ورغم بطء تفكيره، كان سريعًا بما يكفي ليدرك شيئًا مهمًّا جدًّا، أدرك أنه بمفرده في زقاق خلفي في منطقة الظلال. فركض، وقطع مسافة طويلة.

سار الموت ببطء على بلاط غرفة مؤقتات الحياة، فاحصًا صفوف الساعات الرملية المشغولة. تبعه ألبرت أداءً لواجبه حاملاً دفتر الحسابات العظيم مفتوحًا بين ذراعيه.

زأر صوت من حولهما، كشلال رماديٍّ هائل من الضوضاء. أتى الصوت من الرفوف حيث يمتدُّ صفٌّ بعد صفٍّ من الساعات الرملية إلى مسافة لا نهائية، تصبُّ رمال الزمن الفاني. كان صوتًا ثقیلاً، باهتًا، مثل صبِّ الكاسترد المتجهَّم على كعكة البودينج. قال الموت أخيرًا: «حسنًا. احسبها ثلاثة. ليلة هادئة».

قال ألبرت: «الثلاثة هم جودي هامسترينج، ورئيس الرهبان لوبسانج مرة أخرى، والأميرة كيلبي هذه».

نظر الموت إلى الساعات الرملية الثلاث في يده، وقال: «كنت أفكر في إرسال الفتى إلى الخارج».

تفحص ألبرت دفتر الحسابات، ثم قال: «حسنًا، جودي لن تكون مشكلة ورئيس الرهبان اعتبره خبيرًا في ذلك، لكن يا للأسف بشأن الأميرة. عمرها خمسة عشر عامًا فقط. قد يكون الأمر صعبًا».

- أجل. يا لها من خسارة.

- سيدي؟

وقف الموت مُمسِكًا بالساعة الرملية الثالثة، ينظر بتفكير إلى تلاعب الضوء بسطحها، ثم تنهد قائلاً:

«فتاة صغيرة جدًّا...».

قال ألبرت بصوت مملوء بالقلق: «أتشعر أنك بخير يا سيدي؟».

- الزمن مثل جدول متدفق باستمرار يحمل كل...

- سيدي!

قال الموت، مستيقظًا من شروده: «ماذا؟».

- لقد بذلت مجهودًا كبيرًا يا سيدي، هذا هو السبب...

- ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه يا رجل؟

- لقد مررت بلحظة غريبة هناك يا سيدي.

- هراء. لم أشعر أنني أفضل من ذلك قط. الآن، عمّ كنا نتحدث؟

هزّ ألبرت كتفيه، ونظر إلى الأسماء في الكتاب، وقال: «جودي ساحرة. قد تشعر ببعض الغضب إذا أرسلت مورت إليها».

اكتسب كل ممارسي السحر الحق في أن يقبض الموت نفسه أرواحهم بدلاً من موظفيه الصغار، حال نفاد رمالهم الشخصية.

لم يبدو أن الموت يسمع ألبرت. كان ينظر مرةً أخرى إلى الساعة الرملية للأميرة كيلي.

- ما اسم الشعور الداخلي الناتج عن الأسف الشديد لأن الأمور تبدو كما هي؟

- أعتقد أنه الحزن يا سيدي. الآن...

- أنا الحزن.

وقف ألبرت وفمه مفتوح. ثم تمكن من السيطرة على نفسه أخيرًا، ليتفوه قائلاً: «سيدي، كنا نتحدث عن مورت!».

- مورت من؟

قال ألبرت بصبر: «تلميذك يا سيدي. الشاب الطويل».

- طبعًا. حسنًا، سنرسله.

قال ألبرت متشككًا: «أهو جاهز للذهاب بمفرده يا سيدي؟».

فكر الموت في الأمر، ثم قال أخيرًا: «يستطيع فعل ذلك. إنه متحمس، ويتعلم بسرعة، وبصراحة، لا يُمكن للناس أن يتوقعوا مني أن أركض خلفهم طوال الوقت».

حدّق مورت بتبلد إلى الستائر المخملية التي تبعد سنتيمترات قليلة عن عينيه، وفكر في عقله:

«لقد مشيتُ خلال جدار. وهذا مستحيل».

أزاح الستائر بحذر ليرى أكان هناك باب يختبئ في مكان ما، لكن لم يجد سوى جص متآكل في بعض الأماكن ليكشف عن بعض الطوب الرطب الصلب.

لمسه بفضول. كان واضحًا تمامًا أنه لن يعود خلال هذا الطريق، فقال للجدار: «حسنًا، ماذا الآن؟».

قال صوت خلفه: «عذراً، من فضلك؟».

فاستدار ببطء، ورأى أمامه أسرةً كلاتشيّةً مجتمعةً حول منضدة في منتصف الغرفة. تكوّنت الأسرة من الأب، والأم، ونصف دزينة من الأطفال متناقصي الحجم. تركّزت ثمانية أزواج من الأعين المستديرة على مورت. فيما ظهر زوج تاسع من الأعين التي تنتمي إلى جد أو جدة عجوز، لأن صاحبها استغلَّ ظهورَ مورت للحصول على مساحة كوع في وعاء الأرز الجماعي، إذ اعتبر أن سمكة مسلوقة في اليد أفضل من أي كمية من الظهور غير المسوغ، ليتخلل الصمت صوت المضغ المستمر. وفي إحدى زوايا الغرفة المزدحمة، كان هناك ضريح صغير لأوفلر، إله مدينة كلاتش، الإله التمساح ذو الأذرع الست. كان يبتسم تمامًا مثل الموت، باستثناء أن الموت لم يمتلك قطيعًا من الطيور المقدسة التي تجلب له أخبارَ عبيده، وتحافظ أيضًا على نظافة أسنانه.

يقدر الكلاتشيون الضيافة فوق كل الفضائل الأخرى. فيما حدّق مورت إليهم، أخذت المرأة طبقًا آخر من الرف خلفها وبدأت بملئه بصمت من الوعاء الكبير، لتنتزع قطعة مختارةً من سمك السلور من يد المسن بعد صراع قصير. ومع ذلك، ظلّت عيناها المكحلتان ثابتتين على مورت.

بدأ الأب بالتحدث، فانحنى مورت بعصبية وقال: «آسف. اممم، يبدو أنني مشيتُ خلال هذا الجدار». وجب عليه أن يعترف أن ذلك لم يكن مُقنعًا إلى حد ما.

قال الرجل: «من فضلك؟». فيما رتّبت المرأة بعناية، وأساورها تُصدر صوتًا، بضع شرائح من الفلفل على الطبق ورشتها بصلصة خضراء داكنة خاف مورت أنه يعرفها. لقد جرّبها قبل بضعة أسابيع، ورغم أنها كانت وصفة معقدة فإن تذوقها مرةً واحدةً كان كافيًا ليعلم أنها

مصنوعة من أحشاء السمك المنقوعة عدة سنوات في برميل من العصارة الصفراء لسمك القرش. قال الموت إنها ذوق مُكتسَب. قرَّر مورت عدم بذل أي جهد لاكتسابه.

حاول مورت أن يتسلل حول حافة الغرفة نحو المدخل المعلق بالخرز، لكن دارت كل الرؤوس لمتابعته، فحاول أن يبتسم.

قالت المرأة: «لماذا يظهر الشيطان أسنانه، يا شريك حياتي؟».

قال الرجل: «ربما كان جائعًا، يا قمر رغبتني. أضيفي المزيد من السمك!». .

وتذمَّر الشيخ قائلاً: «كنتُ أكل ذلك أيها الطفل البائس. ويل للعالم عندما ينعدم احترام العُمر!». .

والحقيقة هي أنه بينما دخلتِ الكلمات إلى أذن مورت باللغة الكلاتشية، بكل زخمها وانحناءاتها الدقيقة كلغة قديمة ومعقدة لدرجة أنها امتلكت خمس عشرة كلمة تعني «اغتيال»، قبل أن يدرك بقية العالم فكرة ضرب بعضهم بالحجارة، فإنها وصلت إلى دماغه بوضوح وفهم كما لو كانت لغته الأم.

قال: «أنا لستُ شيطانًا! أنا إنسان!»، وسكتَ مصدومًا عندما خرجتُ كلماته بلهجة كلاتشية رائعة.

قال الأب: «هل أنت لص؟ قاتل؟ لماذا تزحف هكذا، هل أنت جامع ضرائب؟»، وانزلتُ يده تحت المنضدة لتعود حاملةً ساطورَ لحم حادًا كحافة الورقة. صرختُ زوجته وأسقطتِ الطبق واحتضنتِ الأطفال الأصغر إليها.

شاهد مورت نصل الساطور يتمايل في الهواء، فاستسلم وقال بتردد: «أحمل لكم تحيات من أعمق طبقات الجحيم».

تبدلت الأحوال بشكل مذهل. ابتسمت الأسرة ابتساماتٍ عريضة، وخفض الأب الساطور قائلاً بابتسامة: «يا لحظنا السعيد إذا زارنا شيطان، ما أمنيته، يا نسل أوفلر القدر؟».

قال مورت: «عذراً؟».

قال الرجل: «الشيطان يجلب البركة والحظ السعيد لمن يساعده. كيف يمكننا مساعدتك، أيها النفس الشرير القادم من الجحيم؟».

أجابه مورت: «حسنًا، لستُ جائعًا جدًّا. لكنُ أتعرفُ مكانًا يمكنني الحصول فيه على حصان سريع، لأصل إلى ستولات قبل غروب الشمس». ابتسم الرجل وانحنى قائلاً: «أعرف المكان المناسب تمامًا، أيها الإفراز السام من الأحشاء، إذا تكرَّمت باتباعي».

أسرع مورت بالخروج خلفه، فيما تابع الشيخ رحيلهما بنظرة ناقدة، وخذاه ي مضغان الطعام بإيقاعية، ثم قال: «هل كان هنا ما يسمونه شيطانًا؟ عسى أن يفني أوفلر هذا البلد الرطب، حتى شياطينهم من الدرجة الثالثة، لا تصل إلى مستوى الشياطين التي كانت لدينا في البلدة القديمة».

وضعت الزوجة وعاءً صغيرًا من الأرز في الأيدي الوسطى المجموعة لتمثال أوفلر (سيختفي الطعام في الصباح) وتراجعت خطوة، وقالت: «قال الزوج الشهر الماضي في حقائق الكاري إنه حَدَمَ مخلوقًا لم يكن هناك. لقد أثار إعجابه».

بعد عشر دقائق عاد الرجل، وفي صمت رسمي، وضع كومة صغيرة من العملات الذهبية على المنضدة. كومة تمثل ثروة كافية لشراء جزء كبير من المدينة، وقال: «كان لديه كيس منها».

حدَّقَتِ الأسرة إلى المال بعض الوقت، ثم تنهدتِ الزوجة وقالت: «الثروات تجلب العديد من المشكلات. ماذا سنفعل؟».

قال الزوج بحزم: «نعود إلى كلاتش، حيث يمكن لأطفالنا أن يكبروا في بلد مناسب، متمسكين بالتقاليد المجيدة لعرقنا القديم، ولن يحتاج الرجال إلى العمل نادلين لسادة أشرار، بل يمكنهم الوقوف بفخر وكرامة. ويجب أن نغادر الآن، يا زهرة النخيل العطرة».

- لماذا بهذه السرعة، يا بن الصحراء المجتهد في عمله؟

قال الرجل: «لأنني بعْتُ للتو حصانَ السباق الرابع الخاص بالحاكم».

لم يكن الحصان رشيقاً أو سريعاً مثل بينكي، لكنه قطع الأميال بسهولة تحت حوافره وتجاوز بسرعة مجموعة من الحراس الذين بدؤوا قلقين بشكل غير مفهوم للحديث مع مورت. سرعان ما ترك الضواحي البائسة لموربورك خلفه وانطلق نحو الطريق إلى الأراضي السوداء الغنية لسهل ستو، التي تكوَّنت خلال العصور بفعل فيضانات نهر عنخ العظيم البطيء الذي جلب للمنطقة الرخاء والأمان والتهاب المفاصل المزمن.

كما كانت تلك الأراضي مُملّة للغاية. بينما تدرّج الضوء من فضة الليل إلى ذهب النهار، اندفع مورت خلال أرض مسطحة باردة، ملأى بحقول الكرنب بالكامل. هناك العديد من الأشياء التي يمكن قولها عن الكرنب. يمكن التحدث طويلاً عن محتواه العالي من الفيتامينات، وإسهاماته الحيوية من الحديد، والألياف ذات القيمة وقيمته الغذائية الجديرة بالثناء. لكن في الكميات الكبيرة، يفتقر إلى شيء معين رغم الادعاءات الخاصة بالتفوق الغذائي والأخلاقي الهائل على، لنقل، النرجس البري،

فلم يكن يوماً منظرهم يلهم الشعراء. إلا إذا كانوا جوعى طبعاً. بلغت المسافة إلى ستو لات عشرين ميلاً فقط، لكن بالنسبة إلى التجربة الإنسانية معدومة المعنى، بدت كأنها ألفاً ميل.

وقف الحراس عند بوابات ستو لات، رغم أنه بالمقارنة مع الحراس الذين يحرسون عنخ، بدأوا مرتبكين وغير محترفين. فتقدّم مورت بحصانه، وسأله أحد الحراس عن هويّته، وهو يشعر بشيء من الحرج. قال مورت: «أخشى أنني لا أستطيع التوقف».

كان الحارس جديداً في وظيفته، ومتحمساً إلى حد ما. لم تكن مهنة الحراسة كما توقعها. فالوقوف طوال اليوم في درع من السلاسل الحديدية حاملاً فأساً على عصا طويلة لم يكن ما تطوع من أجله، بل توقّع الإثارة والتحدي وقاذفة أسهم وزياً رسمياً لا يصدأ تحت المطر.

تقدّم الحارس إلى الأمام، مُستعداً للدفاع عن المدينة ضد الأشخاص الذين لا يحترمون الأوامر الصادرة عن الموظفين المدنيين المفوضين. نظر مورت إلى رأس الحربة المعلقة على بعد بضع بوصات من وجهه. فبدأ يشعر أن هذا قد تجاوز الحد.

قال مورت بهدوء: «من ناحية أخرى، ما رأيك إذا قدمت لك هذا الحصان الرائع كهدية؟».

لم يكن من الصعب العثور على مدخل القلعة. فهناك حراس أمامه أيضاً، يحملون قاذفات أسهم ولديهم نظرة غير متعاطفة إلى الحياة، وعلى أي حال، فقد مورت حصانه. تجوّل قليلاً إلى أن بدأوا يُولونه اهتماماً سخياً، ثم تراجع بائساً إلى شوارع المدينة الصغيرة، شاعراً بالغباء.

بعد كل هذا، بعد أميال من حقول الكرنب ومؤخرته التي شعر أنها كقطعة من الخشب، لم يعرف حتى سبب وجوده هناك. هل لأنها رآته

حتى عندما كان خفيًّا؟ هل يعني ذلك شيئًا؟ طبعًا لا. لكنه ظلَّ يرى وجهها، ولمحة الأمل في عينيها. أراد أن يخبرها أن كل شيء سيصبح على ما يرام. أراد أن يخبرها بنفسه وبكل ما يطمح أن يكونه. أراد أن يعرف موقع غرفتها في القلعة، وأن يراقبها طوال الليل إلى أن تُطفأ الأنوار. وهكذا.

في وقت لاحق، وقف حداد يعمل في أحد الشوارع الضيقة المُطَلَّة على جدران القلعة، وجال بنظره بعيدًا عن عمله نحو شاب طويل نحيل، ذي وجه محمر، حاول باستمرار أن يمرَّ خلال الجدران.

وفي وقت لاحق، توجه شاب مصاب ببعض الكدمات السطحية على رأسه إلى إحدى حانات المدينة، وسأل عن اتجاهات الطريق إلى أقرب ساحر.

وفي وقت لاحق أيضًا، وصل مورت إلى منزل ذي واجهة من الجبس المُقَشَّر، تحمل لوحة نحاسية سوداء تعلن أنه مسكن إيجنوس كاتويل، دكتورة في السحر (من الجامعة الخفية)، سيد اللانهائية، المضيء، ساحر الأمراء، حارس البوابات المقدسة، إذا كنت بالخارج، فاترك البريد مع السيدة نوجنت بالمبنى المجاور.

رغم دقات قلبه المتسارعة، أثارت تلك اللوحة إعجاب مورت، فرفع مطرقة الباب الثقيلة التي كانت على شكل كائن كرغل مقزز يحمل حلقة حديدية ثقيلة في فمه، وطرق الباب مرتين.

صدر من الداخل ضجيج وجيز، مجموعة من الأصوات المنزلية العاجلة التي قد تصدر في منزل أقل رُقِيًّا، ناتجة عن شخص يلقي بأطباق الغداء إلى الحوض ويخبئ الغسيل بعيدًا عن الأنظار.

وأخيرًا، فُتِحَ الباب ببطء وبطريقة غامضة.

قالت مطرقة الباب رغم حلقتها التي عاقتها قليلا: «من الأفضل أن تتظاهر بالإعجاب. إنه يفعل ذلك بالبكرات وبعض الحبال، لأنه ليس جيدا في تعاويذ الفتحة».

نظر مورت إلى الوجه المعدني المبتسم، فقال لنفسه: «أنا أعمل لمصلحة هيكل عظمي يمكنه المرور خلال الجدران. من أنا ليفاجئني أي شيء؟»، ثم قال لمطرقة الباب: «شكرا لك».

فأجابته: «على الرحب والسعة. امسح قدميك على ممسحة الباب، فالיום عطلة كاشط الأحذية».

رأى بالداخل غرفة كبيرة ذات سقف منخفض، يسودها الظلام والظلال وتفوح برائحة البخور في المقام الأول، لكن مع قليل من رائحة الكرب المسلوقة والغسيل القديم، ونوع الشخص الذي يرمي كل جواربه على الحائط ويرتدي تلك التي لا تلتصق به. وجد كرة كريستالية كبيرة بها شق، وأسطرلابا فلكيا ينقصه بعض أجزائه، وشكلا ثمانيا الأضلاع مرسوم على الأرض دون ترتيب، وتمساحا مُحْنَطًا مُعْلَقًا من السقف. يعتبر التمساح المحنط جزءا أساسيا من أي مؤسسة سحرية تعمل بشكل صحيح. لكن هذا التمساح بدا كأنه لم يستمتع بذلك كثيرا. أزيحت ستارة خرزية على الحائط البعيد بحركة درامية لتكشف عن شخص يرتدي قلنسوة هتف فجأة:

«فلتألق أبراج النجوم المباركة في ساعة لقائنا!».

قال مورت: «أي أبراج؟».

فساد صمت قلق مفاجئ، أعقبه تساؤل الشخص: «عذرا؟».

كرّر مورت: «ما الأبراج التي تتحدث عنها؟».

قال الرجل بتردد: «الأبراج المباركة»، ثم استجمع قوّته وقال: «لماذا تزعج إيجنوس كاتويل، حامل المفاتيح الثمانية، المسافر في أبعاد الزنازين، الساحر الأعظم لـ...».

قال مورت: «عذرًا، هل أنت حقًا كذلك؟».

- حقًا ماذا؟

- سيد الشيء، سيد عالي المقام في الزنازين المقدسة؟

دفع كاتويل غطاء رأسه إلى الخلف بانزعاج. وبدلاً من الشيخ ذي اللحية الرمادية الذي توقعه مورت، رأى أمامه وجهًا مستديرًا، ممتلئًا بعض الشيء، ببشرة وردية بيضاء مثل فطيرة اللحم التي تشبهه في جوانب أخرى. فعلى سبيل المثال، مثل معظم فطائر اللحم، لم تكن له لحية، ومثل معظم فطائر اللحم، بدا شخصًا مرحًا بشكل واضح.

قال كاتويل: «بمعنى مجازي».

- ماذا يعني ذلك؟

- حسنًا، يعني لا.

- لكنك قلت...

أجابه الساحر: «إنها رعاية. نوع من السحر أعمل عليه. ماذا تريد على أي حال؟»، ثم ابتسم بتهكم وقال: «أتريد وصفة حب، أليس كذلك؟ شيء يشجع الشابات؟».

قال مورت بياس: «هل من الممكن المشي خلال الجدران؟»، فتوقف كاتويل ويده فعلاً في منتصف الطريق نحو زجاجة كبيرة ملأى بسائل لزج.

- باستخدام السحر؟

قال مورت: «اممم، لا أعتقد ذلك».

قال كاتويل: «إذن اخترَ جدرانًا رقيقةً جدًّا، أو الأفضل من ذلك، استخدمِ الباب. ذلك الباب هناك سيكون المفضل بالنسبة إليّ، إذا أتيتَ هنا فقط لتُضيّع وقتي».

تردّد مورت لحظةً، ثم وضع كيس العملات الذهبية على المنضدة. ألقى الساحر نظرة عليهم، وأصدر صوتًا صغيرًا يشبه الصهيل من حلقه، ومدّ يده ليلتقطها. فسارعت يد مورت لتمسك بمعصمه، وقال ببطاء متعمدًا: «لقد مشيتُ خلال الجدران».

تمتم كاتويل، دون أن يرفع عينيه عن الكيس: «طبعًا فعلتَ، طبعًا فعلتَ»، ثم قذف سداة الزجاجاة ذات السائل الأزرق، وارتشف منها رشفة دون إدراك.

قال مورت: «قبل أن أفعل ذلك لم أكن أعلم أنني أستطيع، وعندما فعلته لم أعلم أنني أفعل، والآن بعدما فعلت ذلك لا أستطيع تذكر كيف فعلته. وأريد أن أفعل ذلك مرة أخرى».

- لماذا؟

قال مورت: «لأن... إذا استطعتُ المشي خلال الجدران، يمكنني فعل أي شيء».

وافقه كاتويل قائلاً: «عميق جدًّا. فلسفيٌّ. وما اسم الشابة على الجانب الآخر من هذا الجدار؟».

ابتلع مورت ريقه، وقال: «إنها... لا أعرف اسمها. حتى لو كانت هناك فتاة»، ثم أضاف بغطرسة: «ولست أقول إن هناك واحدة».

قال كاتويل: «حسنًا»، ثم أخذ رشفة أخرى وارتعش قائلاً: «جيد. كيفية المشي خلال الجدران. سأجري بعض البحوث. قد يكلفني ذلك الأمر كثيرًا».

رفع مورت الكيس بعناية وأخرج عملة ذهبية صغيرة قائلاً: «دفعة أولى»، ثم وضعها على المنضدة.

أخذ كاتويل العملة كأنه يتوقع أن تنفجر أو تتبخر، وفحصها بعناية قائلاً باتهام: «لم أرَ هذا النوع من العملات من قبل. ما هذه الكتابة المتعرجة؟».

قال مورت: «إنه ذهب، أليس كذلك؟ أعني، ليس عليك أن تقبلها...». قال كاتويل بسرعة: «بالتأكيد، بالتأكيد، إنها ذهب. إنها ذهب حقاً. أتساءل فقط من أين أتت، هذا كل شيء».

قال مورت: «لن تصدقني. متى تغرب الشمس هنا؟».

قال كاتويل، وهو لا يزال يحدق إلى العملة ويأخذ رشقات صغيرة من الزجاجاة الزرقاء: «عادة يحدث ذلك بين الليل والنهار. تقريباً الآن».

ألقي مورت نظرةً خارج النافذة، فبدا الشارع بالخارج كأنه في وقت الغسق. اتَّجه مورت نحو الباب وتمتم: «سأعود». سمع الساحر يناديه بشيء ما، لكن ركض مورت بسرعة في الشارع.

بدأ يشعر بالذعر. سينتظره الموت على بُعد أربعين ميلاً. سيحدث شجار رهيب...

- يا فتى.

خرج شخص مألوف من الضوء حول كشك لبيع الثعابين الهلامية، ممسكاً بطبق من المحار.

قال الموت: «الخل لاذع بشكل خاص. تفضّل، لديّ دبوس إضافي». لكن، طبعاً، كونه على بُعد أربعين ميلاً لم يعنِ أنه لم يكن هنا أيضاً... وفي غرفته غير المرتبة، استمرّ كاتويل بتقليب العملة الذهبية بين أصابعه والشرب من الزجاجاة، متمتماً لنفسه: «جدران».

بدا أنه لاحظ ما كان يفعله فقط عندما لم يبقَ شيء للشرب، وفي تلك اللحظة ركَّز عينيه على الزجاجاة، ومن خلال ضباب وردي متصاعد، قرأ المصقّ المكتوبَ عليه: «أعشاب الجدة ويزدرواكس المقوية، ملعقة واحدة فقط قبل النوم وهذا كل شيء».

قال مورت: «بنفسي؟».

أجابه الموت: «بالتأكيد. أثق بك تمام الثقة».

- يا إلهي!

أبعد ذلك الاقتراح كل شيء آخر عن عقل مورت، ودُهِشَ بشدة أنه لم يشعر بالاشمئزاز بشكل خاص. لقد شهد العديد من حالات الموت في الأسبوع الماضي، وزال عنه كل الرعب عندما أدرك أنه سيتحدث مع الضحية بعد ذلك. شعر معظمهم بالارتياح، وبعضهم كان غاضبًا، لكنهم جميعًا شعروا بالسعادة لكلمات قليلة ساعدتهم.

- أأتظن أنك قادر على فعل ذلك؟

- حسنًا، سيدي. نعم. أعتقد ذلك.

- هذا هو المطلوب. لقد تركتُ بينكي عند حوض الماء عند الزاوية. خذه مباشرة إلى المنزل عندما تنتهي.

- هل ستبقى هنا يا سيدي؟

نظر الموت صعودًا ونزولًا في الشارع، وتألقت تجاويف عينيه، ثم قال بغموض: «أعتقد أنني قد أتزده قليلًا. لا أشعر أنني على ما يرام تمامًا. يمكنني الاستفادة من الهواء النقي». ثم بدا كأنه تذكر شيئًا ما، فمدَّ يده داخل عباءته المظلمة الغامضة، وسحب ثلاث ساعات رملية قائلاً: «كل شيء واضح. استمتع».

ثم استدار وسار بعيداً في الشارع مدندناً بكلمات مبهمة.

قال مورت: «اممم. شكرًا»، ثم رفع الساعات الرملية نحو الضوء، ولاحظ واحدةً احتوتُ على حبيبات قليلة أخيرة من الرمل، فصاح: «هل هذا يعني أنني المسؤول؟»، لكنَّ الموت انعطف فعلاً عند الزاوية.

رَحَّبَ به بينكي بصهيل خفيف كإشارة لتعرفه إياه. اعتلى مورت الحصان، وقلبه ينبض بالخوف والمسؤولية. تحركتُ أصابعه بتلقائية، فأخرج المنجل من غمده ليضبط النصل ويحكم غلقه (ومض النصل بلون أزرق فولاذي في الليل، قاطعاً ضوء النجوم كالسجق). اعتلى مورت الحصان بحذر، متألماً من وخز السرج لجلده، لكنَّ جسد بينكي كالوسادة. كفكرة لاحقة، وهو ثمل بالسلطة المفوضة، سحب مورت عباءة الموت من حقيبة السرج وارتابها مثبتاً إياها بدبوسها الفضي.

ألقي نظرة أخرى على الساعة الرملية الأولى، ثم نكز بينكي بركبتيه. استنشق الحصان الهواء البارد، وبدأ في الهرولة.

خرج كاتويل من باب منزله مسرعاً في الشارع المتجمد، وأرديته ترفرف خلفه. والآن انطلق الحصان بسرعة، لتزداد المسافة بين حوافره والأحجار المرصوفة. وبحركة من ذيله، اجتاز أسطح المنازل مرتفعاً نحو السماء الباردة.

تجاهل كاتويل ذلك، فلديه أمور أكثر إلحاحاً على ذهنه. قفز قفزة هائلة وهبط بكامل جسده في المياه المتجمدة بحوض ماء الخيول، مستلقياً بامتنان بين شظايا الجليد العائمة. وبعد مدة، تصاعد البخار من المياه.

ظلَّ مورت منحنياً لشدة تزايد السرعة. ومن تحته، اندفع الريف النائم بلا صوت. تحرَّك بينكي بخطوات سهلة، وانزلقتُ عضلاته العظيمة تحت جلده بسهولة مثل التماسيح على ضفة رملية، وشَعْرُ عُرْفِهِ يجلد

وجهة مورت. تلاشى الليل بعيداً عن حافة المنجل المسرعة، لينقسم إلى نصفين متجعين.

انطلقا تحت ضوء القمر بصمت كظل، لا يراه سوى القطط والأشخاص الذين يتلاعبون بأمور لم يكن من المفترض أن يعرفها البشر. لم يستطع مورت تذكر ذلك لاحقاً، لكنه من المحتمل جداً أنه ضحك. سرعان ما فسحت السهول المجمدة المجال للأراضي غير الممهدة حول الجبال، ثم بدأت صفوف جبال رامتوبس المتسارعة تقترب نحوهم. انخفض رأس بينكي وفتح ساقيه، مستهدفاً ممراً بين جبلين حادين مثل أسنان العفاريت في ضوء القمر الفضي. وسمع مورت عواء ذئب آتٍ من مكان ما.

ألقي مورت نظرةً أخرى على الساعة الرملية. كانت إطاراتها محفورة بأوراق البلوط وجذور المانديك، والرمل بداخلها ذو لونٍ ذهبيٍ شاحبٍ، حتى في ضوء القمر. وبتحريك الزجاجاة يميناً ويساراً، استطاع بصعوبة أن يُميّز اسم «أميلين هامسترينج» محفوراً بأرفع الخطوط سُمكاً.

تباطأ بينكي إلى أن صارت حركته عَدَواً خفيفاً. نظر مورت إلى الأسفل نحو قمم غابة مغطاة بالثلج الذي أتى إما مبكراً وإما متأخراً جداً، وقد يكون أيّاً منهما، لأن جبال رامتوبس تخزن جوّها وتوزّعه دون أي مرجع حقيقي لوقت ذلك في السنة.

انفتحت فجوة تحتها. تباطأ بينكي مرة أخرى، واستدار هابطاً نحو فراغ أبيض تراكت فيه الثلوج. كان الفراغ مساحة دائرية، بها كوخ صغير في المنتصف تماماً. لو لم تكن الأرض مغطاة بالثلج، لاحظ مورت عدم وجود جذوع أشجار مرئية؛ إذ لم تُقطع الأشجار في الدائرة، بل تُبُطَ نموها هناك. أو ربما انتقلت بعيداً.

خرج ضوء الشموع من نافذة في الطابق السفلي، ليصنع بركة برتقالية شاحبة على الثلج.

هبط بينكي بسلاسة وهرول على القشرة المتجمدة دون أن يغرق فيها. وطبعًا لم يترك آثار حوافر.

ترجّل مورت وسار نحو الباب، متممًا لنفسه في أثناء تجرّبة التلويح بالمنجل.

بُنِيَ سقف الكوخ بحواف واسعة، لتتساقط الثلوج عنه ولتغطية كومة الحطب. لم يحلم أي ساكن في جبال الرامتبوس العالية ببدء الشتاء دون وجود كومة حطب على ثلاثة جوانب من المنزل. لكن لم توجد كومة حطب هنا، رغم أن الربيع لا يزال بعيدًا.

لكن كانت هناك حُزْمة من القش في شبكة بالقرب من الباب. وأُرفِقَ بها ملاحظة مكتوبة بأحرف كبيرة مهتزة قليلًا: «للحِصَان».

كان ذلك ليُقلِقَ مورت لو سمح له. هناك شخص يتوقع حضوره. لكنه تعلم في الأيام الأخيرة، أنه بدلًا من الغرق في بحر الشك، من الأفضل له أن يبحر على سطحه مباشرة. على أي حال، لم يشعر بينكي بالقلق من النوازع الأخلاقية، وبدأ بالأكل على الفور.

وقع مورت في مشكلة أكان عليه أن يطرق الباب أم لا. بطريقة ما، لم يبدُ الأمر مناسبًا. فماذا لو لم يجبه أحد، أو أخبره بأن يرحل بعيدًا؟ لذا رفع مورت المزلاج الصغير ودفع الباب، فانفتح بسهولة نحو الداخل، دون أن يصدر صريرًا.

وجد مطبّخًا ذا سقف منخفض، وعوارضه على ارتفاع يخترق الرأس بالنسبة إلى مورت. لمع ضوء شمعة وحيدة على الأواني الخزفية

الموجودة على منضدة طويلة، والحجارة المرصوفة التي تعرضت لغسل وتلميع جعلها لامعة. لم تَضِفْ نيران المدفأة الشبيهة بالكهف الكثير من الضوء، لأنها لم تكن سوى كومة من الرماد الأبيض أسفل بقايا جذع شجرة. عرف مورت، دون أن يخبره أحد، أن هذه كانت قطعة الخشب الأخيرة.

جلستُ عجوز إلى منضدة المطبخ، تكتب بجدية شديدة وأنفها المعقوف على بعد بضع بوصات من الورق. قطعة رمادية ملتفة على المنضدة بجانبها رمشت بعينها بهدوء نحو مورت.

اصطدم المنجل بعارضة، فنظرت السيدة إلى الأعلى وقالت: «قادمة لك بعد دقيقة»، ثم عبست وهي تنظر إلى الورق، وأكملت: «لم أكتب الجزء المتعلق بكوني بصحة وعافية بعد، مجموعة من السخافات على أي حال، لا أحد بصحة وعافية سيصير ميتاً. أترغب في شراب؟».

قال مورت: «عفوًا؟»، ثم تذكر وظيفته الحالية، فكرر بصوت عميق: «عفوًا؟».

- أقصد أنه إذا كنت تشرب. هذا نبذ توت العليق. على المنضدة. يمكنك أن تنهي الزجاجة.

نظر مورت إلى المنضدة بشك. شعر بأنه قد فقد زمام المبادرة. أخرج الساعة الرملية وحقق إليها، ليجد كومة صغيرة من الرمل المتبقي.

قالت الساحرة دون أن ترفع نظرها: «لا تزال هناك بضع دقائق بعد».

- كيف، أعني، كيف تعرفين؟

تجاهلته، وجففت الحبر أمام الشمعة، ثم ختمت الرسالة بقطرة من الشمع ووضعتها تحت الشمعدان. بعد ذلك، التقطت قطتها وقالت لها:

«ستأتي الجدة بيدل على الفور غدا لترتب الأمور وعليك أن تذهبي معها، فهمت؟ وتأكدي أنها ستعطي المغسلة الرخامية الوردية لجامر ناتلي، فقد تطلعت إليها منذ سنوات».

أصدرت القطة صوتاً يدل على إدراكها ما تقول، فقاطعها مورت بعنف: «ليس لدي، أعني، ليس لدي كل الليل، كما تعلمين».

قالت الساحرة: «لديك الليل، لكن أنا لا، ولا داعي إلى الصراخ»، ثم انزلقت عن مقعدها فرأى مورت حينها كيف كانت منحنية مثل القوس. أخذت قبعةً حادةً طويلةً من مسمار على الحائط بصعوبة بعض الشيء، وثبتتها في مكانها على شعرها الأبيض بمجموعة من دبائيس القبعات، وأمسكت بعصيين للمشي.

سارت بصعوبة خلال الغرفة نحو مورت، ونظرت إليه بعينين صغيرتين ومشرقتين مثل التوت الأسود وقالت: «هل سأحتاج إلى شالي؟ هل تعتقد أنني سأحتاج إلى شال؟ لا، لا أعتقد ذلك. أتصور أنني ذاهبة إلى مكان دافئ جداً». ثم نظرت من كئيب إلى مورت، وعبست قائلة: «أنت أصغر بكثير مما تخيلت»، فلم يقل مورت شيئاً. ثم قالت جودي هامسترينج بهدوء: «تعرف، لا أعتقد أنك الشخص الذي كنت أتوقعه».

تنحى مورت بصعوبة، وقال: «من كنت تتوقعين، بالضبط؟».

قالت الساحرة ببساطة: «الموت. إنه جزء من الترتيبات، كما ترى. يتمكن الساحر من معرفة وقت موته مقدماً، ويضمن الحصول على... اهتمام شخصي من الموت».

قال مورت: «أنا هو».

- هو؟

قال مورت: «الاهتمام الشخصي. لقد أرسلني. أعمل لديه. لم يرِدني أحد غيره»، ثم توقف عن الكلام. كل هذا خطأ.

سيرسلونه إلى المنزل مرةً أخرى مذلّولاً. تلك أول مهمة يحمل مسؤوليتها، وقد أفسدها. بإمكانه فعلاً سماع الناس يضحكون منه.

بدأ العويل من أعماق إحراجه ودوّى كصفارة إنذار: «هذه أول وظيفة حقيقية لي وكل شيء انقلب رأساً على عقب!».

سقط المنجل على الأرض بضجة، قاطعاً قطعة من ساق المنضدة وقاسماً حجر الأرضية إلى نصفين. راقبته جودي بعضَ الوقت، ورأسها مائل جانباً، ثم قالت: «فهمتكَ. ما اسمك أيها الشاب؟».

تمتم مورت: «مورت. اختصار لمورتيمر».

- حسناً يا مورت، أتوقع أن لديك ساعة رملية معك.

أوماً مورت بغموض، ثم مدَّ يده إلى حزامه وأخرج الساعة. تفحصتها الساحرة بنظرات ناقدة وقالت:

«لا تزال لدينا دقيقة أو نحو ذلك. ليس لدينا الكثير من الوقت لنضيعه. أعطني فقط لحظةً لأتھياً».

صرخ مورت: «لكنك لا تفهمين! سأفسد كل شيء! لم أفعل هذا من قبل!».

ربّبت يده وقالت: «ولا أنا. يمكننا أن نتعلم معاً. الآن التقطِ المنجل، وحاول أن تتصرف حسب سنك يا فتى».

رغم اعتراضاته، دفعتْ به خارجاً إلى الثلج وتبعته، مُغلقة الباب خلفها وأقفلته بمفتاح حديدي ثقيل علقته على مسمار بجانب الباب.

أحكم الصقيع قبضته على الغابة حتى أصدرت الجذور أنيناً. بدأ القمر بالمغيب، لكن امتلأت السماء بالنجوم البيضاء اللامعة التي جعلت

الشتاء يبدو أكثر برودة. ارتعشتُ جودي هامسترينج وقالت بلُطف: «يوجد جذع قديم هناك. يمكن رؤية منظر جيد خلال الوادي، في فصل الصيف طبعًا. أودُّ أن أجلس». فساعدتها مورت على عبور الثلوج وأزال أكبر قدر ممكن من الثلج عن جذع الشجرة. جلسا معًا والساعة الرملية بينهما. بصرف النظر عما يكونه ذلك المشهد في الصيف، فقد برزت الصخور السوداء الآن أمام سماء تتساقط منها رقائق الثلج الصغيرة.

قال مورت: «لا يمكنني تصديق كل هذا. أعني أنك تبدين كأنك تريدين الموت».

أجابت: «هناك أشياء سأفتقدها. لكن كما تعلم، تزداد الحياة ضعفًا. لا يمكنك الثقة بجسدك بعد الآن، وحين الوقت للمُضي قُدُمًا. أعتقد أنه حان الوقت لتَجَرِّبة شيء آخر. هل أخبرك الموت أن السحرة يمكنهم رؤيته طوال الوقت؟».

قال مورت بشكل غير دقيق: «لا».

تابعت: «حسنًا، يمكننا رؤيته».

تطوَّع مورت قائلًا: «إنه لا يحب السحرة والساحرات كثيرًا».

قالت ببعض الرضا: «لا أحد يحب الشخص الذكي. نحن نُسبِّ له المتاعب. الكهنة لا يفعلون ذلك، لذلك يحب الكهنة».

قال مورت: «لم يقل ذلك قط».

- آه. إنهم يخبرون الناس دائمًا كم ستصبح الأمور أفضل عندما يموتون. نحن نخبرهم أنه من الممكن أن تصبح الأمور جيدة هنا إذا ركَّزوا في ذلك.

تردَّد مورت، إذ أراد أن يقول: «أنتِ مخطئة، إنه ليس كذلك على الإطلاق، إنه لا يهتم أكان الناس جيدين أو سيئين ما داموا دقيقين في

مواعيدهم. ولطفاء مع القلط». لكنه فضّل عدم قول ذلك. خطر بباله أن الناس يحتاجون إلى الإيمان ببعض الأشياء.

عوى الذئب مرة أخرى قريباً، لدرجة أن مورت نظر حوله بقلق. ردّ عليه ذئب آخر خلال الوادي. والتقطتهم مجموعة أخرى في أعماق الغابة. لم يسمع مورت شيئاً حزيناً بهذا القدر من قبل.

نظر جانباً إلى جودي هامسترينج في جلستها الثابتة ثم، بذعر متزايد، إلى الساعة الرملية. هبّ واقفاً وانتزع المنجل، ملوحاً به في حركة مزدوجة. فنهضت الساحرة، تاركةً جسدها خلفها.

قالت: «أحسنّت. ظننتُ لوهلة أنك قد أخطأت في التنفيذ».

استند مورت إلى شجرة، يلهث بشدة، وراقب جودي وهي تمشي حول الجذع لتلقي نظرة على جثتها، ثم قالت بتقييم ناقد: «هممم، سيتحمل الزمن كثير من اللوم»، ثم رفعت يدها وضحكت لرؤية النجوم من خلالها.

ثم تغيرت. رأى مورت هذا يحدث من قبل، عندما تدرك الروح أنها لم تعد مقيدة بالحقل المادي للجسد، لكن لم يحدث ذلك بهذا القدر من التحكم قطُّ. بدأ شعرها يفك نفسه من ربطته الكروية المشدودة، مُغيّراً لونه وطوله. استقامت قامتها، واختفت التجاعيد وتلاشت، فيما تحرك فستانها الصوفي الرمادي مثل سطح البحر وانتهى به الأمر ليُشكّل ملامح مختلفة ومزعجة تماماً.

نظرت إلى الأسفل وضحكت، ثم غيّرت الفستان إلى شيء ضيق أخضر كلون أوراق الشجر.

قالت: «ما رأيك يا مورت؟»، كان صوتها أجشّ مرتعشاً سابقاً، أما الآن فيوحي بالمسك وشراب القيقب وأشياء أخرى جعلت قردة مورت تتفافز ككرة مطاطية على شريط مطاطي.

تمكن من القول بصعوبة: «...»، وقبض على المنجل حتى أصبحت مفاصله بيضاء.

سارت نحوه كثعبان متمايل ينجرف بسيارة مسرعة، وقالت بصوت ناعم: «لم أسمعك».

قال: «ج.. ج.. جميل جدًا»، وأضاف: «أهكذا كنتِ؟».

- هكذا أنا دائمًا.

نظر مورت إلى قدميه وقال: «أوه. من المفترض أن آخذك بعيدًا».

قالت: «أعلم ذلك، لكنني سأبقى».

قال بتلعثم: «لا يمكنكِ فعل ذلك! أعني... كما ترين، إذا بقيت فستتلاشين وتصبحين أقل كثافة، إلى أن...».

قالت بحزم: «سأستمتع بذلك»، ثم مالت نحوه وأعطته قبلة غير محسوسة مثل زفير ذبابة مايو، ثم تلاشت في أثناء التقبيل حتى لم يبق سوى القبلة، تمامًا مثل القط المبتسم في قصة «أليس في بلاد العجائب»، لكن بطريقة أكثر شهوانية.

تردد صوتها في عقله: «كُن حذرًا يا مورت. قد ترغب في الحفاظ على وظيفتك، لكن هل ستمكن من التخلي عنها يومًا ما؟».

وقف مورت بوجه أحمر مُمسكًا بوجنته. ارتجفت الأشجار حول المنطقة الفارغة لحظة، وسمع صوت ضحك خلال النسيم، ثم عاد الصمت البارد مرة أخرى.

ناداه الواجب خلال الضباب الوردي في عقله، فأمسك بالساعة الرملية الثانية وحدق إليها، أوشكت الرمال فيها أن تنتهي.

حمل زجاج الساعة الرملية زخارف ببيلات اللوتس، وعندما نقره مورت بإصبعه أصدر صوت «أوممم».

ركض مورت خلال الثلج المتصدع إلى بينكي وألقى بنفسه على السرج. رفع الحصان رأسه، ووقف على كراعيه، ثم انطلق نحو النجوم.

تدلّت أشرطة ضخمة صامته من اللهب الأزرق والأخضر من سقف العالم. وتراقصت ستائر من توهج الأوكتارين ببطء وروعة فوق القرص فيما حطّت نيران أورورا كوريوليس، التفريغ الهائل للسحر من الحقل الثابت للقرص، لتستقر بجبال الجليد الأخضر في مركز القرص.

كانت القمة المركزية لجبل كوري سيلستي، موطن الآلهة، عمودًا من النار الباردة البراقة بارتفاع عشرة أميال.

لم يرَ هذا المشهد سوى عدد قليل من الناس، ولم يكن مورت واحدًا منهم، لأنه انحنى فوق رقبة بينكي وتشبث به حفاظًا على حياته في أثناء ركضه خلال سماء الليل ليسبق آثارًا بخارية لذيل مذب.

كانت هناك جبال أخرى متجمعة حول جبل كوري. ولكنها بالنسبة إليه، ليست أكثر من تلال صغيرة، مع أنّ كل جبل منها بالواقع هو مجموعة رائعة من الممرات، والحواف، والوجوه، والمنحدرات، والانهيارات الجليدية التي يمكن لأي سلسلة جبلية عادية أن تفخر بها.

بين أعلى هذه الجبال، في نهاية وادٍ على شكل قمع، وُجِدَ المُستمعون. كانوا من أقدم الطوائف الدينية على القرص، مع أنّ حتى الآلهة نفسها انقسمت حول أكان الاستماع ديانة حقيقية، وكل ما منع معبدهم من التدمير ببعض الانهيارات الثلجية الموجهة جيدًا هو حقيقة أن حتى الآلهة كانت فضولية لمعرفة ما الذي قد يسمعه المستمعون. إذا كان هناك شيء يزعج أي إله حقًا، فهو عدم معرفته شيئًا ما.

سيستغرق مورت عدة دقائق للوصول. يمكن ملء الوقت بصف من النقاط، لكنّ سيلاحظ القارئ فعلاً الشكل الغريب للمعبد -فهو مُلتف كقوقعة بيضاء عظيمة في نهاية الوادي- وربما سيريد تفسيراً لذلك.

الحقيقة هي أن المستمعين يحاولون معرفة ما الذي قاله الخالق بالضبط عندما صنع الكون.

النظرية بسيطة للغاية.

من الواضح أنه لا يمكن تدمير أي شيء يصنعه الخالق، وهذا ما يعني أن أصداء تلك الكلمات الأولى ما زالت موجودة في مكان ما، تنعكس وترتد عن كل مواد الكون، لكنها لا تزال مسموعةً لمستمع جيد حقاً.

منذ دهور، وجد المستمعون أن الجليد والصّدفَة قد نُحِتًا هذا الوادي بالذات كنظير صوتي مثالي لوادي الصدى، وبنوا معبدهم متعدد الغرف في المكان الدقيق الذي يشغله الكرسي المريح الوحيد دائماً في منزل شخص شديد الاهتمام بالصوتيات ذات الجودة العالية. التقطت الحواجز المعقّدة موجات الصوت المتدفق خلال الوادي البارد وضخّمته، لتوجهه إلى الداخل نحو الغرفة المركزية حيث يجلس ثلاثة رهبان في أي ساعة من النهار أو الليل.

ليستمعوا.

نتجت مشكلات معينة بسبب أنهم لم يسمعوا فقط الأصداء الرقيقة للكلمات الأولى، بل كل صوت آخر يصدر على القرص. ولكي يتمكنوا من تعرّف صوت الكلمات، كان عليهم أن يتعلموا تعرّف كل الأصوات الأخرى. تطلّب ذلك موهبة معينة، ولا يُقبل المبتدئ للتدريب إلا إذا كان بإمكانه التمييز، بالصوت فقط وعلى مسافة ألف ياردة، أي جانب من العملة سقطت عليه. ولا يُقبل فعلياً في الطائفة إلا بعد أن يتمكن من معرفة لون العملة.

ومع أنَّ المستمعين المقدسين كانوا بعيدين جدًا، فإن العديد من الناس سلكوا الطريق الطويل والخطر إلى معبدهم، وسافروا خلال أراضٍ متجمدة ومأهولة بكائنات الترول، واجتازوا الأنهار الجليدية السريعة، وتسلقوا الجبال الوعرة، عابرين السهول القاسية، من أجل صعود الدرج الضيق المؤدي إلى الوادي المستتر والبحث بقلب مفتوح عن أسرار الوجود.

حينها يصيح بهم الرهبان: «اخفضوا تلك الضوضاء اللعينة!».

جاء بينكي خلال قمم الجبال كطيف أبيض، ليهبط في فراغ ساحة الفناء المغطاة بالثلوج التي أضفت عليها أضواء السماء تأثيرًا شبحيًا. قفز مورت من على ظهر الحصان وركض خلال الأروقة الصامتة إلى الغرفة حيث كان رئيس الرهبان الثامن والثمانين يحتضر، مُحاطًا بأتباعه الخاشعين.

دوّت خطوات مورت مُسرّعًا فوق الأرضية الفسيفسائية المعقدة. فيما ارتدى الرهبان أنفسهم أحذية صوفية.

وصل إلى السرير وانتظر لحظة، متكئًا على المنجل، كي يستعيد أنفاسه.

فتح رئيس الرهبان عينيه، وكان صغيرًا وأصلع تمامًا وله تجاعيد أكثر مما في كيس من البرقوق. ثم قال بصوت هامس: «لقد تأخرت»، ثم مات.

ابتلع مورت ريقه، وكافح لالتقاط أنفاسه، ثم لَوَّح بالمنجل في قوس بطيء. ومع ذلك، كان دقيقًا بما يكفي، إذ نهض رئيس الرهبان تاركًا جثته خلفه، وقال بصوت لم يسمعه سوى مورت: «ليس قبل الأوان بلحظة. لقد أقلقتنني قليلًا هناك».

قال مورت: «هل أنت بخير؟ يجب أن أذهب بسرعة...».

تأرجح رئيس الرهبان من السرير وسار نحو مورت خلال صفوف أتباعه الحزاني، وقال: «لا تذهب بسرعة. فأنا أتطلع دائماً إلى هذه الأحاديث. ماذا حدث للرفيق المعتاد؟».

قال مورت بذهول: «الرفيق المعتاد؟».

قال رئيس الرهبان: «الرجل الطويل. العبادة السوداء. يبدو عليه أنه لا يأكل بما يكفي».

قال مورت: «الرفيق المعتاد؟ تقصد الموت؟».

قال رئيس الرهبان ببهجة: «أجل»، ففتح مورت فمه بدهشة، ثم سأله بصعوبة: «تموت كثيراً، أليس كذلك؟».

قال رئيس الرهبان: «إلى حد ما، طبعاً. حالما تعتاد الأمر، يصبح مسألة تمرين».

قال مورت: «أهو كذلك؟».

قال رئيس الرهبان: «يجب أن نذهب»، فأغلق مورت فمه بسرعة ثم قال: «هذا ما كنتُ أحاول قوله».

تابع رئيس الرهبان بهدوء: «فقط أنزلني في الوادي إذا أمكن»، ثم مرَّ بجانب مورت واتجه نحو فناء المعبد. حدّق مورت إلى الأرض لحظةً، ثم ركض وراءه بطريقة يعرف أنها غير احترافية بلا كرامة.

قال مورت: «اسمع...».

قال رئيس الرهبان بلطف: «الآخر كان لديه حصان اسمه بينكي، أتذكره. هل اشتريتَ الدورَ منه؟».

قال مورت في حالة ضياع تام الآن: «الدور؟».

أجابه رئيس الرهبان: «أو أيّاً كان اسمه. سامحني، لا أعرف حقاً كيف تُنظَّم هذه الأمور يا فتى».

قال مورت بألية: «اسمي مورت. وأعتقد أنك من المفترض أن تعود معي يا سيدي. إذا لم تمنع»، قال الجملة الأخيرة بلهجة يأمل أن تكون حازمة وسلطوية، فاستدار رئيس الرهبان وابتسم له بلطف وقال: «أتمنى لو أستطيع، ربما يومًا ما. والآن، يمكنك توصيلي إلى أقرب قرية؟ أتخيل أنني أُخلَق الآن».

قال مورت، «تُخلَق؟ لكنك متّ للتوّ».

أوضح رئيس الرهبان: «أجل، لكن كما ترى، لديّ ما يمكنك تسميته تذكرة موسمية».

أشرق مورت بالفهم ببطء شديد، فقال: «أوه، لقد قرأتُ عن هذا. التناسخ، أليس كذلك؟».

أجابه رئيس الرهبان: «أجل، هذه هي الكلمة الصحيحة. ثلاثة وخمسون مرة حتى الآن. أو أربعة وخمسون».

عندما اقتربا من بينكي، نظر إليهما وأصدر صوتًا قصيرًا كدليل على معرفته رئيس الرهبان عندما ربّت أنفه. ركب مورت وساعد رئيس الرهبان في الصعود خلفه.

قال مورت: «لا بُدَّ أنه أمر مثير للاهتمام»، فيما طار بينكي مبتعدًا عن المعبد. على مقياس صغير للحديث الودي، لا بُدَّ أن ينال هذا التعليق تقييمًا متدنيًا للغاية، لكن لم يستطع مورت التفكير في شيء أفضل ليقوله.

قال رئيس الرهبان: «لا، ليس كذلك. تعتقد أنه يجب أن يكون كذلك، لأنك تظن أنني أستطيع تذكر جميع حيواتي، لكني طبعًا لا أستطيع ذلك. على الأقل، ليس وأنا حي».

اعترف مورت: «لم أفكر في ذلك».

قال رئيس الرهبان: «تخيل أن تتدرب على استعمال المرحاض خمسين مرة».

- أتخيل أنه شيء لا أرغب في استرجاعه.

- أنت محق. إذا كان لديّ وقتي من جديد، لما كنت سأعود إلى التجسد. وعندما أبدأ في فهم الأمور، يأتي الأولاد من المعبد يبحثون عن طفل خُلِقَ في الساعة التي مات فيها الراهب القديم. إنه افتقار إلى الخيال. توقف هنا لحظة، من فضلك.

نظر مورت إلى الأسفل، ثم قال بشك: «نحن في منتصف الهواء».

- لن أطيل عليك دقيقة.

ثم انزلق من على ظهر بينكي، ومشى بضع خطوات على الهواء الرقيق، وصاح.

بدا الصوت كأنه استمر مدةً طويلةً، ثم امتطى رئيس الرهبان صهوة الحصان مرة أخرى، وقال: «لا تعلم كم كنت أنتظر هذا بفارغ الصبر». كانت هناك قرية في وادٍ منخفض على بُعد بضعة أميال من المعبد، تُعد بمنزلة مصدر خِدَمَات للمعبد. بدت من الجو كتناثر عشوائي لأكواخ صغيرة معزولة صوتيًا بدرجة عالية.

قال رئيس الرهبان: «أي مكان هنا سيفي بالغرض»، فتركه مورت واقفًا على بعد بضع أقدام فوق الثلج في موضع بدت فيه الأكواخ أكثر سُمكًا.

قال مورت: «أمل أن تتحسن حياتك القادمة»، فهزّ رئيس الرهبان كتفيه وقال: «يُمْكِن للمرء دائمًا أن يأمل ذلك. على أي حال، سأحظى بفترة راحة تسعة أشهر. المشهد ليس رائعًا داخل الرحم بالتأكيد، لكنه دافئ على الأقل».

قال مورت: «إلى اللقاء إذن. يجب أن أذهب بسرعة».

قال رئيس الرهبان بحزن: «إلى اللقاء»، واستدار بعيداً.

كانت نيران أضواء المحور لا تزال تُلقي بوميضها على المكان. تنهد مورت، ومدَّ يده نحو الساعة الرملية الثالثة. كان وعاءُها من الفضة، مُزَيَّنًا بتيجان صغيرة. لم يتبقَّ الكثير من الرمل.

شعر مورت أن الليل قد ألقى بكل شيء عليه ولم يعد ممكناً أن يزداد سوءاً، فأدار الساعة الرملية بعناية للحصول على لمحة عن الاسم...

استيقظت الأميرة كيلى.

سمعتُ ما يشبه صوت شخص لا يريد أن يصدر أي صوت على الإطلاق. انسوا البازلاء والمراتب⁽¹⁾، فالتطور الطبيعي البحث قد أثبت على مر السنين أن الأسر الملكية التي تعيش أطول مدة هي تلك التي يستطيع أفرادها تمييز قاتل في الظلام من خلال الصوت الذي يكون ذكياً بما يكفي لعدم إصداره، لأن في الدوائر الملكية، يوجد دائماً شخص مستعد لقتل الوارث بسكين.

استلقتُ كيلى في السرير، تتساءل عما يجب أن تفعله تالياً. كان هناك خنجر تحت وسادتها، فبدأتُ تحرك يدها ببطء تحت الأغطية، فيما نظرتُ بحذر في أرجاء الغرفة من خلال عينيْن نصف مغلقتين بحثاً عن ظلال غير مألوفة. أدركتُ تماماً أنه إذا أشارتُ بأي طريقة إلى أنها ليست نائمة، فلن تستيقظ مرة أخرى أبداً.

(1) «قصة الأميرة وحبة البازلاء» من قصص «هانز كريستيان أندرسن» للأطفال، إذ كانت صعوبة النوم بسبب الإحساس بحبة البازلاء أسفل طبقات عدّة هو الاختبار المطلوب لمعرفة أكانت الفتاة من أصول ملكية أم لا بسبب اعتيادها النوم في فراش وثير رقيق (المُترجم).

تسلل ضوء ما إلى الغرفة خلال النافذة الكبيرة في أطراف الغرفة، ولكنّ الدروع والمفروشات ومختلف الأغراض التي ملأت الغرفة أمكنها أن تخبئ خلفها جيشًا كاملاً.

سقط الخنجر خلف رأس السرير. ما كانت لتستخدمه بشكل صحيح على أي حال.

قررت أن الصراخ لمناداة الجنود ليس فكرة جيدة. فإذا كان هناك شخص ما في الغرفة، فلا بدّ أنه تغلب على الجنود، أو على الأقل أسكتهم بمبلغ كبير من المال.

رأت عصا مدفأة على أرضية الحجارة بجانب النار. أيمن أن تستعملها سلاحًا؟

سمعت صوتًا معدنيًا خافتًا.

ربما الصراخ ليس فكرة سيئة بعد كل شيء...

انفجرت النافذة. وللحظة، رأت كيلى شخصًا مُقنَّعًا، مُحاطًا بوهج من اللهب الأزرق والأرجواني، ممتطيًا ظهر أكبر حصان رآته في حياتها. كما رأت شخصًا يقف بجانب السرير، يحمل خنجرًا شبه مرفوع في الهواء.

وببطء، شاهدت بذهول الذراع ترتفع، والحصان يركض ببطء شديد على الأرض. الآن صار الخنجر فوقها، ليبدأ في النزول نحوها، والحصان يرتفع وراكبه ينهض من موضعه ليلوِّح بسلاح من نوع ما، ونصل السلاح يمزق الهواء البطيء بصوت يشبه الصوت الذي يصدر عند لمس حافة كأس مبللة...

اختفى الضوء. وسمعت صوتًا خافتًا على الأرض، تلاه صوت ارتطام معدني.

شهقت كيلى بقوة، فوُضِعَتْ يد على فمها مدّةً وجيزةً وسمعت صوتًا قلِقًا يقول: «إذا صرختِ، فسأندم على ما فعلته. من فضلك؟ أنا في ورطة كافية فعلاً».

أي شخص أمكنه أن يُبدي هذا القدر من التوسل المشوّش في صوته، إما أنه صادق وإما ممثل جيد لدرجة أنه لا يحتاج إلى الاغتيال لكسب عيشه. فقالت: «من أنت؟».

قال الصوت: «لا أعرف أكان مسموحًا لي أن أخبركِ». ثم أضاف: «أنتِ لا تزالين حيّة، أليس كذلك؟».

كادت ترد بسخرية لكنها توقفت في الوقت المناسب. شيء ما في نبرة السؤال أقلقها. قالت: «ألا يمكنك معرفة ذلك؟».

قال: «ليس من السهل أن...». ثم صمت. حاولت أن ترى في الظلام، لتجد وجهًا يناسب ذلك الصوت، فأضاف: «ربما ألحقتُ بكِ ضررًا فظيعًا».

- ألم تنقذ حياتي للتو؟

- لا أعرف ماذا أنقذتُ في الواقع. أهنك بعض الضوء هنا؟

قالت كيلى: «تترك الخادمة أحيانًا بعض أعواد الثقاب على رف الموقد». فشعرتُ بصاحب الصوت بجانبها يبتعد. سمعتُ بضغ خطوات مترددة، وعدة ضربات، وأخيرًا صوت ارتطام معدني، مع أنّ الكلمة ليست كافية لوصف الفوضى الصاخبة للمعادن الساقطة التي ملأت الغرفة. حتى إنه تلاه الصوت التقليدي الصغير بعد ثوانٍ قليلة من اعتقادك أن كل شيء انتهى.

قال الصوت، بطريقة غير واضحة: «أنا تحت درع. أين يجب أن أكون؟».

انزلقتُ كيلى بهدوء من السرير، وشقت طريقها نحو الموقد، فعثرتُ على حُرْمة أعواد الثقاب بفضل الضوء الخافت من النيران الخابية، لتشعل عودَ ثقاب بفرقعة من الدخان الكبريتي، وأشعلتُ به شمعة، فوجدت كومة من الدروع المفككة، لتسحب سيفها من غمده وكادت تبلع لسانها. شعرت بشيء ما نفخ نفخة ساخنة ورطوبة في أذنها.

قال الصوت من كومة الدروع: «هذا بينكي. إنه يحاول أن يكون ودودًا. أعتقد أنه يودُّ بعض القش، إذا كان لديك أي منه».

بسيطرة ملكية على نفسها، قالت كيلى: «نحن في الطابق الرابع. إنها غرفة نوم سيدة. ستُدْهَش من قلة عدد الخيول التي تصل إلى هنا». قال الصوت: «آه. أيمكنك مساعدتي على النهوض، من فضلك؟».

وضعتِ السيف جانبًا وأزاحتُ قطعة درع صدرية، فرأتُ وجهًا أبيض نحيفًا يُحدِّق إليها.

قالت: «أولًا، من الأفضل أن تخبرني لماذا يجب ألا أستدعي الحراس على أي حال. فحتى مجرد وجودك في غرفتي يمكن أن يؤدي إلى تعذيبك حتى الموت».

واستمرتُ في التحديق إليه، فقال في النهاية: «حسنًا.. أيمكنك تحرير يديَّ من فضلك؟ شكرًا... أولًا، لن يراني الحراس في الغالب، ثانيًا، لن تكتشفي أبدًا لماذا أنا هنا، وتبين كَأَنَّك تكرهين عدم المعرفة، وثالثًا...».

قالت: «ثالثًا ماذا؟».

فتح فمه وأغلقه. أراد مورت أن يقول: «ثالثًا، أنت جميلة جدًا، أو على الأقل جذابة جدًا، أو على أي حال أكثر جاذبية من أي فتاة أخرى قابلتها، رغم أنني لم أقابل الكثير». من هذا يمكن أن نرى أن صراحة

مورت الفطرية لن تجعله شاعراً أبداً، فإذا قارن مورت فتاةً بيوم صيفي، سيتبعه بتفسير مدروس لليوم الذي يقصده وهل كان ممطرًا في ذلك الوقت. في هذه الظروف، كان من حسن الحظ أنه عجز عن الكلام.

رفعت كيلى الشمعة ونظرت إلى النافذة، فوجدتها سليمة. الأطر الحجرية لم تنكسر. كل لوحة زجاج ملون، بتمثيلاتها لشعار أسرة ستو لات، ظلت كاملة، فنظرت إلى مورت مجدداً وقالت: «لا تهتم بالسبب الثالث، دعنا نعد إلى السبب الثاني».

بعد ساعة، وصل الفجر إلى المدينة، لينساب ضوء النهار على القرص بدلاً من اندفاعه، لأن الضوء يتباطأ بفعل المجال السحري القائم للعالم، وفاض الضوء خلال الأراضي المسطحة مثل بحر ذهبي. برزت المدينة على التل لوهلة كقلعة رملية في المد، إلى أن جرفها النهار واستمر في زحفه.

جلس مورت وكيلى جنباً إلى جنب على سريرها، والساعة الرملية بينهما، بلا أي رمال باقية في جزئها العلوي. وفي الخارج، ألت أصوات القلعة بعد استيقاظها.

قالت كيلى: «لا أزال لا أفهم هذا. هل يعني ذلك أنني ميتة، أم لا؟». قال مورت: «يعني أنك من المفترض أن تموتي، حسب القدر أو أي شيء آخر. لم أدرس النظرية حقاً».

- وكان من المفترض أن تقتلني؟

- لا! أعني، لا، كان من المفترض أن يقتلك القاتل. حاولتُ شرح ذلك.

- لماذا لم تدعُ يقتلني؟

نظر مورت إليها برعب، وسألها: «هل أردت أن تموتي؟».

- طبعًا لا. لكن يبدو أن ما يريده الناس لا يدخل في الحساب، أليس كذلك؟ أحاول أن أكون عاقلة بشأن هذا.

تأمل مورت ركبتيه. ثم وقف وقال ببرود: «أعتقد أنني يجب أن أذهب». ثم طوى المنجل ووضعه في غمده خلف السرج، ونظر بعدها إلى النافذة.

قالت كيلى بلطف: «لقد دخلت من تلك النافذة. انظر، عندما قلت...».

- هل تفتح النافذة؟

- لا. هناك شرفة على طول الممر. لكن سيراك الناس!

تجاهلها مورت، وفتح الباب وقاد بينكي إلى الممر. ركضت كيلى وراءهما، فتوقفت خادمة، وانحنت بخفة، وعبست قليلًا فيما رفض عقلها بحكمة رؤية حصان ضخم يسير على السجادة.

تُطلُّ الشرفة على أحد الأفنية الداخلية. نظر مورت إلى الأسفل من فوق الحاجز، ثم امتطى الحصان.

قال مورت: «احذري من الدوق، فهو وراء كل هذا».

قالت الأميرة: «لقد حذرنى والدي منه دائمًا. لديّ من يتذوق الطعام بدلًا مني».

قال مورت: «عليك بالحصول على حارس شخصي أيضًا. يجب أن أذهب. لديّ أمور مهمة لأفعلها»، وأضاف بلهجة أمل أن تكون مُعبّرة عن الكبرياء المجروحة: «وداعًا».

قالت كيلى: «هل سأراك مرة أخرى؟ هناك الكثير مما أريد أن...».

قال مورت بتكبر: «سيكون ذلك أمرًا سيئًا، إذا فكرت في الأمر»، ثم نقر بلسانه، فاندفع بينكي في الهواء، وتجاوز الحاجز منطلقًا في سماء الصباح الزرقاء.

صرخت كيلى خلفه: «أردت أن أقول شكرًا!».

الخدمة، التي لم تستطع التغلب على الشعور بوجود شيء ما خطأ وتابعتها، قالت: «هل أنت بخير يا سيدتي؟».

نظرت كيلى إليها بتشتت، وسألتها: «ماذا؟».

قالت الخدمة: «كنت أتساءل فقط أكل شيء على ما يرام؟».

تدلت كتفا كيلى وقالت: «لا، كل شيء خطأ. هناك قاتل ميت في غرفتي. أيمكنك أن تفعل شيئًا حيال ذلك؟».

وأضافت وهي ترفع يدها: «وأيضًا لا أريدك أن تقولي «ميت يا سيدتي؟، أو «قاتل يا سيدتي؟، أو تصرخي أو أي شيء. أريد فقط أن تفعل شيئًا حيال ذلك. بهدوء. أعتقد أنني أعاني صداعًا. لذا فقط أومئي برأسك».

أومأت الخدمة برأسها وانحنت بتردد ثم تراجعت.

لم يكن مورت متأكدًا كيف عاد. تغيرت السماء ببساطة من الأزرق الجليدي إلى الرمادي الكئيب فيما تسلل بينكي إلى الفجوة بين الأبعاد. لم يهبط على التربة الداكنة لمزرعة الموت، بل صارت ببساطة هناك، تحت قدميه، كأنَّ حاملة طائرات ناورت مناورة لطيفة تحت طائرة نفاثة لتوفير عناء الهبوط على الطيار.

ركض الحصان العظيم إلى الإصطبل، ليتوقف أمام باب المزدوج وهو يهز ذيله، فانزلق مورت من فوقه وركض نحو البيت. ثم توقف، ركض عائدًا، وملأ رفَّ القش، وركض نحو المنزل، ثم توقف وتمتم لنفسه، ليركض عائدًا ويفرك الحصان، ويتحقق من دلو الماء، ثم ركض

نحو المنزل، وعاد راکضاً ليجلب بطانية الحصان من على الخطاف المثبت بالحائط وربطها على بينكي، فمسه بأنفه شاكرًا إياه.

لم يبدُ أن هناك أحدًا عندما تسلل مورت من خلال الباب الخلفي وشق طريقه إلى المكتبة، حيث بدا الهواء حتى في هذا الوقت من الليل كأنه مصنوع من غبار جاف ساخن. شعر أن الأمر قد استغرق سنوات كي يعثر على سيرة الأميرة كيلى الذاتية، لكنه وجدها في النهاية. كانت مجلدًا نحيفًا مُحْبَطًا على رف لا يمكن الوصول إليه إلا بسلم المكتبة، وهو هيكل متداعٍ بعجلات يشبه إلى حد كبير مُحَرَّك منجنيق عتيق.

وبأصابع مرتجفة فتحه عند الصفحة الأخيرة، وتنهد عندما قرأ: «اغتيال الأميرة في سن الخامسة عشرة تبعه اتحاد ستو لات مع ستو هليت، ومن ثم انهيار ولايات المدينة في السهل المركزي وصعود....».

استمر في القراءة عاجزًا عن التوقف، ليتنهد مُجددًا بين الحين والآخر.

في النهاية، أعاد الكتاب إلى مكانه بتردد، ثم أخفاه خلف بضعة مجلدات أخرى. لا يزال يشعر بوجوده هناك في أثناء نزوله السلم، يصرخ بوجوده المزعج للعالم.

لم تكن هناك العديد من السفن العابرة للمحيطات على القرص. لم يرغب أي قبطان في المغامرة بعيدًا عن رؤية الساحل. فمن المؤسف أن السفن التي تبدو من بعيد كأنها زاهبة إلى حافة العالم لم تكن في الواقع تختفي خلف الأفق، بل كانت في الواقع تسقط من على حافة العالم.

في كل جيل أو نحو ذلك، يشكك عدد قليل من المستكشفين المتحمسين في هذه الحقيقة، وينطلقون لإثبات خطأ هذه النظرية. ومن الغريب أنه لم يعد أحد منهم ليعلن نتيجة أبحاثه.

لذلك، فلاستعارة التالية لا معنى لها بالنسبة إلى مورت.

شعر كما لو كان على متن سفينة التيتانيك في أثناء غرقها، لكنّ تعرض للإنقاذ في اللحظة المناسبة. بسفينة لوسيتانيا الغارقة في ما بعد.

شعر كأنّه ألقى كرة ثلجية بدافع اللحظة وشاهد الانهيار الجليدي الناتج يغمر ثلاثة منتجعات تزلج.

شعر أن التاريخ يتفكك من حوله.

شعر أنه بحاجة إلى شخص يتحدث إليه، وبسرعة. وهو ما يعني إما ألبرت وإما يزابيل، لأن فكرة شرح كل شيء لتلك النقاط الزرقاء الصغيرة لم تكن ما يرغب في التفكير فيه بعد ليلة طويلة. في المناسبات النادرة التي التفتت فيها يزابيل للنظر إليه، أوضحت له أن الفرق الوحيد بين مورت وضفدع ميت هو اللون. أما ألبرت...

حسنًا، ليس الصديق المثالي، لكنه بالتأكيد الأفضل في موقف لا يوجد سواه مناسبًا.

انزلق مورت على الدرج وشقّ طريقه بين أرفف الكتب. سيكون النوم بضع ساعات فكرة جيدة أيضًا.

ثم سمع شهقة، وخطوات راكضة قصيرة، وصريير باب. عندما نظر نحو أقرب رف للكتب، لم يجد هناك سوى مقعد عليه بضعة كتب. التقط كتابًا ونظر إلى الاسم، ثم قرأ بضع صفحات. ووجد منديلًا رطبًا من الدانتيل بجانبه.

استيقظ مورت متأخرًا، وأسرع نحو المطبخ متوقعًا في أي لحظة نبرات الاستياء العميقة. لكنّ لم يحدث شيء.

وجد ألبرت عند الحوض الحجري، ينظر بتفكير إلى مقلاة البطاطس الخاصة به، ربما يتساءل أكان قد حان الوقت لتغيير الزيت أم تركه لعام آخر. فالتفت عندما نزل مورت جالسًا على كرسي.

قال ألبرت: «تعبت كثيرًا، أليس كذلك؟ سمعتُ أنك خضتَ رحلات مشاغبة في كل مكان حتى ساعات متأخرة. يمكنني أن أعدَّ لك بيضة، أو يوجد الشوفان».

قال مورت: «بيضة، من فضلك»، إذ لم يجروُ قطُّ على تجرِبة شوفان ألبرت، فقد عاش حياةً خاصةً في أعماقِ قدره ويأكل الملاحقَ.

أضاف ألبرت: «يرغب السيد في رؤيتك بعدما تنتهي. لكنه قال إنه لا يتعجل ذلك».

نظر مورت إلى المنضدة، وقال: «أوه. هل قال شيئًا آخر؟».

قال ألبرت: «قال إنه لم يأخذُ ليلةً راحةً منذ ألف عام. كان يغني. لا أحب ذلك. لم أره بهذا الشكل قطُّ».

قال مورت: «أوه»، ثم اتخذ قرارًا جريئًا وأكمل: «ألبرت، أنت هنا منذ مدة طويلة؟».

نظر ألبرت إليه من وراء نظارته، ثم قال: «ربما. من الصعب متابعة الوقت بالخارج يا فتى. أتيتُ إلى هنا منذ مدة قصيرة بعد وفاة الملك القديم».

- أي ملك يا ألبرت؟

- آرتورولو، أعتقد أن ذلك هو اسمه. رجل سمين صغير. صوته مزعج. رأيتُه مرة واحدة فقط.

- أين كان ذلك؟

- في عنخ، طبعًا.

- ماذا؟ لا يوجد ملوك في عنخ-موربورك، الجميع يعرف ذلك!

- هذا منذ زمن بعيد، كما قلتُ.

ثم صبَّ الشاي لنفسه من إبريق الشاي الشخصي للموت، وجلس بنظرة حالمة في عينيه المغلقتين. انتظر مورت بشغف، فاستمر ألبرت: «وكانوا ملوكًا في تلك الأيام، ملوكًا حقيقيين، ليس مثل الموجودين الآن. كانوا ملوكًا». وأكمل فيما يصبُّ بعض الشاي في صحنه ويبرده بشكل أنيق بنهاية منشفته: «أعني، كانوا حكماء وعادلين، أو على الأقل كانوا شبه حكماء. ولن يترددوا في قطع رأسك حالما يلقون نظرة عليك»، ليضيف بتصديق: «وكانت جميع الملكات طويلات واردين أوشحة باللون الأبيض وأغطية واقية للوجه والرأس....».

سأله مورت: «أتقصد النقاب؟».

- أجل، ذلك. والأميرات جميلات كنهار الشمس، ونبيلات لدرجة أنهنَّ يمكنهن التبول خلال اثنتي عشرة حشية فراش...

- ماذا؟

تردد ألبرت وقال: «شيء من هذا القبيل، على أي حال. وكانت هناك حفلات وبطولات وإعدامات. أيام عظيمة»، ثم ابتسم ابتسامة حالمة لذكرياته.

ثم قال بمزاج سيئ عائدًا من حالة التأمل: «ليست كالأيام الحالية». قال مورت: «ألديك أسماء أخرى يا ألبرت؟». لكن انتهى وقت الثرثرة، فلم يستسلم الشيخ لمحاولاته، فصاح: «أوه، فهمتك. احصل على اسم ألبرت وستذهب وتبحث عنه في المكتبة، أليس كذلك؟ لتتجسس وتتحرى عنه. أعرفك، تختبئ هناك طوال الوقت لتقرأ حيوات الفتيات الصغيرات...».

بدا الذنب واضحاً في أعماق عيني مورت، فعاقبه ألبرت بالضحك ونبشه بإصبعه النخيفة، وقال:

«حاول على الأقل أن تعيد الكتب إلى مكانها بعد الانتهاء من قرائتها. لا تتركها في كومة لألبرت الشيخ ليعيدها إلى مواضعها. على أي حال، ليس من الصواب التجسس على هذه الأشياء الميتة الفقيرة. ربما يجعلك ذلك ضريراً».

قال مورت: «لكنني فقط...». ثم تذكر منديل الدانتيل الرطب في جيبه، فصمت.

ترك ألبرت يتذمر لنفسه ويغسل الأطباق، وذهب إلى المكتبة. تسلل الضوء الشاحب من النوافذ العالية، ليغمر أغطية الكتب القديمة الصامدة برفق. أحياناً، يلتقط الضوء حبة من حبيبات الغبار فتتألق كنجمة سوبرنوفاً صغيرة خلال الأشعة الذهبية.

أدرك مورت أنه إذا أصغى بعناية، فيمكنه سماع صوت حسييس الكتب الشبيه بصوت الحشرات، في أثناء كتابتها لأنفسها. في يوم ما، ربما وجد مورت هذا الأمر مرعباً. الآن، صار ذلك مُطمئناً. فهو دليل أن الكون يسير بسلاسة. ضميره الذي كان يبحث عن الفرصة المناسبة، ذكّره بابتهاج أن الأمور قد تسير بسلاسة، لكن بالتأكيد ليست في الاتجاه الصحيح.

سار مورت خلال متاهة الأرفف نحو الكومة الغامضة من الكتب، فوجد أنها اختفت. كان ألبرت في المطبخ، ومورت لم يرَ الموت نفسه يدخل المكتبة قطً. فما الذي كانت تبحث عنه يزابيل بالضبط؟

رفع مورت رأسه لينظر إلى حافة الأرفف فوقه، وشعر ببرودة في معدته عندما فكر في ما بدأ في الحدوث...

ليس هناك حل آخر. عليه أن يخبر شخصًا ما.

في الأثناء نفسها، كانت الأمور صعبة لدى كيللي أيضًا.

وذلك لأن سببية الواقع امتلكت كمية هائلة من الخمول. فقد أرسلتها ضربة مورت الخاطئة، المدفوعة بالغضب واليأس والحب الناشئ، في اتجاه جديد لكن لم تلاحظه بعد. لقد ركل ذيل الديناصور، لكنه سيستغرق بعض الوقت حتى يدرك الديناصور أنه حان الوقت لقول «آه».

ببساطة، أدرك الكون أن كيللي ماتت، فدهش لأنها لم تتوقف عن المشي والتنفس بعد.

وظهرت تلك الدهشة بطرق صغيرة، كالحضور الذين رمقوها بنظرات غريبة في الصباح، وعجزوا عن قول سبب شعورهم الغريب بعدم الراحة عند رؤيتها. وبسبب حرجهم الشديد وانزعاجها، وجدوا أنفسهم يتجاهلون، أو يتحدثون بأصوات منخفضة.

وجد حاجب الملك أنه أمر برفع الراية الملكية إلى نصف السارية ولم يستطع أن يفسر سبب ذلك. فأرشد بلطف إلى سريره بعد أن أصيب بعرض عصبي خفيف بعد طلبه ألف ياردة من الشرائط السوداء دون سبب واضح.

انتشر ذلك الشعور الغريب غير الحقيقي بسرعة في القلعة. أمر رئيس العربات بإخراج نعش الدولة مرة أخرى وتلميحه، ثم وقف في ساحة الإصطبل وبكى في رداءه المصنوع من الشامواه لأنه لم يتذكر السبب. سار الخدم في الأروقة بخطى خفيفة. واضطّر الطاهي إلى مقاومة رغبة مُرغمة لإعداد ولائم بسيطة من اللحوم الباردة. عوت الكلاب

ثم توقفت، بعد أن شعرت بالحمق. أصبح الحصانان الأسودان اللذان كانا يجران مواكب الجنازات التقليدية في ستولات شديدة الاضطراب في أفقاصهما، وكادا يركلان أحد العاملين حتى الموت.

في قلعة في ستوهيليت، انتظر الدوق بلا فائدة مجيء رسوله الذي انطلق فعلاً، لكنه توقف في منتصف الشارع، غير قادر على تذكر ما كان من المفترض أن يفعله.

خلال كل هذا، تحركت كيلى كشبح صلب يتزايد انزعاجه بمرور الوقت.

وصلت الأمور إلى ذروتها عند وقت الغداء. دخلت إلى القاعة الكبرى فوجدت أن المكان غير مُرتَّب أمام الكرسي الملكي. تمكنت من تصحيح الأمر بالتحدث بصوت عالٍ وواضح مع كبير الخدم، ثم رأت الأطباق تمر بجانبها قبل أن تتمكن من وضع شوكتها فيها. شاهدت بدهشة واستياء غاضبين مجيء النبذ، وسكبه أولاً لواحد من أدنى أفراد الأسرة الملكية المسؤول عن تنظيف المراحيض.

كان أمراً غير ملكي ما قررت أن تفعله، لكنها مدّت قدمها إلى الأمام فتعثرت بها نادل النبذ. وقع النادل، فتمتم بشيء ما، ونظر إلى الأرض الحجرية في حيرة.

مالت كيلى نحو الجهة الأخرى وصاحت في أذن أمين المخازن: «هل تستطيع رؤيتي؟ لماذا اقتصر طعامنا على لحم الخنزير والخنزير المدخن؟».

ترك محادثته الهامسة مع سيدة الغرفة السادسة الصغيرة في البرج الشمالي، ونظر إلى كيلى بنظرة طويلة بدت فيها الصدمة والارتباك بلا تركيز نوعاً ما، وقال: «أجل، يمكنني... إذن يا...».

حثته كيلى: «صاحبة السمو الملكي».

فهمس: «لكن... نعم... صاحبة السمو»، ثم سادت لحظة صمت ثقيلة.

ثم، كأنه أعيد تشغيله مرة أخرى، أدار ظهره لها وعاد محادثته. جلست كيلى بعض الوقت، شاحبة من الصدمة والغضب، ثم دفعت الكرسي إلى الخلف واندفعت نحو غرفتها بسرعة، لتصدم خادمين كانا يتبادلان الدخان سريعاً في الممر، فوقعا دون أن يستطيعا رؤيتها بوضوح.

ركضت كيلى إلى غرفتها وجذبت الحبل المسؤول عن جلب الخادمة الموجودة في غرفة الجلوس في نهاية الممر. لم يحدث شيء بعض الوقت، ثم انفتح الباب ببطء ليطل منه وجه ينظر تجاهها.

أدركت النظرة هذه المرة، فتأهبت لها. أمسكت بالخادمة من كتفها وجذبتها إلى الغرفة، ثم أغلقت الباب بقوة خلفها. وبينما حدقت الخادمة برعب إلى كل مكان إلا نحو كيلى، جذبتها كيلى ولكمتها بقوة على خدها، وصاحت: «هل شعرت بذلك؟ هل شعرت بذلك؟».

همست الخادمة: «لكن... أنت...». ثم ترنحت إلى الوراء حتى سقطت على السرير وجلست عليه بتثاقل.

صاحت كيلى وهي تقترب منها: «انظري إليّ! انظري إليّ عندما أتحدث إليك! تستطيعين رؤيتي، أليس كذلك؟ قولي لي إنك تستطيعين رؤيتي، أو سأمر بإعدامك!».

نظرت الخادمة إلى عينيها المرعوبتين قائلة: «أستطيع رؤيتك، لكن...».

- لكن ماذا؟ لكن ماذا؟

- بالتأكيد أنت... سمعت... اعتقدت...

صاحت كيلى: «ماذا كنتِ تعتقدين؟»، ثم توقفت عن الصراخ، لتخرج كلماتها كسياط بيضاء حارقة.

انهارتِ الخادمة بالبكاء، فوقفتُ كيلى ونقرتُ بقدمها الأرض لحظةً، ثم هزّت المرأة بلطف وقالت: «هل هناك ساحر في المدينة؟ انظري إليّ، هناك ساحر، أليس كذلك؟ أنتنّ دائماً تتسللن لتحدثن مع السحرة! أين يعيش ذلك الساحر؟».

حولت المرأة وجهًا ملطخًا بالدموع نحوها، وهي تحارب كل غريزة بداخلها تخبرها أن الأميرة غير موجودة.

خرجتُ كلمات الخادمة بتردد: «ساحر، نعم... كاتويل، في شارع وول...».

انضغطتُ شفتا كيلى في ابتسامة رقيقة، فتساءلتُ أين توضع أريدتها، لكنْ أخبرها المنطق أنه من الأسهل بكثير أن تجدها بنفسها بدلاً من محاولة أن تُشعر الخادمة بوجودها. انتظرتُ، وراقبت من كتب بعدما توقفت المرأة عن البكاء، إذ نظرت حولها في حيرة غامضة، ثم سارعتُ للخروج من الغرفة.

ففكرتُ كيلى: «لقد نسيتني فعلاً». ثم نظرتُ إلى يديها، فبدا جسدها ماديًا كفايةً.

لا بُدَّ أن السحر هو سبب ذلك.

تجولت في غرفة ملابسها وجربتُ فتح بعض الخزائن، إلى أن وجدتُ رداءً أسودَ وقلنسوةً. ارتدتُهما واندفعت إلى الردهة ونزلت الدرج الخاص بالخدم.

لم تمرّ بهذا الطريق منذ أن كانت صغيرة. كان هذا عالم خزائن الملابس، الأرضيات العارية والمصاعد البسيطة، ويفوح الطريق برائحة القشور العفنة قليلاً.

تحركت كيلى خلال الطريق كما لو كانت شبحاً أرضياً. كانت على علم بمناطق سكن الخدم، طبعاً، بالطريقة نفسها التي يدرك بها الناس وجود المصارف أو الأنابيب بشكل ما، واستعدت بشكل تام للاعتراف بأنه بالرغم من أن الخدم كلهم يبدون على حد سواء تقريباً، لكن لا بُدَّ أن تتوفر لديهم بعض السمات المُميّزة التي يمكن لأقربائهم تعرّفهم بها. لكنها لم تكن مستعدةً لرؤية مشهد مثل موجيدرون خادم النبيذ الذي رأته فقط كشخص يتحرك بكرامة مثل سفينة شراعية كاملة، جالساً في دورة المياه وقد فتح سترته، ويدخن الغليون.

ركضت بعض الخادومات بجانبها، ليضحكن دون أن ينظرن نحوها. فسارعت كيلى وقد أدركت أنها بطريقة ما، انتهكت حرمة المكان دون إذن في قلعتها الخاصة.

وأدركت في ذلك الوقت، أنها لم تكن قلعتها على الإطلاق. فذلك المكان الصاخب من حولها، بغسيله المنبعث بالبخار وغرفة الباردة، يدور في فلكه الخاص. لا يمكنها امتلاكه. ربما كان هو من يمتلكها.

أخذت ورك دجاجة من على المنضدة في أكبر مطابخ المكان، وهو كهف مبطن بالأواني حتى إنه بسبب النور المنبعث من نيران موقده، بدا كمستودع أسلحة للسلاحف، وشعرت بتشويق غير مألوف بسبب ما فعلته من سرقة. سرقة! في مملكتها الخاصة! ونظر الطاهي خلالها مباشرة، بعينين لامعتين كلحم الخنزير المقدد.

ركضت كيلى خلال ساحات الاستراحة لتخرج من البوابة الخلفية، مروراً بحارسين لم يلاحظاها على الإطلاق برغم نظراتهما القاسية.

أما في الشارع، فلم تكن الأمور مربية تمامًا، لكنها شعرت بأنها عارية بشكل غريب. كان من المحير أن تكون بين أشخاص يُجرون شؤونهم الخاصة ولا يأبهون بأن يلقوا نظرة عليك، بعدما كانت خبرتها بالعالم حتى ذلك الحين أنه يدور حولها. اصطدم المشاة بها وتراجعوا بعيدًا، متسائلين للحظات عما اصطدموا به، واضطرت في مرات عدة إلى الابتعاد من طريق العربات.

لم يملأ ورك الدجاجة تلك الفجوة التي خلفها غياب الغداء، فسرقَتْ بعض التفاح من متجر ما، لتُذكّر نفسها بأنه على حاجب الملك أن يعرف تكلفة التفاح ويرسل بعض المال إلى صاحب المتجر.

بعد أن صارت مرتبكةً ومتسخةً إلى حد ما وتنبعث منها رائحة خفيفة من براز الحصان، وصلت أخيرًا إلى باب كاتويل. واجهت بعض المتاعب مع مقبض الباب. فوفق خبرتها الشخصية، تنفتح الأبواب أمامها، فهناك أشخاص متخصصون في فعل ذلك.

أصابها انزعاج شديد لدرجة أنها لم تلاحظ حتى أن مقبض مطرقة الباب يغمز إليها.

حاولت مرة أخرى، واعتقدت أنها سمعت صوت اصطدام بعيد. بعد هنيهة من الوقت، انفتح الباب بضعة سنتيمترات، ولمحت وجهًا مستطيلًا متشوقًا متوجًا بشعر مجعد، ففاجأتها قدمها اليمنى بأنها وضعت نفسها بذكاء في فراغ الباب.

صاحت كيلى: «أطالب برؤية الساحر. أرجوك أن تقبل لي بهذه اللحظة».

قال الوجه: «إنه مشغول حاليًا قليلًا. أتبحثين عن وصفة الحب؟».

- ماذا؟

قال الوجه: «لديّ... لدينا عرض خاص على مرهم درع العاطفة لكاتويل»، وغمز بطريقة مدهشة قائلاً: «يمنحك الفرصة لذرع بذور الشوفان، مع ضمان إخفاق حصاد المحصول، إذا فهمت ما أعنيه».

انتفضت كيلى، وكذبت ببرود: «لا، لم أفهم».

- رامروب؟ فترة توقف العذارى؟ دموع البيلاونا؟

- أطالب بـ...

قال الوجه: «آسف، لقد أغلقنا المكان»، ليغلق الباب فعلاً، فيما سحبت كيلى قدمها في الوقت المناسب. فتلفظت بعض الكلمات التي كانت ستدهش معلمها وتصدّمهم، ثم ضربت الباب الخشبي.

تباطأت ضرباتها فجأة بعدما أدركت ما حدث.

لقد رآها! لقد سمعها!

فضربت الباب بحماس جديد، وتصرخ بكل ما في رئتيها من قوة، فسمعت صوتاً بجانب أذنها يقول: «لن ينجح ذلك. إنه عنيد جداً».

نظرت حولها ببطء فواجهت نظرة مستفزة من مطرقة الباب. هزّ حاجبيه المعدنيين نحوها وتكلم بصوت غير واضح من خلال حلقة الحديدي المطروق، فقالت بغرور في محاولة لمداراة رعبها: «أنا الأميرة كيلى، وارثة عرش ستولات. ولا أتحدث إلى أثاث الأبواب».

قالت مطرقة الباب بلطف: «حسنًا، أنا مجرد مطرقة باب وأتكلم مع من أشاء، ويمكنني أن أخبرك أن سيدي يمر بيوم عصيب ولا يرغب في أي إزعاج. لكنّ يمكنك أن تجربى استخدام الكلمة السحرية، خاصة إذا قالتها امرأة جذابة، فنجاحها مضمون».

- كلمة سحرية؟ ما الكلمة السحرية؟

ظهرت تعابير استهجان على وجه مطرقة الباب قائلاً: «ألم تتعلمي شيئاً؟».

وقفتُ كيلى لتحفظ بارتفاعها الكامل، وهو ما لم يستحقَّ الجهد حقاً. شعرت بأنها قد مرت بيوم عصيب أيضاً. فقد أعدم والدها مئة من أعدائه شخصياً في المعركة. يجب أن تتمكن من إدارة مقبض باب. فأبلغته ببرود: «لقد نلتُ تعليمي على يد بعض أفضل العلماء في البلاد».

لم يبدُ المقبض متأثراً بذلك، فقال بهدوء: «إذا لم يعلموك الكلمة السحرية، فلا بدَّ أنهم ليسوا بكل تلك الجودة».

مدَّت كيلى يدها وأمسكت حلقة المقبض الثقيلة، وطرقتُ بها الباب، فابتسم المقبض إليها قائلاً: «عامليني بقسوة، هذه هي الطريقة التي أحبها!».

- أنت مقزز!

- نعم، أوه، كان ذلك لطيفاً، افعليه مجدداً...

انفتح الباب لمسافة قصيرة، فظهرت لمحة غامضة لشعر مجعد.

- سيدتي، قلتُ إننا أغلقنا...

تهاوت كيلى وقالت: «من فضلك، ساعدني. من فضلك!».

قال المقبض بانتصار: «أرأيتِ؟ في النهاية، يتذكر الجميع الكلمة السحرية!».

سبق لكيلى أن حضرتِ المَهْرَجانات الرسمية في عنخ-موربورك والتقتِ السحرة الكبارَ من الجامعة الخفية، الكلية الأولى للسحر على

مستوى عالم القرص. كان بعضهم طوالاً، ومعظمهم بدينين، وأغلبهم يرتدون ملابس ثرية أو على الأقل يعتقدون أنهم يرتدون ملابس ثرية.

في الواقع، هناك صيحات للموضة في السحر كما في الفنون الدنيوية الأخرى، وكان الميل إلى الظهور بهيئة كبار السن مجرد صيحة موضة مؤقتة. إذ فضّلت الأجيال السابقة أن تبدو شاحبة ومثيرة للاهتمام، أو كسحرة الدرويديين القذرين مُحبي الطبيعة، أو غامضين ومليئين بالكآبة. لكن اعتادتُ كيلى السحرة كما لو كانوا جبلاً صغيرة مطمورة بالفرو، ذوي صوت ثقيل، وإيجنوس كاتويل لم يناسب صورة الساحر إطلاقاً. كان شاباً، وهذا لا يمكن تجنبه، فمن المحتمل أيضاً أن حتى السحرة اضطُروا إلى البدء في شبابهم. لم تكن لديه لحية، والشيء الوحيد الذي تميز به رداؤه القذر هو نسيجه المتقشر.

قال كاتويل فيما يركل سترة ليخفيها أسفل منضدة: «هل تودين شرب شيء ما؟».

نظرت كيلى حولها بحثاً عن مكان للجلوس ليس مكدساً بالملابس المستخدمة أو الأواني المتسخة، فهزّت رأسها. لاحظ كاتويل تعبيرها، فقال: «أخشى أن المنزل مفتوح قليلاً للهواء الطلق»، ثم أضاف على عجل، وهو يرفع بقايا نقانق الثوم عن الأرض: «السيدة نوجنت تأتي عادةً مرتين في الأسبوع لترتيب الأمور بالنيابة عني، لكنها ذهبت لزيارة أختها التي أصيبت بأزمة. هل أنت متأكدة أنك لا تودين شرب شيء؟ لا مشكلة. رأيت كوباً إضافياً هنا بالأمس فقط».

قالت كيلى: «لديّ مشكلة يا سيد كاتويل».

أجابها: «انتظري لحظة»، وبدأ متعجلاً، فصعد إلى خطاف فوق الموقد وأخذ عنه قبعة حادة بالية، ثم قال: «حسناً. ابدئي».

- ما المهم بشأن القبعة؟

- أوه، إنها ضرورية للغاية. يجب أن تمتلكي القبة المناسبة لممارسة السحر. نحن السحرة نعرف شيئاً عن هذا النوع من الأمور.

- كما تشاء. هل تستطيع أن تراني؟

حملق إلى وجهها، ثم قال: «نعم. نعم، يمكنني بالتأكيد أن أراك».

- وتسمعني؟ يمكنك سماعي، أليس كذلك؟

- بوضوح وصفو. نعم. كل حرف تقولينه يتدحرج إلى موضعه بلا مشكلات.

- هل ستتفاجأ لو قلت لك إنه لا يمكن لأحد آخر في هذه المدينة رؤيتي؟

- إلا أنا؟

هزّت كلي رأسها وقالت: «ومطرقة بابك».

سحب كاتويل كرسيًا وجلس عليه، ثم تحرك قليلاً في مكانه. بدا على وجهه التفكير العميق. ثم نهض، ومدّ يده خلفه ليخرج كتلة حمراء مسطحة ربما كانت في وقت ما نصف بيتزا⁽¹⁾، فنظر إليها بحزن.

(1) أول بيتزا صُنعت في عالم القرص من قبل الساحر الكلاتشي رونرون «جو الوحي» شوادي، الذي ادعى أنه حصل على الوصفة في حلم من خلال خالق عالم القرص نفسه، الذي أضاف على ما يبدو أنه كان ينوي ذلك منذ البداية. رحالة الصحاري الذين رأوا النسخة الأصلية التي يُقال إنها محفوظة بإعجاز في مدينة إي المحظورة، يقولون إن ما كان يدور في عقل الخالق آنذاك كان بيتزا صغيرة مع قليل من الجبن والبيبروني وبعض الزيتون الأسود*، وأضيفت الجبال والبحار وما شابه ذلك في نهاية الأمر بحماسة مفاجئة، كما يحدث في الغالب.

* بعد انشقاق الدوارين ووفاة نحو 25,000 شخص في الجهاد الذي تلا ذلك، سُمح للمؤمنين بإضافة ورقة غار صغيرة إلى الوصفة. (المؤلف)

قال كاتويل: «لقد بحثُ عنها طوال الصباح، أتصدقين؟ كانت بيتزا بجميع الإضافات مع فلفل إضافي أيضًا»، ثم نظر بحزن إلى الشكل المهروس، ثم تذكر كيلى فجأة، فقال:

«أنا آسف جدًا، أين أخلاقي؟ ماذا ستظنين بي؟ هاك. خذي قطعة أنشوجة. من فضلك».

هاجمته كيلى قائلة: «هل سمعت ما أقوله؟».

قال كاتويل بشكل غير واضح: «هل تشعرين أنك خفية؟ أعني، في ذاتك؟».

- طبعًا لا. أنا فقط أشعر بالغضب. لذا أريدك أن تُنبئني بمستقبلي.

- حسنًا، لا أعرف عن ذلك شيئًا، يبدو أنها أمور طبية و...

- أستطيع أن أدفع لك مالا.

قال كاتويل بحزن: «إنه أمر غير قانوني. فالملك القديم منع التنجيم في ستولات بشكل صريح. لم يحبَّ السحرة كثيرًا».

- أستطيع أن أدفع لك مالا كثيرًا.

- أخبرتني السيدة نيوجنت أن هذه الأميرة الجديدة ستكون أسوأ

كثيرًا. قالت إنها فتاة متعجرفة. أخشى أنها ليست من النوع الذي

ينظر بلطف إلى ممارسي الفنون الدقيقة.

ابتسمت كيلى. لو رآها الآن أفراد البلاط الملكي الذين شاهدوا هذه

الابتسامة من قبل، لسارعوا بسحب كاتويل بعيدًا إلى مكان آمن، إلى

القارة التالية مثلًا، لكنه بقي جالسًا هناك يحاول إزالة بقايا الفطر عن

ردائه.

قالت كيلى: «أفهم أن بداخلها غضبًا شديدًا. لن يفاجئني إذا لم

تُخرجك من المدينة على أي حال».

قال كاتويل: «يا للهول، أظنن ذلك حقاً؟».

قالت كيللي: «انظر، لا تحتاج إلى أن تُنبئني بمستقبلي، أخبرني بحاضري فقط. حتى الأميرة لن تعترض على ذلك»، ثم أضافت بعفوية: «سأتحدث معها إذا أردت».

أشرق وجه كاتويل قائلاً بتفاؤل: «أوه، هل تعرفينها؟».

- نعم. لكن في بعض الأحيان، أعتقد، ليس جيداً جداً.

تنهّد كاتويل وحفر في الحُطام الموجود على المنضدة، فأسقط شلالات من الأطباق القديمة وبقايا متحجرة لوجبات عدّة، ليعثر في النهاية على محفظة جلدية سميقة ملتصقة بشريحة جبن.

قال كاتويل بارتباك: «حسناً، هذه بطاقات كاروك. حكمة مقطرة من القدماء وكل ذلك. أو هناك تشينج ألينج الهوللاندي. إنه أحدث صيحة بين الطبقات الراقية. لا أقرأ أوراق الشاي».

قالت كيللي: «سأجرب ذلك التشينج».

- إذن، ارمي أعواد اليارو هذه في الهواء.

فعلت ذلك، فنظرا إلى النمط الناتج، ليقول كاتويل بعد مدة: «همم، حسناً، هذا واحد في المدفأة، وواحد في كوب الكاكو، وواحد في الشارع، يا للأسف عما حدث في النافذة، وواحد على المنضدة، وواحد، لا، اثنان خلف الخزانة. أتوقع أن السيدة نوجنت ستمكن من العثور على البقية».

- لم تقل مدى الصعوبة. هل يجب أن أفعلها مرة أخرى؟

قال كاتويل: «لا، لا، لا أعتقد ذلك»، ثم قلب صفحات كتاب مصفّر استخدمه كدعامة لساق المنضدة سابقاً، وأكمل: «يبدو أن النمط

منطقي. نعم، ها نحن، أوكتوجرام 8,887: عدم الشرعية، الإوزة التي لا تغفر. والتي نذكرها هنا كمرجع لـ... انتظري ... انتظري ... نعم. وجدتتها».

- حسنًا؟

- دون عمودية، يخرج الإمبراطور القرمزي بحكمة في وقت الشاي، وفي المساء يصمت الكائن الرخوي بين أزهار اللوز.

قالت كيلى باحترام: «نعم؟ ماذا يعني ذلك؟».

- ما لم تكوني كائنًا رخويًا، فربما لا يعني الكثير. أعتقد وجود خطأ ما في الترجمة.

- أأنت متأكد أنك تعرف كيف تفعل هذا؟

قال كاتويل بسرعة ناشراً البطاقات: «دعينا نجرب البطاقات. اختاري بطاقة. أي بطاقة».

قالت كيلى: «إنها بطاقة الموت».

قال كاتويل بسرعة: «آه. حسنًا. طبعًا، بطاقة الموت لا تعني الموت في جميع الظروف».

- تقصد أنها لا تعني الموت في تلك الظروف التي يكون فيها الشخص متحمسًا للغاية وأنت محرج جدًا لتخبره بالحقيقة، هاه؟

- انظري، خذي بطاقة أخرى.

قالت كيلى: «هذه أيضًا الموت».

- هل أعدتِ البطاقة الأخرى؟

- لا. هل ينبغي أن آخذ بطاقة أخرى؟

- ربما.



telegram @
yasmeenbook

- حسنًا، يا لها من مصادفة!

- بطاقة موت ثالثة؟

- أجل. هل هذه مجموعة خاصة لحيل السحر؟

حاولتُ كيلى أن تبدو متماسكةً، لكن حتى هي استطاعتُ أن تكتشف نبرة الهستيريا الخفيفة في صوتها.

عبس كاتويل إليها ووضع البطاقات بعناية في الحُزمة، ثم خلطها، ووزعها على المنضدة، فوجد بطاقة موت واحدة فقط: «يا إلهي. أعتقد أن هذا سيكون جدًّا. هل لي أن أرى كَفَّك، من فضلك؟».

فحصها مدةً طويلةً. وبعدها، ذهب إلى الخزانة، وأخرج عدسة صائغ من درج، ومسح العصيدة عنها بكم رداءه، ثم قضى بضغ دقائق أخرى في فحص يدها بتفصيل دقيق. في النهاية، جلس ونزع العدسة، وحدَّق إليها.

قال: «أنتِ ميتة».

انتظرتُ كيلى. لم تستطع التفكير في أي رد مناسب. ف«لست ميتة» رد يفتقد إلى بعض الأناقة، أما «هل هذا أمر خطر؟» فبدا بطريقة ما ردًّا تافهًا جدًّا.

قال كاتويل: «هل قلتِ إنني أعتقد أن هذا سيكون جدًّا؟».

قالت كيلى بحذر، محافظةً على هدوء نبرة صوتها: «أعتقد أنك فعلت».

- كنتُ محقًّا.

- أوه.

- قد يكون مميتًا.

قالت كيلى: «ما مدى كونه مميتًا، أكثر من كوني ميتة؟».

- لم أقصد لك.

- أوه.

- كما ترين، يبدو أن هناك خطأً جوهرياً للغاية قد حدث. أنتِ ميتة بكل معاني الكلمة، آآ، إلا المعنى الفعلي. فالبطاقات تعتقد أنك ميتة. خط العمر لديك يعتقد أنك ميتة. كل شيء وكل شخص يعتقد أنك ميتة. قالت كيلى بصوت بدا أقل ثقة: «أنا لا أعتقد ذلك».

- أخشى أن رأيك لا يهم.

- لكنّ الناس قادرون على رؤيتي وسماعي!

- أول شيء تتعلمينه عند التسجيل في الجامعة الخفية، هو أن الناس لا يهتمون كثيراً بتلك الأمور. المهم هو ما تُخبرهم عقولهم به.

- أتقصد أن الناس لا يرونني لأن عقولهم تخبرهم ألا يروني؟

قال كاتويل: «أخشى ذلك. يُسمّى هذا التقدير السابق، أو شيئاً من هذا القبيل». ثم نظر إليها ببؤس وقال: «أنا ساحر. نحن نعرف عن هذه الأشياء، في الواقع، ليس هذا هو أول شيء تتعلمينه عند الالتحاق بالجامعة. أعني، تتعلمين أين دورات المياه وكل تلك الأشياء قبل ذلك. لكنّ بعد كل ذلك، يصبح هذا هو أول شيء».

- لكنك قادر على رؤيتي.

- آه. حسناً. السحرة مُدرَّبون بشكل خاص على رؤية الأشياء الموجودة وعدم رؤية الأشياء التي ليست كذلك. تحصلين على هذه التمارين الخاصة في...

قرعت كيلى بأصابعها المنضدة، أو حاولت. تبين أن ذلك كان صعباً، فنظرت إلى الأسفل برعب غامض، فيما هُرِعَ كاتويل إلى الأمام ومسح

المنضدة بكمه وتمتم: «آسف، لقد تناولتُ شطائر العسل الأسود في العشاء الليلة الماضية».

- ماذا يمكنني أن أفعل؟

- لا شيء.

- لا شيء؟

- حسنًا، يمكنكِ بالتأكيد أن تصبحي لصّة ناجحة جدًا... آسف. كان ذلك أمرًا غير لائقًا مني.

- أجل.

رَبَّتْ كاتويل يدها بشكل غير متمكن، وكانت كيللي مشغولة جدًا لدرجة أنها لم تلاحظْ هذه الجريمة السافرة ضد سيادتها الملكية.

- كل شيء محدد. التاريخ مكتوب بالكامل من البداية إلى النهاية. لا تهم ماهية الحقائق الفعلية، فالتاريخ يتجاوزها ببساطة. لا يمكنكِ تغيير أي شيء لأن التغييرات فعلًا جزء منه. أنتِ ميتة. هذا هو القدر. عليكِ أن تتقبلي ذلك.

ثم ابتسم معتذرًا وقال: «أنتِ أكثرُ حظًا من معظم الأموات. فإذا نظرتِ إلى الأمر بموضوعية، أنتِ حيّة للاستمتاع بذلك».

- لا أريد أن أقبل ذلك. لماذا يجب أن أقبله؟ ليس هذا خطأي!

- أنتِ لا تفهمين. التاريخ يمضي قُدُمًا. لا يمكنكِ المشاركة فيه بعد الآن. لا دورَ لكِ فيه، ألا تفهمين؟ من الأفضل أن تتركي الأمور تسير كما هي، ثم رَبَّتْ يدها مرة أخرى. نظرتُ إليه، فسحب يده.

- ماذا من المفترض أن أفعل إذن؟ ألا أأكل، لأن الطعام لم يكن مقدّرًا أكله؟ أن أذهب وأعيش في قبو ما؟

وافقها كاتويل قائلاً: «إنها مشكلة حقيقية، أليس كذلك؟ أخشى أن هذا هو قدرِك. ما دام العالم لا يشعر بوجودك، فأنت غير موجودة. أنا ساحر. نحن نعرف عن هذه الـ...».

- لا تقلها.

ثم نهضت كيلى.

منذ خمسة أجيال، أوقف أحد أسلافها فرقته من قطاع الطرق المتنقلين على بعد أميال قليلة من تلة ستولات ونظر إلى المدينة النائمة بعزم وقال: «ستفي هذه بالغرض. فقط لأنك ولدت على السرج لا يعني أنك يجب أن تموت فيه».

وبشكل غريب، ورثت ذريته العديد من ملامحه المميزة⁽¹⁾، من خلال خدعة من الوراثة، وهذا ما يفسر جاذبيتها الفريدة. لم تظهر هذه الصفات بشكل أكثر وضوحاً مما هي عليه الآن. حتى كاتويل كان معجباً. فعندما يتعلق الأمر بالعزم، يمكن لفكها أن يكسر الصخور.

وبنبهة الصوت نفسها التي استخدمها جدها عندما خاطب أتباعه المتعبين والمتعريقين قبل الهجوم⁽²⁾، قالت: «لا، لا، لن أقبل بذلك. لن أتحول إلى شبح. ستساعدني أيها الساحر».

(1) بالرغم من أنها لم ترث الشارب المتدلي وقبعة الفراء المستديرة ذات السنبل (المؤلف).

(2) توارثت الأجيال اللاحقة ذلك الخطاب في قصيدة ملحمية كُفَّ بها ابنه الذي لم يولد على سرج، وكان يستطيع الأكل بالشوكة والسكين. بدأت القصيدة:

«انظروا هناك إلى الأعداء الثابتين النائمين
فاسدي العقل، وبالذهب المسروق ممثلين.
لتكن رماح غضبكم كالنار في السهوب
في يوم عاصف في موسم الجفاف،
ولتضربوا بسيوفكم الصادقة كقرون ثور
عمره خمس سنوات يعاني ألم الأسنان الشديد...»

أدرك عقل كاتويل الباطن تلك النبوة. إذ حملت تناغمات جعلت حتى ديدان الخشب في الأرضية تتوقف عما تفعله وتقف منتبهة. لم تكن تُعبر عن رأي، بل كانت تقول: ستجري الأمور هكذا، فقال بصوت مرتجف: «أنا يا سيدتي؟ لا أرى كيف يمكنني أن...».

سحبته كيلى من كرسيه وأخرجته إلى الشارع، فيما تتطاير أريدته حوله. توجهت كيلى نحو القصر وقد عقدت كتفيها بإصرار، وتجر الساحر خلفها كجرو متردد. بدا مشيها كطريقة الأمهات في التوجه نحو المدرسة المحلية عندما يعود ابنها الصغير إلى المنزل بعين متورمة؛ طريقة سير غير قابلة للإيقاف؛ مثلما يسير الزمن.

تمتم كاتويل: «ما الذي تنوين فعله؟». مُدركاً بشكل مرعب أنه لا يوجد أي شيء يمكنه فعله لمقاومتها، مهما كان.

- إنه يوم حظك أيها الساحر.

قال بصوت ضعيف: «أوه. جيد».

- لقد عُيِّنْتَ للتو متعرِّفاً ملكياً.

- أوه. ماذا يعني ذلك بالضبط؟

- ستُذَكَّر الجميع أنني حيّة. الأمر بسيط جداً. ستحصل على ثلاث وجبات يومياً وغسل ملابسك. تحرك بسرعة يا رجل.

- ملكي؟

قالت الأميرة: «أنت ساحر. أعتقد أن هناك شيئاً يجب أن تعرفه».

واستمرت ثلاث ساعات. لكن يخبرنا الواقع الذي لا يستطيع عادةً تحمل تكاليف الشعراء، أن الخطاب الفعلي كان:

«يا رفاق، معظمهم لا يزالون في الفراش، يجب أن نتجاوزهم مثل فاكهة الكزك عبر جدة قصيرة، وأنا شخصياً قد طُفح بي الكيل من الخيام، حسناً؟». (المؤلف)

قال الموت: «حقاً؟».

(كانت تلك حيلة سينمائية استخدمتها في الرواية. لم يردّ الموت فعلياً على الأميرة. بل إنه في الواقع في مكتبه، يتحدث مع مورت. لكنها حيلة فعّالة، أليس كذلك؟ ربما يُطلق عليها «الانتقال السريع» أو «المزج/التكبير المتقاطع». أو شيء من هذا القبيل. في صناعة يُطلق فيها على فني كبير اسم «الصبي الأفضل»، امنح تلك الحيلة أيّ اسم).

أضاف الموت وهو يلف قطعة من الحرير الأسود حول خطاف بارز في كماشة صغيرة قد ثبتها على مكتبه: «وما ذلك؟».

تردّد مورت. وهذا في الغالب بسبب الخوف والإحراج، لكن أيضاً لأن رؤية شبح مقنع يعقد الذباب الجاف في أدوات الصيد بسلام كانت كافية لتجعل أي شخص يسكت على الفور.

بالإضافة إلى ذلك، جلسّت يزابيل على الجانب الآخر من الغرفة، تشتغل بالخياطة ظاهرياً ولكنها تراقبه أيضاً بتعبير من الاستياء العابس، فشعر بعينيها الحمرابين المخيفتين تخترقان مؤخرة عنقه.

أدخل الموت بعض ريش الغراب في العقدة وصفرّ لحناً صغيراً مشغولاً من بين أسنانه، لأنه لم يكن لديه شيء آخر يُصفرّ من خلاله، ثم نظر نحو مورت وقال: «هممم؟».

قال مورت واقفاً بعصبية على السجادة أمام المكتب: «لم تسرِ الأمور كما توقعت».

قال الموت، وهو يقص بعض قصاصات الريش: «هل واجهت صعوبة؟».

- حسناً، آآ، الساحرة لم ترحل والراهب، حسناً، بدأ من جديد.

- ليس هناك ما يدعو إلى القلق هناك، يا فتى...

- اسمي مورت.
- ...ينبغي أن تكون قد أدركت الآن أن الجميع يحصلون على ما يعتقدون أنه قادم لهم. إنها أكثر أناقة بهذه الطريقة.
- أعلم يا سيدي. ولكنَّ هذا يعني أن الأشخاص السيئين الذين يعتقدون أنهم ذاهبون إلى نوع من الجنة، يصلون إلى هناك فعليًا. والأشخاص الطيبون الذين يخشون أنهم ذاهبون إلى مكان رهيب، يعانون حقًا. لا يبدو ذلك عادلاً.
- ماذا قلتُ لك يجب أن تتذكره، عندما تذهب لتأدية الخدمة؟
- حسنًا، آآ...
- همم؟
- تلعثم مورت وصمت، فقال الموت: «لا توجد عدالة. هناك أنت فقط».
- حسنًا، أنا...
- يجب أن تتذكر ذلك.
- نعم، لكن...
- أتوقع أن كل شيء يجري بشكل صحيح في النهاية. لم ألتقِ الخالق مطلقًا، لكن قيل لي إنه لطيف مع الناس.
- ثم قصَّ الموت الخيط وبدأ في فك المشبك، وأضاف: «أخرج هذه الأفكار من عقلك. على الأقل لم يجبُ بالمهمة الثالثة أن تسبب أي مشكلة».

حان الوقت. لقد فكر مورت بشأن هذه اللحظة مدةً طويلةً. لا فائدة من إخفاء الأمر. لقد أفسد المجرى المستقبلي للتاريخ كله. إذ تميل هذه الأمور إلى جذب انتباه الناس. من الأفضل أن يعترف بالأمر. أن يعترف

كرجل ويتحمل عقابه. سيكشف أوراقه على المنضدة دون مراوغة، ويطلب الرحمة منه.

لمعت عينا الموت الزرقاوان الثاقبتان أمامه، فنظر مورت إليها مثل أرنب ليلي يحاول التحديق إلى أضواء شاحنة بست عشرة عجلة يقودها عاشق للكافيين منذ اثنتي عشرة ساعة بأقصى سرعة.

لكنه أخفق، وقال: «لا يا سيدي».

- جيد. أحسنت. الآن، ما رأيك في هذا؟

يظن الصيادون أن ذبابة جيدة جافة يجب أن تحاكي الذبابة الحقيقية بذكاء. هناك الذباب المناسب للصباح. وآخر مختلف لأول المساء. وهكذا.

لكنَّ ما كان بين أصابع الموت المنتصرة هو ذبابة من فجر التاريخ. ذبابة في طبق الحساء البدائي. تكاثرت على فضلات الماموث. لم تكن ذبابة تصطدم بزجاج النوافذ، بل ذبابة تحفر في الجدران. حشرة تخرج من بين فراغات أضخم ضربة، لتسيل منها السموم وتسعى للانتقام. أجنحة غريبة وأجزاء متدلّية تبرز من كل مكان. ويبدو أن لديها الكثير من الأسنان.

قال مورت: «ما اسمها؟».

- سأطلق عليها اسم... مجد الموت.

ثم ألقى عليها الموت نظرة إعجاب أخيرة ووضعها في قلنسوة رداءه، وقال: «أشعر برغبة في رؤية بعض الحياة هذا المساء. يمكنك أن تتولى أداء المهمات الآن، إذ إنك قد فهمت الأمر. إلى حد ما».

قال مورت بحزن: «أجل يا سيدي»، ورأى حياته تمتد أمامه مثل نفق أسود كريحه بلا ضوء في نهايته.

قرع الموت أصابعه على المكتب، وهو يتمتم لنفسه، ثم قال: «آه أجل. لقد أخبرني ألبرت أن أحدهم يتطفل على المكتبة».

قال مورت: «عفوًا، سيدي؟».

قال الموت: «يأخذ الكتب، ويتركها مبعثرة. كتبًا عن الشابات. يبدو أنه يظن الأمر مُسلّيًا».

كما كُشِفَ سابقًا فعلًا، يمتلك المستمعون المقدَّسون سمعًا متطورًا إلى حد يمكن أن يصمَّهم غروب الشمس الجيد. للحظات قليلة بدا لمورت أن جلد مؤخرة رقبة اكتسب قوى غريبة مشابهة، لأنه رأى يزابيل تتجمد في منتصف خياطتها. سمع أيضًا النفس القصير الذي سمعه من قبل بين الرفوف، وتذكَّر المنديل الدانتيل، فقال: «أجل يا سيدي. لن يحدث ذلك مرة أخرى، سيدي».

بدأ يشعر بحِجَّة شديدة في جلد مؤخرة رقبة.

قال الموت: «رائع. الآن، يمكنكما الانطلاق. دُع ألبرت يُعدُّ لكما وجبة غداء للنزهة أو شيئًا من هذا القبيل. استمتعا ببعض الهواء النقي. لقد لاحظتُ الطريقة التي تتجنبان بها بعضكما دائمًا». ثم لكز مورت بدفعة سرية - كانت كوخزة بعصا - وأضاف: «أخبرني ألبرت ما يعنيه ذلك».

قال مورت بوجوم: «هل فعل ذلك؟».

كان مُخْطِئًا، هناك ضوء في نهاية النفق، ضوء قاذف لهب.

غمز نحوه الموت مرة أخرى بوميض عينه المتوهج. لكن لم يرد مورت التحية. بدلًا من ذلك، استدار واتجه ببطء نحو الباب، بسرعة وخطوات جعلت السلحفاة آتوين العظيم يبدو كحمل ربيعي.

وصل إلى منتصف الطريق في الممر عندما سمع خطوات ناعمة خلفه، وأمسكت يد بذراعه.

- مورت؟

استدار ونظر إلى يزابيل خلال حالة من الاكتئاب.

- لماذا تركته يعتقد أنك كنت في المكتبة؟

- لا أعرف.

قالت بحذر: «كان ذلك... أمرًا لطيفًا جدًا منك».

- أكان كذلك؟ لا أستطيع أن أفكر في ما أصابني.

ثم وضع يده في جيبه وأخرج المنديل قائلاً: «أظن أن هذا يخصك».

- شكرًا.

ثم نفخت أنفها في المنديل بصوت عالٍ.

قطع مورت شوطًا كبيرًا في الممر، وكتفاه منحنيان مثل أجنحة

النسر. ركضت خلفه وقالت: «أقول...».

- ماذا؟

- أردت أن أقول شكرًا.

تمتم: «لا يهم. سيكون من الأفضل فقط ألا تأخذي الكتب مرة أخرى.

فهذا يزعجهم، أو شيء من هذا القبيل»، ثم أطلق ما اعتبره ضحكة دون

مرح: «ها!».

- ها ماذا؟

- فقط ها!

وصل مورت إلى نهاية الممر. وجد هناك الباب المؤدي إلى المطبخ،

حيث سيرى ألبرت يبتسم بذكاء، فتوقف بعد أن قرر أنه لا يستطيع

مواجهة ذلك.

قالت يزابيل من خلفه: «لكنني أخذتُ الكتب فقط من أجل بعض الصحبة».

استسلم مورت، وقال بيأس: «يمكننا أن نتمشى في الحديقة». ثم استطاع تمالك نفسه قليلاً وأضاف: «دون إلزام».

قالت: «تعني أنك لن تتزوجني؟». فشعر مورت بالرعب.

- أتزوجك؟

- أليس هذا السبب الذي أحضرك والدي من أجله؟ ففي النهاية، إنه لا يحتاج إلى متدرب.

قال مورت: «أتقصدين كل تلك التلميحات والغمزات والتعليقات الصغيرة عن 'يوماً ما يا بني سيكون كل هذا لك؟' حاولتُ تجاهلها. لا أريد الزواج بأي شخص بعد»، ثم أضاف، كاجأ صورةً عابرةً للأميرة: «وبالتأكيد ليس بك، لا أقصد الإساءة».

قالت بلهجة لطيفة: «لن أتزوجك حتى لو كنتَ آخر رجل على القرص».

جرحتُ تلك الجملة مورت. فهناك فرق بين عدم الرغبة في الزواج بشخص، وبين أن يُقال لك إنهم لا يريدون الزواج بك.

قال في أثناء خروجهما نحو حديقة الموت السوداء: «على الأقل لا أبدو كأنني كنت أكل الدونتس في خزانة الملابس لسنوات».

- على الأقل أمشي كأن ساقِي لا تحتويان إلا على ركبة واحدة لكل منهما.

- عيناى ليستا كبيضتين مسلوقتين مروّعتي الشكل.

أومأت يزابيل وقالت: «من ناحية أخرى، لا تبدو أذناى كشىء ينمو على شجرة ميتة. ماذا تعني «مروّعتي الشكل»؟».

- آآ، كالبيض الذي يُعده ألبرت.

- بياضه كله سائل ومائع ومملوء بالأجزاء اللزجة.

- أجل.

قالت بتفكير: «كلمة جيدة. لكن شعري، بكل صراحة، لا يبدو كشيء تنظف به المرحاض».

- بالتأكيد، لكن شعري أيضًا لا يبدو كقنفذ مبتل.

- لاحظي أن صدري لا يبدو كقطعة خبز توست في كيس ورقي مبلل.

ألقي مورت نظرة جانبية على أعلى فستان يزابيل، الذي حوى جسدها ذا الكمية الكافية من الدهون لتكوين جراء لكلبين من نوع روتويلر، فامتنع عن التعليق، وقال بحذر: «حاجباي لا يبدو أن كيرقتين متزاوجتين».

- صحيح. لكن ساقَيّ يمكنهما على الأقل أن توقفا خنزيرًا في ممر.

- معذرة؟

أوضحت قائلة: «إنهما ليستا مقوَّستين».

- آه.

تجوَّلا خلال أسِرَّة الزنابق، وقد سكتا عن الكلام مؤقتًا. وأخيرًا واجهت يزابيل مورت ومدت يدها، فصافحها في صمت شاكراً.

قالت: «يكفي هذا؟».

- تقريبًا.

- جيد. من الواضح أننا لا ينبغي أن نتزوج، من أجل الأطفال فقط.

فأوماً مورت، ثم جلسا على مقعد حجري بين بعض الشجيرات المقصوصة بدقة. صنع الموت بركة في هذا الركن من الحديقة، يغذيها نبع جليدي يبدو كأن أسداً حجرياً يتقيأه في البركة. وتربصتُ في الأعماق أسماك الكارب الأبيض السمين، أو تنقلت على السطح بين زهور الزنابق السوداء المخملية.

قال مورت بلباقة، مُختاراً موضوعاً غير مثير للجدل: «كان يجب أن نحضر بعض فتات الخبز».

قالتُ يزابيل في أثناء مراقبتها الأسماك: «أتعلم أنه لا يخرج إلى هنا أبداً؟ لقد صنع تلك البركة لإسعادي».

- ولم ينجح ذلك؟

- إنها ليست حقيقية. لا شيء هنا حقيقي. ليس حقيقياً حقاً. إنه يحب فقط التصرف كإنسان. إنه يحاول بشدة في الوقت الحالي؛ هل لاحظت؟ أعتقد أنك تؤثر فيه. أتعلم أنه حاول تعلّم العزف على آلة البانجو ذات مرة؟

- أراه يليق أكثر بآلة الأرغن.

قالت يزابيل متجاهلة إياه: «لم يتمكن من استيعاب آلة البانجو. فكما ترى، لا يمكنه الإبداع».

- لكنك قلت إنه صنع هذه البركة.

- إنها نسخة من بركة رآها في مكان ما. كل شيء نسخة.

تحرك مورت بقلق، إذ زحفت حشرة صغيرة على ساقه، ثم قال: «هذا محزن نوعاً ما»، آملاً أن تكون نبرة صوته ملائمة.

- نعم.

ثم أخذت حَفنة من حصى الطريق وبدأت تقذفها بلا مبالاة في البركة، وقالت: «هل حاجباي سيئان إلى هذا الحد؟».

قال مورت: «ممم. أخشى ذلك».

- أوه.

ثم أكملت قذف الحصى، لتراقبها أسماك الكارب بازدياء، ثم قالت: «وساقاي؟».

- أجل. آسف.

تحرك مورت بقلق خلال ترسانته المحدودة من الأحاديث الجانبية، واستسلم، فقال بلباقة: «لا بأس، على الأقل يمكنك استخدام الملقاط».

قالت يزابيل متجاهلة إياه: «إنه لطيف جدًا. بطريقة غافلة نوعًا ما».

- إنه ليس والدك الحقيقي، أليس كذلك؟

- قُتِلَ والداي في أثناء عبورهما صحراء نيف الكبرى قبل سنوات. أعتقد أن هناك عاصفة كانت في ذلك الوقت. وجدني وأحضرني إلى هنا. لا أعرف لماذا فعل ذلك.

- ربما شعر بالأسى عليك؟

- إنه لا يشعر بأي شيء. لا أعني ذلك بشكل سيئ. الأمر فقط أنه ليس لديه أي شيء يشعر به، أيًا ما تسميه، لا غدد. ربما فكر بالأسى عليّ.

ثم استدارت بوجهها الشاحب المدور نحو مورت، وقالت: «لن أسمع كلمة ضده. إنه يحاول أن يفعل ما بوسعه. الأمر فقط أنه دائمًا لديه الكثير ليفكر فيه».

- كان والدي مثل ذلك قليلًا. أعني، لا يزال كذلك.

- على الرغم من ذلك، أتوقع أن لديه غدًا.

قال مورت متململاً: «أتصور أنه كذلك. لم أفكر كثيرًا في الغدد». حدّدًا معًا إلى سمك السلمون المرقط. فبادلهم السمك التحديق. قال مورت: «لقد أفسدتُ تاريخَ المستقبل بالكامل».

- ماذا؟

- ترين، عندما حاول قتلها قتلته، لكنّ الأمر هو... وَفَقَ التاريخ كان يجب أن تموت والدوق يصبح الملك، ولكنّ الجزء الأسوأ، الجزء الأسوأ هو أنه على الرغم من كونه فاسدًا حتى النخاع، فإنه سيوحّد المُدُن وفي النهاية سيتكون اتحاد دولي، وتقول الكتب إن السلام والازدهار سيدومان مئة عام. أعني، قد تظنين أنه سيكون هناك عهد من الإرهاب أو شيء من هذا القبيل، لكن يبدو أن التاريخ يحتاج إلى هذا النوع من الأشخاص أحيانًا والأميرة ستكون مجرد حاكمة أخرى. أعني، ليست سيئة، بل جيدة حقًا، لكنها ليست مناسبة والآن هذا لن يحدث والتاريخ يتشتت بعشوائية وكل ذلك بسببي.

تراجع مورت، منتظرًا ردها في قلق، فقالت: «كنت على حق».

- فعلًا؟

- كان يجب أن نجلب بعض فتات الخبز. أفترض أنهم يجدون أشياء ليأكلوها في الماء. الحشرات وما إلى ذلك.

- هل سمعتِ ما قلته؟

- عن ماذا؟

- أوه. لا شيء. لا شيء مهم حقًا. آسف.

تنهّدت يزابيل ووقفت، ثم قالت: «أتوقع أنك ترغب في الرحيل. يسعدني أننا حللنا مسألة الزواج هذه. كان من الجميل حقًا التحدث معك».

- يمكننا أن نكون في علاقة كراهية متبادلة.

قالت يزابيل: «عادةً لا أتمكن من التحدث مع الأشخاص الذين يعمل معهم والدي»، وبدأت كأنها غير قادرة على الابتعاد، كأنها تنتظر من مورت أن يقول شيئًا آخر.

قال مورت: «حسنًا، هذا أمر متوقع». كان ذلك كل ما خطر بباله.

- أتوقع أنك ستذهب إلى العمل الآن.

قال مورت: «نوعًا ما». ثم تردد وهلةً، مُدرِّكًا بطريقة ما أن الحديث قد انجرف بعيدًا عن الأمور السطحية، وبدأ الآن بالاتجاه نحو أمور عميقة لم يفهمها تمامًا. سمع صوتًا يشبه...

جعل ذلك مورت يتذكر فناء منزله القديم، مع شعور بالحنين إلى الوطن. خلال شتاء رامتوب القاسي، احتفظت الأسرة بحيوانات الثارجا الجبلية الصلبة في الفناء، وأضافت لها القش حسب الحاجة. بعد ذوبان الجليد في الربيع، يصبح الفناء بعمق عدة أقدام وله قشرة صلبة نوعًا ما. يمكنك المشي خلاله إذا كنت حذرًا. إذا لم تكن حذرًا وغرقت حتى ركبتيك في المخلفات المتراكمة، فإن الصوت الذي يصدره حذاؤك عندما يخرج، بلون أخضر وينبعث منه الدخان، كان بمنزلة صوت تحول الفصول مثل تغريد الطيور وطنين النحل.

كان ذلك الصوت، فتفحص مورت حذاءيه فطريًا.

كانت يزابيل تبكي، ليس بنوبات بكاء أنثوية هادئة، بل بنوبات كبيرة مثل فقاعات من بركان تحت الماء، تتصارع لتصبح الأولى في الوصول إلى السطح. كانت نوبات بكاء هربت من الضغط، نضجت في بؤس رتيب.

قال مورت: «ها؟».

اهتزَّ جسدها مثل سرير مائي في منطقة زلازل. حاولت بيأس أن تبحث في أكامها عن منديل، لكنه لم يكن ذا فائدة في تلك الظروف أكثر من قبعة ورقية في عاصفة رعدية. حاولت قول شيء ما، فتحول كلامها إلى سيل من الحروف الساكنة المتقطعة بنوبات بكاء.

قال مورت: «هممم؟».

- قلتُ، ما تخمينك لعمرى؟

قال بتردد: «خمسة عشر عامًا؟».

قالت: «ستة عشر عامًا»، ثم بكت، لتكمل: «وهل تعلم منذ متى وأنا في السادسة عشرة؟».

- آسف، لا أفهم...

قالت: «لا، لن تفهم. لن يفهمني أحد». ثم نفخت أنفها مرة أخرى، ورغم ارتعاش يديها، أعادت المنديل المبلل إلى كمها بعناية، ثم أكملت: «أنت مسموح لك بالخروج. لم تبَق هنا طويلاً بما يكفي لتلاحظ. الزمن يتوقف هنا، ألم تلاحظ؟ أوه، شيء ما يمرُّ، لكنه ليس الزمن الحقيقي. لا يمكنه خلق الزمن الحقيقي».

- أوه.

عندما تحدث مرة أخرى، خرج صوتها حادًا وحذرًا، وقبل كل شيء صوت شجاع لشخص متماسك رغم كل الصعاب، ولكنه قد ينهار في أي لحظة.

- عمري ستة عشر عامًا منذ خمس وثلاثين سنة.

- أوه؟

- كان ذلك صعبًا بما فيه الكفاية في السنة الأولى.

نظر مورت إلى الأسابيع القليلة الماضية، وأومأ برأسه بتعاطف، ثم قال: «هل هذا السبب في قراءتك كل تلك الكتب؟».

نظرت يزابيل إلى الأسفل، وبدأت بتحريك إصبع قدمها خلال صندلها في الحصى بشكل محرج.

قالت: «إنها كتب رومانسية للغاية. هناك بعض القصص الجميلة حقًا. هناك فتاة شربت السم عندما مات حبيبها الشاب، وواحدة قفزت من منحدر لأن والدها أصرَّ على أن تتزوج هذا الشيخ، وأخرى أغرقت نفسها بدلًا من الاستسلام لـ...».

استمع مورت بدهشة. فوَفَّقَ اختيارات يزابيل الدقيقة في القراءة، كان من اللافت أن أي أنثى على القرص تعيش طويلًا بما يكفي لتبلي زوجين من الجوارب.

- ...ثم اعتقدت أنه مات، فقتلت نفسها، ثم استيقظ وقتل نفسه هو أيضًا، ثم كانت هناك فتاة...

أشار المنطق السليم إلى أن بعض النساء وصلن إلى عقدهنَّ الثالث على الأقل دون قتل أنفسهنَّ من أجل الحب، لكن لم يبدُ المنطق السليم

كأنه حصل حتى على دور ثانوي في هذه الدراما⁽¹⁾. أدرك مورت فعلاً أن الحب يجعلك تشعر بالحرارة والبرد والقسوة والضعف، لكنه لم يدرك أنه يمكن أن يجعلك غيبياً.

- ...كانت تسبح في النهر كل ليلة، لكن في إحدى الليالي هبّت عاصفة، وعندما لم يصل، قامت الفتاة بـ...

شعر مورت بالفطرة أن بعض الأزواج الشباب التقوا، على سبيل المثال، في حفل راقص بالقرية، وتوافقوا معاً، واستمرت رفقتهم سنة أو سنتين، خاضوا فيها بعض المشاجرات، ثم تصالحو، وتزوجوا، ولم يقتلوا أنفسهم على الإطلاق.

أصبح على دراية بأن سلسلة الحب المشؤوم قد انتهت، فقال بصوت ضعيف: «أوه. ألا يتعايش أحد بعد الآن؟».

قالت يزابيل: «الحب هو المعاناة. يجب أن يوجد الكثير من الشغف السوداوي».

- حقاً؟

- بالتأكيد. والعذاب كذلك.

بدأت يزابيل تتذكر شيئاً، ثم قالت بصوت متماسك: «هل قلت شيئاً عن شيء يرفرف بحرية؟».

فكر مورت، ثم قال: «لا».

- أخشى أنني لم أركز جيداً.

(1) أعظم عشاق القرص بلا شك كانا ميلبوس وجريتينا اللذين كانت علاقتهما النقية والمشغوفة والمحطمة للروح ستلهب صفحات التاريخ لو لم يكونا، بسبب خطأ غير مفسر في القدر، قد ولّدا بفارق مائتي عام في قارتين مختلفتين. ومع ذلك، أشفقت الآلهة عليهما وحولته إلى منضدة كي وحولتها إلى دعامة نحاسية صغيرة. فعندما تكون إلهاً، لست بحاجة إلى أن تكون لديك أسباب. (المؤلف)

- لا يهْمُ على الإطلاق.

ثم عادا إلى المنزل في صمت. عندما عاد مورت إلى غرفة المكتب وجد أن الموت قد غادر، تاركًا أربع ساعات رملية على المكتب. كان الكتاب الجلدي الكبير موضوعًا على منصة، مُغلقًا بإحكام. وهناك ملاحظة تحت الساعات.

تخيّل مورت أن خط يد الموت سيكون إما قوطيًا وإما مائلًا كالنقوش على شواهد القبور، لكنّ الموت في الواقع قد درس عملاً كلاسيكيًا عن الخطوط قبل أن يختار أسلوبه، وتبنّى خطأ يدل على شخصية متوازنة ومستقرة.

قالت الملاحظة:

ذهبتُ لصيد السمك. هناك إعدام في سودوبوليس، كارثة طبيعية في كرول، انهيار قاتل في جبال كاريك، حُمى في إل-كينتي. بقية اليوم لك.

فكّر مورت أن التاريخ يتقلّب مثل حبل فولاذي ضخم فقد ثباته، يهتزّ جيئةً وذهابًا خلال الواقع في تحركات مدمرة كبيرة.

لكنّ التاريخ ليس كذلك. التاريخ يتفكك بلطف، مثل سترة قديمة. إذ تعرّض للترقيع والإصلاح عدة مرات، وأعيدت حياكته ليناسب أشخاصًا مختلفين، ووُضع في صندوق تحت حوض الرقابة ليُقطع إلى قطع صغيرة من أجل دعايات البروجاندا، ومع ذلك فإنه دائمًا -في النهاية- يتمكن من العودة إلى شكله المألوف القديم. التاريخ لديه عادة تغيير الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يغيرونه. التاريخ لديه دائمًا بعض الحيل في أكمامه المتهالكة. إذ ظلّ موجودًا منذ وقت طويل.

هذا ما كان يحدث:

الضربة الخاطئة لمنجل مورت قطعت التاريخ إلى واقعين منفصلين. في مدينة ستولات، ظلت الأميرة كيلى في سدة الحكم، بصعوبة معينة وبمساعدة دائمة من «المتعرّف الملكي»، الذي وُضع على قائمة موظفي البلاط الملكي وكُلّف بواجب تذكر أنها موجودة. أما في الأراضي الخارجية -خارج السهل، في رامتبوس، حول البحر الدائري وصولاً إلى الحافة- فقد ظلت الحقيقة التقليدية هي السائدة وأن كيلى ميتة يقيناً، والدوق هو الملك والعالم يمضي بهدوء وفوق ما خطط له، أيّاً كان.

المشكلة هي أن كلا الواقعين كانا صحيحين.

كانت نقطة اللا عودة التاريخية على بعد قرابة عشرين ميلاً من المدينة حالياً، ولم تكن ملحوظة بعد. ذلك لأن. حسنًا، نسميها الفروق في الضغوط التاريخية لم تكن بعد كبيرة جدًا. لكنها تستمر في النمو. وفي حقول الكرنب الرطبة ظهر وميض في الهواء وصوت طفيف يشبه قلبي الجراد.

الناس لا يُغيّرون التاريخ أكثر مما تُغيّر الطيورُ السماء، هم فقط يصنعون أنماطًا قصيرة فيه. ليبدأ الواقع الحقيقي يتقدم ببطء نحو ستولات، بوصة تلو بوصة، ثابتًا كالجليد وأبرد بكثير.

كان مورت أول من لاحظ الأمر.

لقد كان عصرًا طويلًا. ظل متسلق الجبال مُتشبّهًا بمكانه الجليدي حتى اللحظة الأخيرة، والمُدان بالإعدام نعت مورت بأنه خادم للدولة الملكية. أما العجوز ذات الـ103 أعوام التي ذهبت إلى مئواها مُحاطة بأقاربها الحزينين، فقد ابتسمت له وقالت إنه يبدو شاحبًا قليلًا.

اقتربت شمس القرص من الأفق عندما تحرّك بينكي ببطء خلال السماء فوق ستولات، ونظر مورت إلى الأسفل ورأى الحدود الفاصلة للواقع تتقوس تحته، كقوس من الضباب الفضي الخافت. لم يدرك ما يحدث، لكنه شعر بشعور مزعج أن للأمر علاقةً به.

أوقف الحصان وسمح له بالهرولة بلطف نحو الأرض، ملامسًا إياها على بُعد بضع ياردات خلف الهواء المتلألئ. تحرّك بينكي بسرعات أقل من سرعة المشي، وأصدر هسيسًا خفيفًا وهو ينجرف كالشبح خلال حقول الكرنب الرطبة والخنادق المتجمدة.

كانت ليلة باردة، من تلك الليالي التي يتصارع فيها الصقيع والضباب على السيطرة وكل صوت يبدو مكتومًا. نتجت عن أنفاس بينكي نوافير من السحب في الهواء الساكن. حمم بهدوء، باعتذار تقريبًا، وبدأ ينبش الأرض.

انزلق مورت من على السرج وزحف إلى الحاجز، فوجده يتقشر بلطف. وأشكال غريبة تتلألأ خلاله، لتندفق ثم تتحول وتختفي.

بعد بعض البحث، وجد عصا وبدأ يحركها بحذر داخل الجدار، فصنعت موجات غريبة تتذبذب ببطء خارج نطاق الرؤية.

نظر مورت إلى الأعلى عندما انجرف شكل ما فوقه. كان بومة سوداء، تراقب الخنادق بحثًا عن أي شيء صغير ومزعج. اصطدمت بالجدار لينتج رذاذ من الضباب المتلألئ، تاركةً تموجًا على شكل بومة نما وانتشر حتى انضمَّ إلى الدوامة المتزايدة.

ثم اختفت. استطاع مورت أن يرى خلال الواجهة الشفافة، وبالتأكيد لم تظهر أي بومة على الجانب الآخر. وفي أثناء حيرته مما حدث، ظهر رذاذ آخر بلا صوت على بعد بضع أقدام لتظهر البومة فجأة مرة أخرى، غير مكترثة تمامًا، وتُحلق بعيدًا خلال الحقول.

تمالك مورت نفسه، وخطا خلال الحاجز الذي لم يكن حاجزًا على الإطلاق، إذ شعر بوخز خفيف.

وفي اللحظة التالية، اندفع بينكي من خلاله، وعيناه تدوران في يأس وخيوط الواجهة تتشابك مع حوافره. رفع قوائمه إلى الأعلى، وهزَّ عرقه مثل الكلب لإزالة الألياف الملتصقة من الضباب، ثم نظر إلى مورت متوسلاً.

أمسك مورت بلجامه، ربَّتْ أنفه، وبحث في جيبه عن قطعة سكر متسخة بعض الشيء. أدرك أنه في حضرة شيء مهم، لكنه لم يتأكد بعد من ماهيته.

امتدَّ أمامه طريق بين صفيين من أشجار الصفصاف الرطبة والكثيبة. امتطى مورت الحصان من جديد، وانطلق به خلال الحقل إلى الظلام المتساقط تحت الأغصان.

أمكنه رؤية أضواء ستو هيليت على بُعد التي لم تكن في الواقع أكثر من بلدة صغيرة، ولا بُدَّ أن التوهج الخافت على حافة الرؤية هو ستو لات، فنظر إليها بشوق.

أقلقه الحاجز، إذ استطاع رؤيته يزحف خلال الحقل خلف الأشجار. كان مورت على وشك أن يحثَّ بينكي على العودة إلى الهواء عندما رأى الضوء أمامه مباشرةً، دافئاً وجذاباً. ينبعث من نوافذ مبنى كبير يقع بعيداً عن الطريق. من المحتمل أنه نوع من الضوء المبهج على أي حال، لكن في هذه الظروف وبالمقارنة مع مزاج مورت، بدا مفعماً بالفرح بشكل إيجابي.

اقترب ورأى ظلالاً تتحرك ضد الضوء، وسمع بعض مقاطع من الأغاني. كان نُزْلاً، وداخل النُزْل هناك أشخاص يستمتعون بوقتهم، أو

ما يمكن اعتباره وقتًا جيدًا إذا كنتَ فلاحًا تقضي معظم وقتك مهتمًا من كتب الكرب. مقارنةً بالكرب، فإن أي شيء ممتع عمليًا.

هناك بشر في الداخل، يفعلون أشياءً بشريةً بسيطةً مثل شرب الخمر حتى الثمالة، ونسيان كلمات الأغاني.

لم يشعر مورت قط بالحنين إلى الوطن حقًا، ربما لانشغال عقله بأشياء أخرى. لكنه شعر بذلك الآن لأول مرة بنوع من الشوق، ليس إلى مكان، بل إلى حالة ذهنية، لكونه مجرد إنسان عادي لديه أمور بسيطة يقلق بشأنها، مثل المال والمرض والناس الآخرين، ففكر قائلاً: «سأتناول مشروبًا، وربما سأشعر بتحسن».

هناك إصطبل مفتوح في أحد جوانب المبنى الرئيسي، فقاد بينكي إلى الظلام الدافئ الذي تفوح منه رائحة الخيول، والذي احتوى فعليًا على ثلاثة خيول أخرى. وفي أثناء فك مورت حقيبة الأنف، تساءل أكان حصان الموت يشعر بالطريقة نفسها تجاه الخيول الأخرى التي تعيش حياة أقل غرائبية. بالتأكيد بدا مثيرًا للإعجاب بالمقارنة مع الآخرين الذين راقبوه بحذر. كان بينكي حصانًا حقيقيًا - فالبثور على يدي مورت من استخدام المجرفة دليل على ذلك - وبالمقارنة مع الآخرين، بدا أكثر واقعيةً من أي وقت مضى. أكثر صلابة. أكثر حصانية. أكبر بقليل من الحجم الطبيعي.

في الواقع، كان مورت على وشك التوصل إلى استنتاج مهم، ومن المؤسف أن انتباهه قد تشتت عندما مشى خلال الفناء إلى الباب المنخفض للنزل، برؤية لافتة النزل. لم يكن الفنان الذي رسمها موهوبًا بشكل خاص، لكن لا شك في شكل فك كيلى أو كتلة شعرها الناري في صورة «رأس الملكة»، فتنهّد ودفع الباب ليفتحه.

وفي لحظة واحدة، توقف الرفاقُ المجتمعون عن الكلام وحدّقوا إليه بنظرة ريفية صادقة توحى بأنه لأقل سبب قد يضربونك على رأسك بمجرفة ويدفنون جثتك تحت كومة سماد في ليلة قمرها مكتمل.

ربما كان من المفيد إلقاء نظرة أخرى على مورت، لأنه تغير كثيراً في الفصول الأخيرة. فعلى سبيل المثال، بينما لا يزال لديه الكثير من الركب والمرافق، يبدو أنها انتقلت إلى أماكنها الطبيعية ولم يعد يتحرك كأنّ مفاصله مربوطة ببعضها بأشرطة مطاطية. وبعدها بدا كأنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق؛ يبدو الآن كأنه يعرف الكثير. شيء ما في عينيه يوحي بأنه رأى أشياء لا يراها الناس العاديون، أو على الأقل لا يرونها أكثر من مرة.

شيء ما في بقية مظهره يوحي للمراقبين أن التسبب في إزعاج هذا الفتى سيكون بنفس قدر رعونة ركل عش الدبابير. باختصار، لم يعد مورت يبدو كشيء أكلته القطة ثم تقيأته.

أرعى صاحب الحانة قبضته على عصاه السوداء المتينة التي يحتفظ بها تحت المنضدة، وبدل ملامحه ليظهر بابتسامة ترحيب مرحة، رغم أنها لم تكن كذلك بشكل كبير، وقال: «مساء الخير يا سيدي. فيمَ ترغب في هذه الليلة الجليدية الباردة؟».

قال مورت، مغمضاً عينيه في الضوء: «ماذا؟».

قال رجل صغير ذو وجه يشبه النمس يجلس بجانب النار، ناظرًا نحو مورت كجزار يشاهد حقلاً مليئاً بالحملان: «ما يقصده هو، ماذا تريد أن تشرب؟».

قال مورت: «ممم. لا أعلم. هل تبيعون شرابَ النجوم؟».

- لم أسمع به قطُّ يا سيدي.

نظر مورت حوله إلى الوجوه التي تراقبه، مُضاعة بوهج النار. كانوا من النوع الذي يُطلق عليه عادةً ملح الأرض. بعبارة أخرى، كانوا قساةً، وجامدين، وسيئين لصحتك، لكنّ مورت كان مشغولاً جدًّا فلم يلاحظ ذلك.

- ما الذي يحب الناس شربه هنا إذن؟

نظر صاحب الحانة إلى زبائنه بشكل جانبي، وهي حيلة ذكية لأنهم أمامه مباشرة.

- حسنًا، يا سيدي، نحن نشرب السكامبل، نفضله كثيرًا.

قال مورت، دون أن يلاحظ الضحكات المكتومة: «السكامبل؟».

- نعم، يا سيدي. مصنوع من التفاح. حسنًا، بشكل رئيسي من التفاح.

بدا هذا صحيحًا بما يكفي لمورت، فقال: «أوه، حسنًا. أعطني كأسًا من السكامبل إذن»، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج كيس الذهب الذي أعطاه إياه الموت. كان لا يزال ممتلئًا تمامًا. في الهدوء المفاجئ في النُّزل، بدا صوت العملات المعدنية الخافت كصوت الأجراس النحاسية الأسطورية في جزيرة ليشب التي يمكن سماعها بعيدًا في البحر في الليالي العاصفة، فيما تحركها تيارات البحر في أبراجها الغارقة على عمق ثلاثمئة قامة.

ثم أضاف: «وأرجو أن تقدم لهؤلاء السادة ما يرغبون فيه».

فاض الرجال بالشكر الجزيل على مورت، فلم يلاحظ كثيرًا أن أصدقاءه الجدد قد حصلوا على مشروباتهم في كؤوس صغيرة بحجم الكشتبان، فيما حصل هو وحده على كأس خشبية كبيرة.

يُروى كثير من القصص عن السكامبل، وكيف يُصنَع في المستنقعات الرطبة وَفَقَ وصفات قديمة تنتقل من الأب إلى الابن بشيء من التردد. القصص عن الفئران أو رؤوس الثعابين أو الطلقات الرصاصية غير صحيحة. وقصة الخروف الميت مُختلقة بالكامل. يمكننا تجاهل جميع النسخ المتنوعة من القصة المتعلقة بِزِرِّ السروال. لكنَّ قصة عدم السماح لذلك المشروب أن يمسه المعدن صحيحة تمامًا، لأنه عندما أعطى صاحب الحانة مورت بقية نقوده النُّحاسية ووضعها في بركة من السكامبل، بدأت بالفوران على الفور.

شَمَّ مورت مشروبه، ثم أخذ رشفة. وجد طعمه يشبه طعم التفاح، وصباحات الخريف، وإلى حد كبير قاع كومة الخشب. ولكنه أخذ جُرعة، لعدم رغبته في الظهور بشكل ينمُّ عن قلة الاحترام.

راقبه الحشد وهم يعدُّون بصوت منخفض، فشعر مورت أن شيئاً ما مطلوب منه.

قال: «لذيذ. منعش جدًّا»، ثم أخذ رشفة أخرى وقال: «طعمه يحتاج إلى الاعتياد، ولكنه يستحق الجهد، أنا متأكد».

تزايدت همسات عدم الرضا من خلف الحشد.

- لقد خُفِّفَ السكامبل بالماء، هذا ما حصل.

- لا، أنت تعرف ماذا يحدث إذا لامس السكامبل قطرة ماء.

حاول صاحب الحانة تجاهل ذلك، فقال لمورت: «هل أعجبك؟». بنبرة الصوت نفسها التي استخدمها الناس عندما قالوا لسان جورج: «لقد قتلت ماذا؟».

أجابه مورت: «طعمه لاذع قليلًا، ونكهته تشبه المكسرات نوعًا ما».

قال صاحب الحانة بلطف: «معذرة»، وأخذ الكأس من يد مورت، فشَمَّها ثم مسح عينيه وقال: «أوه، إنه الشيء الصحيح بلا شك».

نظر إلى الفتى بنوع من الإعجاب. لم يكن الأمر فقط أنه شرب ثلث لتر من السكامبل في حد ذاته، بل لأنه لا يزال واقفًا وعلى ما يبدو حيًّا. أعاد إليه الكوب مرة أخرى: كان الأمر كأنَّ مورت حصل على كأس المركز الأول بعد مسابقة هائلة. عندما أخذ الفتى جُرعة أخرى، ارتجف عدة مشاهدين. تساءل صاحب الحانة عمَّ صُنِعَتْ منه أسنان مورت، وقرر أنه لا بُدَّ أنها المادة نفسها التي صُنِعَتْ منها معدته. فسأله، لمجرد التأكد: «أنت لست ساحرًا بأي شكل؟».

- عذرًا، لا. هل ينبغي لي أن أكون كذلك؟

فكَّر صاحب الحانة: لم أظنه كذلك، فهو لا يمشي مثل السحرة ولا يُدخِّن أي شيء على أي حال. فنظر مرة أخرى إلى قدح السكامبل. هناك شيء خاطئ في هذا. هناك شيء خاطئ في الفتى. لم يبدو صحيحًا. بدا...

...أكثر صلابة مما ينبغي.

كان ذلك سخيًّا طبعًا. المنضدة صلبة، الأرضية صلبة، الزبائن كانوا بصلابة تامة. ومع ذلك، فإن مورت الواقف هناك، يبدو مُحرجًا ويشرب بسهولة سائلًا يمكنك تنظيف الملاعق به، بدا كأنه ينبعث منه نوع خاص من الصلابة، بُعد إضافي من الواقعية. شعره أكثر كثافة، ملابسه أكثر نسيجًا، حذاؤه تجسيد مثالي للأحذية. مجرد النظر إلى الفتى يصيبك بالصداع.

ومع ذلك، أثبتَ مورت حينها أنه إنسان بعد كل شيء، إذ سقطتِ الكأس من بين أصابعه المصابة وارتطمت بالحجارة، فبدأت بقايا

السكامبل في أكل طريقها من خلالها. ثم أشار إلى الجدار البعيد، وفمه يفتح ويغلق دون صوت.

عاد الزبائن إلى محادثاتهم وألعابهم المفضلة، بعد أن شعروا بالاطمئنان بأن الأمور تسير كما ينبغي، فمورت يتصرف بشكل طبيعي تمامًا الآن. شعر صاحب الحانة بالارتياح بعدما تأكد من أن الشراب لم يكن سبب المشكلة، فمدّ يده خلال سطح المنضدة وربّت كتفه بمودة قائلاً: «لا تقلق، يحدث هذا لكثير من الناس، ستشعر بصداع بضعة أسابيع، لا تقلق بشأنه، قطرات من السكامبل ستعيدك إلى حالتك الطبيعية».

في الواقع، فإن أفضل علاج لصداع السكامبل هو تناول القليل منه مرة أخرى، مع أنه يمكن تسميته بشكل أدق «القليل الخطر».

لكنّ مورت استمرّ في الإشارة قائلاً بصوت مرتجف: «ألا ترى؟ إنه يخترق الجدار! إنه يخترق الجدار تمامًا!».

- الكثير من الأشياء تخترق الجدار بعد أول كوب من السكامبل. أشياء خضراء مشعرة، عادة.

- إنه الضباب! ألا تسمع صوت الأزيز الصادر عنه؟

- ضباب يصدر أزيزًا؟

نظر صاحب الحانة إلى الجدار، فوجده خاليًا تمامًا من أي شيء غير مألوف باستثناء بعض خيوط العنكبوت. انزعج صاحب الحانة من الإلحاح في صوت مورت، فالأفضل له هلاوس تلك الوحوش القشرية العادية، فالرجل يعرف موقفه منها.

- إنه قادم خلال الغرفة تمامًا! ألا تشعر به؟

نظر الزبائن إلى بعضهم. جعلهم مورت يشعرون بعدم الارتياح. اعترف واحد أو اثنان منهم لاحقًا بأنهم شعروا بشيء ما، أشبه بوخزة باردة، لكن ربما كان ذلك بسبب عسر الهضم.

تراجع مورت إلى الخلف، ثم أمسك بالمنضدة وارتجف لحظةً.

قال صاحب الحانة: «انظر، المزاح له حدود، لكن...».

- كنت ترتدي قميصًا أخضر قبل قليل!

نظر صاحب الحانة إلى الأسفل، وقال متلعثمًا وبنبرة يشوبها الرعب: «قبل ماذا؟»، ولدهشته، وقبل أن يتمكن من مدّ يده سرًا نحو عصاه، انقضّ مورت عليه خلال المنضدة وأمسك به من مئزره قائلاً: «لديك قميص أخضر، أليس كذلك؟ لقد رأيته، كان به أزرار صفراء صغيرة!».

رد صاحب الحانة: «حسنًا، نعم. لديّ قميصان»، ثم حاول أن يبدو بمظهر أكثر أهمية وأضاف: «أنا رجل ميسور الحال، لم أرتده اليوم فحسب»، ولم يرغب في معرفة كيف علم مورت بشأن الأزرار.

تركه مورت واستدار فجأة قائلاً: «الجميع جالسون في أماكن مختلفة! أين الرجل الجالس بجانب المدفأة؟ لقد تغير كل شيء!».

ركض خارجًا خلال الباب ثم أتت صرخة مكتومة من الخارج. عاد مورت بسرعة بعينين جامحتين، ليواجه الحشد المذعور قائلاً: «مَن غيّر اللافتة؟ شخص ما غيّر اللافتة!».

بلغ صاحب الحانة لعبه بارتباك، ثم قال: «أتقصد بعد وفاة الملك القديم؟».

نظرة مورت أصابته بقشعريرة، إذ كانت عينا الفتى بُحيرتين سوداوين من الرعب.

قال مورت: «أقصد الاسم!».

رد الرجل: «لقد... كان الاسم دائماً كما هو»، ونظر بيأس إلى زبائنه بحثاً عن تأييد: «أليس كذلك يا رفاق؟ حانة رأس الدوق».

فتعالت همهمات موافقة.

نظر مورت إلى الجميع، وهو يرتجف بشكل ملحوظ. ثم استدار وركض خارجاً مرة أخرى.

سمع المستمعون وقع حوافر في الفناء، ثم تضاءلت تدريجياً حتى اختفت تماماً، كأن الحصان قد اختفى من على وجه الأرض.

ساد الصمت داخل الحانة. حاول الرجال تجنب نظرات بعضهم. لم يرغب أحد في أن يكون أول من يعترف برؤية ما ظنوا أنهم رأوه.

لذلك ترك الأمر لصاحب الحانة ليعبر الغرفة بخطوات متعثرة ويمد يده ليلمس سطح الباب الخشبي المألوف والمطمئن. كان صلباً، غير مكسور، كما ينبغي أن يكون عليه الباب في العموم.

لقد رأى الجميع مورت يركض خلاله ثلاث مرات. لم يفتحه فقط.

انطلق بينكي عالياً، مُرتفعاً بشكل شبه عمودي وأقدامه تضرب الهواء فيما تتصاعد أنفاسه خلفه مثل أثر البخار. تشبّث مورت به بكلتا ركبتيه ويديه، وبإرادته أساساً، ووجهه مدفون في عُرف الحصان. لم ينظر إلى الأسفل إلى أن أصبح الهواء المحيط به بارداً ورقيقاً مثل حساء الإصلاحية.

تلاأت من فوقه أضواء المركز بصمت خلال سماء الشتاء. وأسفله...
...طبق مقلوب، يمتد على مسافات طويلة، لونه فضي في ضوء النجوم. أمكنه رؤية الأضواء والسحب تنجرف من خلاله.

لا. راقب بحذر. كانت السحب تنجرف بالتأكيد إلى داخله، إذ توجد سحب بالداخل، لكنَّ السحب الداخلية كانت أرق وأقل كثافة وتتحرك في اتجاه مختلف قليلاً، وفي الحقيقة، لم يكن يبدو أن لها علاقة كبيرة بالسحب الخارجية.

كان هناك شيء آخر... آه نعم، أضواء المركز التي أعطت الليل خارج القبة الشبحية لوناً أخضر خفيفاً، بلا أي إشارة إلى ذلك تحت القبة. كان الأمر مثل النظر إلى قطعة من عالم آخر، متطابقة تقريباً، وُضِعَتْ على القرص. الجو هناك مختلف قليلاً، ولم تظهر الأضواء تلك الليلة.

رفضها القرص، وحاصرها، ودفعها إلى العودة إلى العدم. لم يستطع مورت رؤية أنها تتقلص من موضعه بالأعلى، لكنَّ أمكنه داخل عقله أن يسمع طقطقة الشيء الشبيهة بصوت الجراد، وهو يُطَحَن خلال الأرض، مغيراً الأشياء إلى ما يجب أن تكون عليه. كان الواقع يعالج نفسه.

عَلِمَ مورت، دون حتى أن يفكر في الأمر، مَنْ كان في مركز القبة. كان ذلك واضحاً حتى من هنا أنها مُركَّزة بقوة على ستولات.

حاول ألا يفكر في ما سيحدث عندما تتقلص القبة إلى حجم الغرفة، ثم إلى حجم الشخص، ثم إلى حجم البيضة. أخفق في ذلك.

كان المنطق سيقول لمورت إن هذه القبة هي خلاصه. في يوم أو يومين ستُحَلُّ المشكلة من تلقاء نفسها: ستصبح الكتب في المكتبة صحيحة مرة أخرى؛ سيعود العالم إلى شكله مثل ضمادة مرنة. كان المنطق سيقول له إن التدخل في العملية مرة ثانية سيجعل الأمور أسوأ. كان المنطق سيقول كل ذلك، لو لم يأخذِ المنطق أيضاً تلك الليلة عُطلة.

ينتقل الضوء ببطء شديد على القرص، بسبب تأثير الإعاقة الناتج عن الحقل السحري الضخم، وفي الوقت الحالي وجود تلك المنطقة من الحافة التي تحمل جزيرة كرول تحت مدار الشمس الصغيرة مباشرة، ولذلك كان لا يزال المساء الباكر. كما كان الجو دافئًا جدًا، فالحافة تلتقط مزيدًا من الحرارة وتتمتع بمناخ بحري معتدل.

في الواقع، فإن كرول، مع جزء كبير مما يمكن تسميته خط ساحلها البارز فوق الحافة، جزيرة محظوظة. والسكان الأصليون الوحيدون لكرول الذين لم يُقدِّروا هذا هم أولئك الذين لم ينظروا إلى أين هم ذاهبون أو الذين كانوا يمشون في نومهم، وبسبب الانتقاء الطبيعي، لم يعد هناك الكثير منهم. كل المجتمعات لديها نصيبها ممن يتركون الدراسة، لكن في كرول لم تكن لديهم فرصة للعودة إليها مرة أخرى.

تيربسيك ميمز لم يكن تاركًا للدراسة، بل صياد. وهناك فرق، فالصيد أغلى. لكن تيربسيك كان سعيدًا، إذ يشاهد ريشة على فلينة تتمايل برفق على مياه نهر هاكرول المحاطة بالقصب، وعقله شبه فارغ. الشيء الوحيد القادر على أن يزعج مزاجه في الغالب هو اصطياد سمكة فعلًا، لأن اصطياد الأسماك هو الشيء الوحيد في الصيد الذي يخشاه حقًا. فالأسماك باردة وزلقة ومزعورة وتثير أعصابه، وأعصاب تيربسيك ليست جيدة جدًا.

تيربسيك ميمز أحد أسعد صيادي القرص، ما دام لم يصطد شيئًا، لأن نهر هاكرول كان على بعد خمسة أميال من منزله، ومن ثم على بعد خمسة أميال من السيدة جولاديس ميمز التي استمتع معها بستة أشهر سعيدة من الحياة الزوجية. كان ذلك قبل نحو عشرين عامًا.

لم يعز تيربسيك اهتمامًا كبيرًا عندما اتخذ صياد آخر موقعًا على طول الضفة. طبعًا، قد يعترض بعض الصيادين على هذا النوع من

انتهاك الآداب العامة، لكنّ بالنسبة إلى تيربسيك، فأى شيء يقلل من فرصه في اصطياد أي من تلك الأشياء الملعونة، هو أمر مقبول لديه.

لاحظ بطرف زاوية نظره أن الوافد الجديد يصطاد بالذباب، وهي هواية مثيرة للاهتمام رفضها تيربسيك، لأنها تجعله يقضي وقتًا طويلًا في المنزل لصنع المُعدّات.

لم يرَ صيدًا بالذباب بهذا الشكل من قبل. رأى ذبابًا رطبًا، وذبابًا جافًا، لكنّ هذا الذباب اخترق الماء بصوت منشار مسنن ويجر السمك إلى الخلف.

شاهد تيربسيك ذلك في دهشة مرتعبة، فيما استمر الشخص المُبهم خلف أشجار الصفصاف بالرمي وتكرار الرمي مجددًا. بدأت المياه بالغليان وحاولت جميع أسماك النهر أن تهرب من رعب الذباب الطنان، ويا للأسف، أخذت سمكة كبيرة مجنونة صِنارة تيربسيك بسبب ارتباكها الشديد.

في لحظة ما كان واقفًا على الضفة، وفي اللحظة التالية صار في ظلّمة خضراء، تخرج أنفاسه في فقاعات، لي شاهد حياته تمرّ أمام عينيه. وحتى في لحظة الغرق، خاف من فكرة مشاهدة المدة بين يوم زفافه والوقت الحالي. خطر له أن جولاديس ستصبح أرملّة قريبًا، وهذا ما أدخل السرور إلى قلبه قليلًا. في الواقع، حاول تيربسيك دائمًا أن ينظر إلى الجانب المشرق، وفكّر في أثناء غرقه بامتنان في الطمي، أن حياته قد تتحسن من هذه النقطة فصاعدًا...

ثم أمسكت يد بشعره وسحبته إلى السطح، وهو ما كان فجأة مليئًا بالألم. سبحت بقع زرقاء وسوداء مرعبة أمام عينيه. كانت رثائه تحترقان، وصار حلقة أنبوبًا مليئًا بالعذاب.

شعر ببيدين... يدين باردتين متجمدتين، تشعر كأنها قفاز مملوء بالنرد. شعر بهما تجرانه خلال الماء وتلقيانه على الضفة حيث، بعد محاولات متكررة للغرق، خضع في النهاية للإجبار على العودة إلى ما اعتبرها حياته.

لم يعتد تيربسيك أن يغضب كثيرًا، لأن جولاديس لم تقبل بذلك. لكنه شعر بالخداع. لقد وُلِدَ دون أن يُستشار، وتزوج لأن جولاديس ووالدها رتبًا لذلك، والإنجاز البشري الكبير الوحيد الذي حققه بمفرده، انتزع منه بفضاظة. قبل ثوانٍ قليلة، كان كل شيء بسيطًا. الآن أصبح كل شيء معقدًا مرة أخرى.

ليس أنه كان يريد الموت، طبعًا. فالآلهة صارمة جدًا في موضوع الانتحار. هو فقط لم يرد أن ينقذه أحد.

بعينين غاضبتين خلف قناع من الوحل والأعشاب، حدّق إلى الشخص الغامض فوقه وصاح: «لماذا اضطرت إلى إنقاذي؟».

أصابه الجواب بالقلق. فكّر في الأمر وهو يشق طريقه إلى المنزل. وبقي في ذهنه في أثناء شكوى جولاديس من حالة ملابسه. تردد الجواب في رأسه في أثناء جلوسه وعطسه بالقرب من النار، لأن المرض شيء آخر لا تقبله جولاديس. وفي أثناء استلقائه في الفراش مُرتجفًا، استقرّ الجواب في أحلامه كجبل جليدي. وفي وسط الحمى التي أصابته، تمت: «ماذا قصد ذلك الرجل بـ«لوقت لاحق»؟».

توهّجت المشاعل في مدينة ستولات، وكُفِّت فرق كاملة من الرجال بمهمة تجديدها باستمرار، فأضيئت الشوارع، ودفع اللهب المتصاعد كل الظلال التي استقرت بهدوء كل ليلة عدة قرون. أضاءت المشاعل الزوايا

القديمة حيث تتلأأ أعين الفئران الحائرة في أعماق جحورها، وأجبرت اللصوص على البقاء في منازلهم. توهجت في ضباب الليل، لتتكوّن هالة من الضوء الأصفر الذي حجب اللهب العالي البارد المتدفق من المركز. لكن بشكل رئيسي، ألقت المشاعل ضوءها على وجه الأميرة كيلى المنتشر في كل مكان، ليغطي كل سطح مستوٍ. انطلق بينكي على طول الشوارع المتوهجة بين صور الأميرة كيلى على الأبواب والجدران ونهايات الأسطح. حدّق مورت إلى ملصقات حبيبته الموجودة على كل سطح تمكّن العمال من إلصاقها عليه.

الأغرب من ذلك، لم يبدو أن أحدًا أولاهم الكثير من الاهتمام. في حين لم تكن الحياة الليلية في ستو لات ملونة وملأى بالأحداث مثل تلك في عنخ-موربورك، بالطريقة نفسها التي لا يمكن لسلة المهملات أن تتنافس مع مكب النفايات البلدي، اكتظت الشوارع بالناس وصدحت بصيحات الباعة المتجولين، المقامرین، بائعي الحلويات، رجال لعبة الورقات الثلاث، بائعات الهوى، النشالين، والتاجر النزيه المعتاد الذي تاه بالخطأ ولا يمكنه الآن جمع ما يكفي من المال للعودة إلى وطنه. وفي أثناء تحرّك مورت بحصانه بين هؤلاء، تطايرت مقتطفات من المحادثات بلغات متعددة إلى أذنيه، وبقبول مشوّش، أدرك أنه قادر على فهم كل واحدة منها.

نزل مورت في النهاية عن صهوة الحصان، وقاده على طول السوق، ليبحث عبثًا عن منزل كاتويل. ووجده فقط لأن كتلة ما وراء أقرب ملصق أصدرت أصوات سُبَاب مكتومة، فمدّ يده بحذر واقتطع شريطًا من الملصق.

أجابه مقبض الباب على شكل الكرغل: «شكرًا جزيلاً. لن تصدق ذلك، أليس كذلك؟ في دقيقة تحيا حياة طبيعية، وفي الدقيقة التالية يمتلئ فمك بالغراء».

- أين كاتويل؟

قال مقبض الباب: «ذهب إلى القصر»، ثم نظر إليه وغمز بعين من الحديد الزهر وأكمل: «جاء بعض الرجال وأخذوا كل أشياءه. ثم بدأ بعض الرجال الآخرين في لصق صور صديقه في كل مكان. أوغاد». احمرَّ وجه مورت قائلاً: «صديقه؟».

ضحك مقبض الباب الشيطاني من نبرة صوته، فبدت الضحكة كخدش الأظفار على ملف، ثم قال: «أجل. لاحظت أنهم بدؤوا في عجلة من أمرهم».

امتطى مورت ظهر بينكي على الفور، فناداه مقبض الباب: «مهلاً! يمكنك أن تفكني يا فتى؟».

شدَّ مورت لجام بينكي بقوة حتى إن الحصان قفز ورقص بجنون على الحجارة، ثم مدَّ يده وأمسك حلقة مقبض الباب. نظر الكرغل إلى وجهه وفجأة شعر بأنه مقبض باب مرعوب جدًّا. توهجت عينا مورت كالботقة، وبدا وجهه كالفرن، وصوته يحمل حرارة كافية لإذابة الحديد. لم يعرف الكرغل ما الذي يمكن لمورت أن يفعله، لكنه شعر أنه يُفضّل عدم معرفة ذلك.

همس مورت: «ماذا دعوتني؟».

فكَّر مقبض الباب بسرعة وقال: «سيدي؟».

- ماذا طلبتَ مني أن أفعل؟

- أن تفكني؟

- لا أنوي ذلك.

قال مقبض الباب: «حسنًا. حسنًا. هذا لا بأس به بالنسبة إليّ. سأظل ملتصقًا إذن».

راقب مقبض الباب مورت وهو يبتعد بسرعة على طول الشارع فارتجف بارتياح، وهو يدقُّ نفسه بلطف تنفيثًا لقلقه.

قالت إحدى المفصلات: «يا له من نصر لم يكتمل».

- اصمت!

مرَّ مورت بحراس الليل الذين صارت مهمتهم الآن تقتصر على قرع الأجراس والصياح باسم الأميرة، بشكل غير مؤكد قليلًا، كأنَّهم يجدون صعوبة في تذكره. تجاهلهم مورت، لأنه استمع لأصوات داخل رأسه تقول: «لقد قابلتك مرة واحدة فقط، أيها الأحمق. لماذا قد تهتم بك؟».

- نعم، لكنني أنقذت حياتها.

- هذا يعني أن حياتها تنتمي إليها. ليست إليك. بالإضافة إلى ذلك، إنه ساحر.

- وما المشكلة؟ ليس من المفترض أن يخرج السحرة مع الفتيات، إنهم يحتفلون...

- يحتفلون؟

- ليس من المفترض أن... تعرف...

أجابه الصوت الداخلي كأنه يبتسم: «ماذا، ليس من المفترض بهم فعل ذلك إطلاقًا؟».

فكر مورت بمرارذ: «من المفترض أن يكون ذلك سيئًا للسحر».

- إنه مكان غريب للاحتفاظ بالسحر.

صُدِمَ مورت، فسأله: «من أنت؟».

- أنا أنت يا مورت. ذاتك الداخلية.

- إذن، أتمنى أن تخرج من رأسي، إنه مزدحم بما يكفي بوجودي هنا.

- حسنًا، كنت أحاول المساعدة فقط. لكن تذكّر، إذا احتجت إلى نفسك يومًا، فأنت دائمًا موجود.

ثم تلاشى الصوت.

فكّر مورت بمرارة: «حسنًا، لا بدّ أن ذلك كان أنا. أنا الوحيد الذي يناديني مورت».

صدمة الإدراك غطت تمامًا حقيقة أنه، في أثناء انشغال مورت في حديث النفس، قد عَبَرَ بوابات القصر. طبعًا، يمرُّ الناس خلال بوابات القصر كل يوم، لكن يحتاج معظمهم إلى فتح الأبواب أولًا.

تجمّد الحراس في الجهة الأخرى من الخوف، إذ اعتقدوا أنهم رأوا شبحًا. كانوا سيصابون بمزيد من الرعب إذا عرفوا أن ما رأوه لم يكن شبحًا تقريبًا.

الحارس الواقف خارج أبواب القاعة الكبرى رأى ما حدث أيضًا، لكنه امتلك الوقت الكافي لجمع شتات عقله، أو ما تبقى منه، ورفع رمح في أثناء قدوم بينكي خلال الفناء، فقال بصوت مبحوح:

«توقف. توقف. مَنْ، ذاهب إلى أين؟».

رأى مورت الحارس لأول مرة، فقال وهو ما زال غارقًا في أفكاره: «ماذا؟».

لعق الحارس شفتيه الجافتين وتراجع، وانزلق مورت عن ظهر بينكي وسار إلى الأمام.

فقال الحارس مُجددًا بمزيج من الإصرار والغباوة الانتحارية التي ميزته للترقية المبكرة: «أعني، من هناك؟».

أمسك مورت الرمح بلطف ورفع به بعيدًا عن الطريق المؤدي إلى الباب. وبينما كان يفعل ذلك، أضاء ضوء المشاعل وجهه، فقال بهدوء: «مورت».

كان يجب أن يكون ذلك كافيًا لأي جندي عادي، لكن هذا الحارس كان صالحًا لأن يصبح شرطياً، فقال متلعثمًا في محاولة لتجنب نظرة مورت: «أعني، صديق أم عدو؟».

ابتسم مورت وقال: «ما الذي تفضله؟»، لم تشبه ابتسامة سيده تمامًا، لكنها كانت ابتسامة فعّالة جدًا ولم تحمل أي أثر للفكاهة فيها.

ارتخى الحارس من الارتياح وابتعد جانبًا قائلاً: «تفضل يا صديقي».

تقدّم مورت خلال القاعة نحو الدَّرَج المؤدي إلى الغرف الملكية. تغيّرت القاعة كثيرًا منذ آخر مرة رآها فيها. صور كيلى ني كل مكان؛ حتى إنها حلّت محل اللافتات الحربية القديمة والمتهالكة في الأعالي المظلمة في السقف. أي شخص سيسير خلال القصر، سيجد من المستحيل أن يمضي أكثر من بضع خطوات دون رؤية صورة لها. تساءل جزء من عقل مورت عن سبب ذلك، فيما قَلَقَ جزء آخر بشأن القبة الواضحة التي تنغلق ببطء على المدينة، وتشوش معظم ما تبقى من عقله بالحرارة والغضب والارتباك والغيرة، ففكّر في داخله: «يزابيل مُحِقَّة، لا بدّ أن هذا هو الحب».

- أيها الفتى السائر خلال الجدران!

انتفض برأسه إلى أعلى، ليرى كاتويل واقفًا في أعلى الدرج.

فكّر مورت بمرارة أن الساحر قد تغيّر كثيرًا. ربما ليس بهذا القدر. رغم أنه ارتدى رداءً أسود وأبيض مطرزًا بالترتر، وقبعته الحادة بطول ياردة ومزينة برموز سحرية أكثر من خريطة أسنان، وأحذيته المخملية الحمراء بها أبازيم فضية وأطراف ملتوية مثل الحلزونات، إلا أن هناك بعض البقع على ياقته، وبدا كأنه يمزغ شيئًا.

راقب كاتويل مورت وهو يصعد الدرج نحوه، فقال: «هل أنت غاضب من شيء ما؟ بدأتُ العمل، لكنني شُغِلْتُ بأشياء أخرى. من الصعب جدًّا، المشي خلال... لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟».

- ماذا تفعل هنا؟

- قد أسألك السؤال نفسه. هل تريد حبة فراولة؟

نظر مورت إلى السلة الخشبية الصغيرة في يد الساحر، وقال: «فراولة في منتصف الشتاء؟».

- في الحقيقة، إنها براعم نباتية مع لمسة من السحر.

- هل طعمها مثل الفراولة؟

تنهّد كاتويل وقال: «لا، طعمها مثل البراعم. السحر ليس فعالًا تمامًا. ظننتُ أنها قد تُبهج الأميرة، لكنها رمتها عليّ. من المؤسف أن تُضَيّع هدرًا. تفضّل».

حدّق مورت إليه مدهوشًا، وقال: «رمتها عليك؟».

- بدقة شديدة. إنها شابة قوية العزيمة.

قال الصوت في مؤخرة عقل مورت: «مرحبًا، إنه أنت مرة أخرى، أشير إلى نفسك إلى أن فرص الأميرة في مجرد التفكير في أنك تعرف هذا الرجل بعيدة جدًّا».

قال مورت في ذهنه: «ابتعد». أصابه عقله الباطن بالقلق. بدا أنه لديه اتصال مباشر بأجزاء من جسده التي يريد تجاهلها في الوقت الحالي. قال بصوت عالٍ: «لماذا أنت هنا؟ هل لك علاقة بكل هذه الصور؟». ابتسم كاتويل قائلاً: «فكرة جيدة، أليس كذلك؟ أنا فخور بها نوعاً ما».

قال مورت بضعف: «عذراً، لقد كان يوماً مزدحماً. أعتقد أنني أودُّ الجلوس في مكان ما».

قال كاتويل: «هناك غرفة العرش، لا يوجد أحد هناك في هذا الوقت من الليل. الجميع نائمون».

أوماً مورت ثم نظر بشك إلى الساحر الشاب وقال: «لماذا أنت مستيقظ، إذن؟».

قال كاتويل: «ممم، ممم، فكرتُ فقط أن أرى أكان هناك شيء في المخزن». ثم هزَّ كتفيه⁽¹⁾.

حان الوقت للإشارة إلى أن كاتويل لاحظ أيضاً أن مورت، حتى وهو متعب من الركوب وقلة النوم، يضيء بطريقة ما من الداخل وبطريقة غريبة غير متصلة بالحجم، لكنه مع ذلك أكبر من الحياة. الفرق هو أن

(1) كان هناك نصف جرة من المايونيز القديم، قطعة من الجبن القديم جداً، وطماطم نما عليها عفن أبيض. لأن مخزن قصر ستولات يحتوي عادةً خلال النهار على خمسة عشر غزلاً كاملاً، مئة زوج من طائر الحجل، خمسين برميلاً من الزبدة، مائتي إبريق من الأرناب المخلية، خمس وسبعين جانباً من لحم البقر، ميلين من النقانق المتنوعة، طيور مختلفة، ثمانين دزينة من البيض، أسماك حفش عدّة من البحر الدائري، وعاء من الكافيار وساق فيل محشوة بالزيتون، عِلِم كاتويل مرة أخرى أن هناك تجسّداً عالمياً للسحر الخام والطبيعي في جميع أنحاء الكون وهو: أن أي مخزن طعام منزلي، يُدهم بسرية في منتصف الليل، يحتوي دائماً، بصرف النظر عن جرده اليومي، على نصف جرة من المايونيز القديم، قطعة من الجبن القديم جداً، وطماطم نما عليها عفن أبيض. (المؤلف)

كاتويل، بحكم تدريبه، أفضل في التخمين من الآخرين ويعلم أن في الأمور الغامضة الجواب الواضح عادةً ما يكون هو الجواب الخطأ.

مورت يمكنه أن يتحرك دون أن يُلاحظ من خلال الجدران ويشرب المشروب القاتل بوعي ليس لأنه يتحول إلى شبح، لكن لأنه يصبح حقيقياً بشكل خطر.

في الواقع، عندما تعثر الصبي في أثناء مشيهما في الممرات الصامتة ومرّاً خلال عمود رخامي دون أن يلاحظ، من الواضح أن العالم يتحول إلى مكانٍ غير محسوس إلى حد كبير من وجهة نظره.

قال كاتويل ملاحظاً: «لقد مررتَ للتو خلال عمود رخامي، كيف فعلت ذلك؟».

قال مورت: «هل فعلتُ؟». ثم نظر حوله، بدا العمود سليماً بما فيه الكفاية. ضرب ذراعه في العمود فأصاب كوعه قليلاً.

قال كاتويل: «يمكنني القسم إنك فعلتَ ذلك. فكما تعلم، يلاحظ السحرة هذه الأشياء». وأخرج شيئاً من جيب رداءه.

قال مورت: «إذن هل لاحظت القبة الضبابية حول البلاد؟».

أصدر كاتويل صرخةً صغيرةً، ثم سقطتِ الجرة من يده وتحطمت على البلاط، ففاحت رائحة تتبيلة سلطة مُتعفنة قليلاً.

- ماذا، فعلاً؟

قال مورت: «لا أعرف ما تعنيه (فعلاً). لكن هناك نوع من الجدار المتلائي المتحرك فوق الأرض ولا يبدو أن أحداً يهتم به و...».

- كم كانت سرعة تحرُّكه؟

- ...إنه يغير الأشياء!

- هل رأيته؟ كم يبعد؟ كم سرعته؟

- طبعًا رأيته. مررتُ خلاله مرتين. كان مثل الـ...

- لكنك لستَ ساحرًا، فلماذا...

- ماذا تفعل هنا، على أي حال...

أخذ كاتويل نفسًا عميقًا وصاح: «فليصمتِ الجميع!».

سادتُ لحظة من الصمت. ثم أمسك الساحر بذراع مورت وسحبه إلى الوراء خلال الممر قائلاً: «هيا. لا أعرف من أنت بالضبط وأتمنى أن أمتلك الوقت لمعرفة ذلك يومًا ما، لكن هناك شيء فظيع سيحدث قريبًا وأعتقد أنك متورط، بطريقة ما».

- شيء فظيع؟ متى؟

قال كاتويل وهو يجر مورت إلى ممر جانبي: «يعتمد ذلك على مدى بُعد الواجهة ومدى سرعتها». عندما وصلا إلى باب خشبي صغير، ترك كاتويل ذراع مورت وعبث بجيبه مرة أخرى، ليخرج قطعة صغيرة من الجبن الصلب وطماطمَ لزجةً غير مرغوب فيها.

قال كاتويل: «احملْ هذه، من فضلك؟ شكرًا»، ثم أخرج مفتاحًا وفتح الباب.

قال مورت: «سيقتل الأميرة، أليس كذلك؟».

«قال كاتويل: «أجل، لا». ثم توقف واضعًا يده على مقبض الباب. كان ذلك أمرًا ثاقبَ الفكر للغاية منك. كيف عرفت؟».

قال مورت بتردد: «أنا...».

قال كاتويل: «لقد أخبرتني الفتاة قصة غريبة جدًّا».

قال مورت: «أتوقع أنها فعلت. إذا كانت غير قابلة للتصديق، فهي على الأرجح صحيحة».

- أنت هو، أليس كذلك؟ مساعد الموت؟

- نعم. لكنني في إجازة الآن.

- يسعدني سماع ذلك.

أغلق كاتويل الباب خلفهما وبحث عن شمعدان. ثم أتت فرقة، وومضة من الضوء الأزرق يليها صوت أنين، فقال كاتويل وهو يمتص أصابعه: «آسف. تعويذة النار. لم أتعلمها تمامًا بعد».

قال مورت بقلق: «لقد توقعت هذه القبة، أليس كذلك؟ ماذا سيحدث عندما تنغلق؟».

جلس الساحر بثقل على بقايا شطيرة لحم الخنزير المقدد، ثم قال: «لست متأكدًا تمامًا. سيكون من المثير أن نشاهد. لكن ليس من الداخل، يا للأسف. ما أعتقد أنه سيحدث هو أن الأسبوع الأخير لن يكون قد حدث».

- سوف تموت فجأة؟

قال كاتويل: «لم تفهمني تمامًا. ستكون قد ماتت منذ أسبوع. كل هذا...»، ولوح بيديه في الهواء بشكل غير محدد، «لن يكون قد حدث. لقد أنجز القاتل عمله. وكذلك أنت أنجزت عملك. سيعالج التاريخ نفسه. ويصبح كل شيء على ما يرام. من وجهة نظر التاريخ، على الأقل. لا يوجد أي وجهات نظر أخرى».

حدّق مورت من خلال النافذة الضيقة. أمكنه أن يرى خلال الفناء وصولاً إلى الشوارع المتوهجة في الخارج، حيث ابتسمت صورة الأميرة نحو السماء.

قال مورت: «حدّثني عن الصور. يبدو أن فيها شيئاً سحرياً».

- لست متأكدًا أكانت تعمل. ترى، بدأ الناس يشعرون بالقلق ولم يعرفوا السبب، وهو ما زاد الأمر سوءًا. فعقولهم في واقع

وأجسادهم في واقع آخر. أمر مزعج للغاية. لم يستطيعوا تعود فكرة أنها لا تزال حية. فظننتُ أن الصور فكرة جيدة، لكن كما تعرف، فالناس لا يرون ما يقوله لهم عقلهم بأنه غير موجود.

قال مورت بمرارة: «كان بإمكانني أن أخبرك بذلك».

تابع كاتويل: «لقد أخرجتُ مُنادي المدينة خلال النهار. ظننتُ أنه إذا استطاع الناس أن يعتقدوا وجودها، فستصبح هذه الحقيقة الجديدة هي الحقيقة الفعلية».

قال مورت: «ماذا؟»، ثم استدار بعيدًا عن النافذة وأكمل: «ماذا تقصد؟».

- حسنًا، حسبْتُ أنه إذا آمن عدد كافٍ من الناس بوجودها، فربما بإمكانهم أن يغيّروا الواقع. هذا يعمل مع الآلهة. إذا توقف الناس عن الإيمان بآله، فإنه يموت. إذا آمن به الكثير منهم، يصبح أقوى.

- لم أكن أعلم ذلك. كنت أعتقد أن الآلهة مجرد آلهة.

قال كاتويل وهو ينقل الكتب والمخطوطات من فوق منضدته: «إنهم لا يحبون الحديث عن ذلك».

قال مورت: «حسنًا، قد يصلح هذا مع الآلهة، لأنهم مميزون.. أما الناس فأكثر ثباتًا. لن يصلح هذا مع الناس».

- هذا ليس صحيحًا. دعنا نفترض أنك خرجت من هنا وتسللت حول القصر. سيراك أحد الحراس على الأرجح وسيظن أنك لص وسيوجّه قوسه نحوه. أعني، في واقعه ستكون لصًا. لن يكون ذلك صحيحًا فعليًا لكنك ستصبح ميتًا تمامًا كأنك لص. الإيمان قوة كبيرة. أنا ساحر. نحن نعرف عن هذه الأشياء. انظر هنا.

سحب كاتويل كتابًا من الكومة أمامه وفتح على قطعة لحم الخنزير المقدد التي استخدمها كعلامة لتحديد الصفحات. نظر مورت فوق كتفه، وعقد حاجبيه فور رؤيته الكتابة السحرية الملتوية، إذ تحرّكت على الصفحة، في أشكال ملتوية ومعوّجة في محاولة ألا تُقرأ من قبل غير السحرة، فأعطت تأثيرًا عامًّا غير مريح.

- ما هذا؟

- إنه كتاب سحر ألبرتو ماليش العرّاف. نوع من كتب النظريات السحرية. ليس من الجيد أن تنظر إلى الكلمات بإمعان، فهي لا تحب ذلك. انظر، يقول هنا...

تحرّكت شفّاته بصمت. ظهرت قطرات عرق صغيرة على جبهته وقررت أن تجتمع وتسير إلى أسفل لترى ما يفعله أنفه، وبدأت عيناه تدمعان.

بعض الناس يحبون الاسترخاء بقراءة كتاب جيد. لا أحد عاقل يرغب في الاسترخاء مع كتاب سحر، لأن حتى الكلمات الفردية بداخله لها حياتها الانتقامية الخاصة، وقراءتها، باختصار، هي نوع من المصارعة العقلية. أكثر من مرة حاول فيها ساحر شاب أن يقرأ كتابَ تعاويذ أقوى منه، والأشخاص الذين سمعوا صراخه لم يجدوا سوى حذائه الحاد يفوح منه الدخان، وكتاب ربما أصبح أكثر سُمكًا قليلًا. يمكن أن تحدث أشياء لمتصفح المكتبات السحرية تجعل تمزيق وجهك من وحوش ذات ممصات من أبعاد الزنزانة يبدو كأنه تدليك خفيف إذا قورن به.

من حسن الحظ، كان لدى كاتويل نسخة مختصرة، أغلق فيها بعض الصفحات الأكثر إزعاجًا (مع أنّه في الليالي الهادئة أمكنه سماع الكلمات المسجونة تخربش بغضب داخل سجنها، كعنكبوت محبوس

في علبة كبريت؛ أي شخص جلس بجانب شخص يرتدي جهاز الكاسيت الشخصي «ووكمان» يمكنه تخيل بالضبط ذلك الصوت).

قال كاتويل: «هذا هو الجزء. يقول هنا إن حتى الآلهة...».

- لقد رأيته من قبل!

- ماذا؟

أشار مورت بإصبع مرتعشة إلى الكتاب وقال: «هو!».

رمقه كاتويل بنظرة غريبة ثم فحص الصفحة اليسرى، وفيها صورة لساحر مُسنٍّ يحمل كتاباً وشمعداناً بهيئة من يمتلك كرامة سنوات عمره الأخيرة.

قال بنفاد صبر: «هذا ليس جزءاً من السحر. إنه المؤلف فحسب».

- ما المكتوب تحت الصورة؟

- ممم. يقول «إذا استمتعت بهذا الكتاب، فقد تهّمك عناوين أخرى من...»

- لا، أعني ما تحت الصورة مباشرة!

قال كاتويل: «هذا سهل. إنه ماليش القديم نفسه. كل ساحر يعرفه. أعني، هو الذي أسس الجامعة الخفية»، ثم ضحك وقال: «هناك تمثال مشهور له في القاعة الرئيسية، ومرة خلال أسبوع الأزياء تسلقته ووضعتُ عليه...».

حدّق مورت إلى الصورة، ثم قال بهدوء: «أخبرني. هل كان للتمثال نتوء على طرف أنفه؟».

أجابه كاتويل: «لا أعتقد ذلك. كان من الرخام. لكن لا أعرف لماذا أنت مستاء جداً. الكثير من الناس يعرفون كيف كان شكله. إنه مشهور».

- لقد عاش منذ زمن بعيد، أليس كذلك؟

- أعتقد منذ ألفي سنة. انظر، لا أعرف لماذا...

- أراهن أنه لم يمت. أراهن أنه اختفى فحسب يومًا ما. أليس كذلك؟ صمت كاتويل لحظةً، ثم قال ببطء: «غريب أنك تقول ذلك، فهناك أسطورة سمعتها، وكما يقولون، لقد فعل بعض الأشياء الغريبة. يقولون إنه فجّر نفسه في أبعاد الزنزانة في أثناء محاولته أداء طقوس (أشكينت) بالعكس. كل ما وجدوه هو قبعته. أمر مأساوي، حقًا. أعلنت المدينة كلها حالة الحداد ليوم كامل لمجرد قبعة. لم تكن حتى قبعة جذابة؛ كانت بها علامات احتراق».

قال مورت لنفسه: «ألبرتو ماليش، حسنًا. تخيل ذلك»، ثم نقر بأصابعه المنضدة، رغم أن الصوت كان مكتومًا فجأة. قال كاتويل: «آسف، لا أستطيع التعامل مع شطائر العسل الأسود أيضًا».

قال مورت، وهو يلحق أصابعه بلا وعي: «أعتقد أن الحاجز يتحرك بسرعة المشي البطيء. ألا يمكنك إيقافه بالسحر؟». هز كاتويل رأسه، وقال بمرح: «ليس أنا. سيسحقني».

- ماذا سيحدث لك عندما يصل؟
- آه، سأعود إلى العيش في شارع السوق. أعني، أنني لم أغادر قط. كل هذا لن يكون قد حدث. يا للأسف، فالطهو هنا جيد، ويغسلون ملابسنا مجانًا. كم يبعد كما قلت؟». - نحو عشرين ميلًا، أعتقد.

رفع كاتويل عينيه نحو السماء وحرك شفتيه، ثم قال أخيرًا: «هذا يعني أنه سيصل منتصف الليل غدًا تقريبًا، في الوقت المناسب للتوزيع». - تتويج من؟

- تتويجها.

- لكنها ملكة فعلاً، أليس كذلك؟

قال كاتويل: «بطريقة ما، لكنها لن تصبح ملكة رسمياً إلى أن تتوج»، ثم ابتسم فيما ارتسمت الظلال على وجهه في ضوء الشموع، وأضاف: «إذا أردتَ طريقة للتفكير في الأمر، فهو مثل الفرق بين التوقف عن العيش والموت».

قبل عشرين دقيقة، كان مورت يشعر بالتعب لدرجة أنه من الممكن أن يأخذ قسطاً من الراحة. أما الآن فيشعر بفوران في دمه. يشعر بنوع من الطاقة المُرهِقة في وقت متأخر من الليل التي تعرف أنك ستدفع ثمنها منتصف اليوم التالي تقريباً، لكن في الوقت الحالي شعر أن عليه فعل شيء ما وإلا سستمزق عضلاته من فرط الحيوية.

قال مورت: «أريد أن أراما. ما دمتَ لا تستطيع فعل أي شيء، فربما هناك شيء يمكنني فعله».

قال كاتويل: «هناك حراس خارج غرفتها. أذكر هذا فقط كملاحظة. لا أتصور لحظة أنهم سيحدثون أي فارق».

إنه منتصف الليل في عنخ-موربورك، لكن في المدينة التوأم الكبرى، الفرق الوحيد بين الليل والنهار هو، حسناً، أنه أكثر ظلمة، فالأسواق مُكْتَظَّة، والزبائن ما زالوا مجتمعين بكثافة حول بيوت البغايا، فيما انجرف المهزومون في حروب العصابات الأبدية والمُعَقَّدة في المدينة بصمت في مياه النهر الباردة مع أثقال من الرصاص مربوطة بأقدامهم، ومارس التجار تجارتهم الجانبية في مختلف وسائل الترفيه غير القانونية وحتى غير المنطقية، واللصوص يسرقون، والسكاكين تلمع

في الأزقة تحت ضوء النجوم، والمنجمون يبدأون عمل يومهم، وفي حي «الظلال»، هناك حارس ليلي فقد طريقه دق جرسه وصرخ: «الساعة الثانية عشرة وكل شيء على ما يرام... آآه...».

ومع ذلك، لن تكون غرفة التجارة في عنخ-موربورك سعيدة بالإشارة إلى أن الفرق الحقيقي الوحيد بين مدينتهم ومستنقع تماسيح هو عدد أرجل التماسيح، وفي المناطق الأكثر انتقائية من عنخ التي تميل إلى أن تكون في المناطق الجبلية حيث هناك فرصة لهبوب النسيم، تكون الليالي لطيفة ومعترةً بزهور الهبسينيا والسيسيليا.

في هذه الليلة بالتحديد تعطرت المدينة أيضًا بالملح الصخري، لأنها الذكرى العاشرة لتولي الحاكم منصبه⁽¹⁾ وقد دعا خمسمئة صديق لتناول المشروبات، وأطلق الألعاب النارية. ملأت الضحكات والهمسات العاطفية حدائق القصر، ووصلت الأمسية إلى تلك المرحلة المثيرة حيث شرب الجميع أكثر من اللازم لكن ليس بما يكفي لفقدان وعيهم. إنها الحالة التي يفعل فيها المرء أشياء سيذكرها بخجل شديد في حياته اللاحقة، مثل النفخ في صفارة ورقية والضحك بشدة لدرجة الإصابة بالغثيان.

في الواقع، كان نحو مائتين من ضيوف الحاكم يترنحون الآن ويرقصون رقصة الثعبان، وهي طريقة موربوركية فلكلورية تتكون من شرب الخمر حتى الثمالة، والإمساك بخصر الشخص الذي أمامك، ثم التأرجح والضحك بصخب في خط طويل يشبه التمساح يتجول في أكبر عدد ممكن من الغرف، ويُفضّل أن تمتلئ تلك الغرف بالأشياء القابلة

(1) لقد تلاعبت عنخ-موربورك بالعديد من أشكال الحكومة وانتهت بذلك الشكل من الديمقراطية المعروف بـ «رجل واحد، صوت واحد». الحاكم كان الرجل، والوحيد من له حق التصويت. (المؤلف)

للكسر، مع الركل بساق واحدة بشكل غير منتظم تزامناً مع الإيقاع، أو على الأقل مع إيقاع آخر. استمرت هذه الرقصة نصف ساعة وجابت كل غرفة في القصر، لتجمع في طريقها اثنين من كائنات الترول، والطباخ، والجلاد الرئيسي للحاكم، وثلاثة نادلين، ولصاً كان يمر مصادفةً وتنين مستنقع أليف صغير.

في مكان ما في منتصف الرقصة كان هناك اللورد رودلي البدين من كورم، وارث أراضي كورم الفخمة الذي كان مشغولاً حالياً بالأصابع الرفيعة الممسكة بخصره، ليحاول عقله باستمرار أن يجذب انتباهه تحت تأثير الكحول، فصاح بمن خلفه فيما كانوا يتأرجحون للمرة العاشرة المضحكة خلال المطبخ الضخم: «ليس بهذه القوة من فضلك». قال الموت: «أنا آسف للغاية».

قال اللورد رودلي، وهو يركل بقوة مع الإيقاع الخلفي: «لا مشكلة يا صديقي. هل أعرفك؟».

أجابه الموت: «لا أعتقد ذلك. أخبرني من فضلك، ما معنى هذا النشاط؟».

صرخ اللورد رودلي، فوق صوت شخص يركل باب خزانة زجاجية وسط صرخات من البهجة: «ماذا؟».

قال الموت بصبر جليدي: «ما هذا الشيء الذي نفعله؟».

- ألم تذهب إلى حفلة من قبل؟ انتبه للزجاج، بالمناسبة.

- أنا آسف لأنني لا أخرج بقدر ما أودُّ. أرجو أن تشرح لي هذا. هل

له علاقة بالجنس؟

قال اللورد ودفع الموت بمرفقه: «ليس إلا إذا توقفنا فجأة يا صديقي، إذا كنت تعرف ما أعنيه؟». ثم قال: «آه»، إذ دوي تحطم في المقدمة أشار إلى نهاية البوفيه البارد.

- لا.

- ماذا؟

- لا أفهم ما تعنيه.

- احذر من الكريمة هناك، إنها زلقة... انظر، إنها مجرد رقصة، حسنًا؟ ترقصها من أجل المتعة.

- المتعة.

- هذا صحيح. دادا، دادا، دا - ركلة!، ثم توقف بصوت مسموع.

- من هي هذه «المتعة»؟

- لا، المتعة ليست شخصًا، المتعة هي ما تحصل عليه.

- نحن نحصل على المتعة؟

قال اللورد بتردد: «أظن ذلك». أثار الصوت بجانبه قلقه بشكل غامض؛ بدا كأنه يصل مباشرة إلى عقله.

- ما هذه المتعة؟

- هذه هي!

- الركل بقوة هو المتعة؟

- حسنًا، جزء من المتعة. اركل!

- الاستماع للموسيقى الصاخبة في الغرف الحارة هو المتعة؟

- ربما.

- كيف تتجلى هذه المتعة؟

- حسنًا، إما أنك تستمتع وإما لا، ليس عليك أن تسألني، تعرف الأمر فحسب، حسنًا؟ كيف دخلت هنا، على أي حال؟ هل أنت صديق للحاكم؟

- دعنا نقول إنه يوجه عمله بطريقتي. شعرت أنه ينبغي لي أن أتعلم شيئًا عن لذات البشر.

- يبدو أن لديك طريقًا طويلًا لتقطعه.

- أعلم ذلك. أرجو أن تعذرني على جهلي المؤسف. أريد فقط أن أتعلم. هؤلاء الناس، من فضلك... هل يستمتعون؟
- أجل!

- إذن هذه هي المتعة.

قال اللورد رودلي بغضب، وقد شعر أنه غير مضحك وغير مرتاح بشكل مزعج وفاق من السكر: «يسعدني أننا فهمنا ذلك. احذر الكرسي!». فقال الموت خلفه بهدوء: «هذه هي المتعة. الشرب بإفراط هو المتعة. نحن نستمتع. هو يستمتع. هذه بعض المتعة. يا لها من متعة». خلف الموت، كان التنين الصغير الأليف من مستنقع الحاكم متمسكًا بشدة بأوراق الموت العظمية ويفكر أنه، سواء كان هناك حراس أم لا، في المرة القادمة التي يمر فيها بنافذة مفتوحة سيهرب على الفور.

جلسَت كيلي منتصبَةً في السرير، وقالت: «لا تتحرك خطوةً أخرى. يا حراس!».

قال الحارس الأول، مدخلًا وجهه بخجل حول إطار الباب: «لم نستطع إيقافه».

قال الحارس الآخر من خلف الباب: «لقد دفع نفسه إلى الداخل...». وقال الساحر إنه لا بأس بذلك، وقيل لنا إن الجميع يجب أن يستمعوا له لأن...

قالت كيلى بارتباك: «حسنًا، حسنًا. الناس قد يُقتلون هنا»، ووضعت القوس والنشّاب على المنضدة بجانب السرير دون تفعيل زر الأمان، لسوء الحظ.

أتى صوت نقرة، وصوت ارتطام الأوتار بالمعدن، وزفير هواء، وآهة. جاءت الآهة من كاتويل، فدار مورت نحوه بسرعة قائلاً: «هل أنت بخير؟ هل أصابتك؟».

قال الساحر بضعف: «لا، لا، لم أُصّب. كيف تشعر؟».

- أشعر ببعض التعب. لماذا؟

- أوه، لا شيء. لا شيء. لا تيارات هواء في أي مكان؟ لا شعور بالتسرب الطفيف.

- لا. لماذا؟

قال كاتويل: «أوه، لا شيء، لا شيء»، ثم استدار ونظر من كُتب إلى الجدار خلف مورت.

قالت كيلى بمرارة: «ألا يسمح للموتى بأي سلام؟ ظننتُ أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تضمنه عندما تكون ميتاً هو نوم جيد في الليل». بدت كأنها تبكي. وبفطنة فاجأته، أدرك مورت أنها تعرف ذلك وهو ما جعلها أكثر غضباً من ذي قبل.

قال مورت: «هذا ليس عدلاً فعلاً. لقد جئْتُ للمساعدة. أليس كذلك يا كاتويل؟».

قال كاتويل: «همم؟». وقد وجد السهم مغروسًا في الجص فنظر إليه بريبة عميقة، ثم أكمل: «أوه، نعم. هو كذلك. لكنها لن تنجح. عذرًا، هل لدى أي أحد خيط؟».

قالت كيلى بحدة: «مساعدة؟ مساعدة؟ لولاك لكنتُ...».

قال مورت: «لكنتِ ما زلتِ ميتة»، فنظرت إليه بفم مفتوح.

قالت: «لكنتي لم أكنُ لأعرف ذلك. هذا هو الجزء الأسوأ».

قال كاتويل للحارسين اللذين حاولا أن يبدوا غير واضحين: «أعتقد أنه من الأفضل لكما أن تذهبا، لكنُ سأخذ ذلك الرمح، من فضلكما. شكرًا».

قال مورت: «انظري. لديّ حصان في الخارج. ستدهشين. يمكنني أن آخذكِ إلى أي مكان. لا تحتاجين إلى الانتظار هنا».

قالت كيلى: «يبدو أنك لا تعرف الكثير عن الملكية، أليس كذلك؟».

- ممم. لا؟

قال كاتويل: «إنها تقصد أنه من الأفضل أن تكون ملكة ميتة في قلعتها الخاصة بدلًا من كونها حيةً من العوام في مكان آخر»، ثم غرس الرمح في الجدار بجانب السهم، وكان يحاول قياس الرؤية به وقال: «لن تنجح على أي حال. القبة ليست متمركزة على القصر، إنها متمركزة عليها».

قالت كيلى: «على من؟»، كان صوتها باردًا لدرجة أنه قادر على الحفاظ على الحليب طازجًا شهرًا كاملاً.

قال كاتويل تلقائيًا وهو يحدق على طول السهم: «على جلالتها».

- لا تنسَ ذلك.

قال الساحر: «لن أنسى، لكنّ هذا ليس هو الموضوع»، ثم سحب السهم من الجص واختبر طرفه بإصبعه.

قال مورت: «لكنّ إذا بقيت هنا ستموتين!».

قالت كيلى، وهي تبدو فخورةً بقدر ما يمكن وهي ترتدي سترة نوم وردية محبوكة: «إذن سأضطرّ إلى أن أرى القرص كيف يمكن لملكة أن تموت».

جلس مورت على طرف السرير واضعاً رأسه بين يديه، وتمتم: «أعرف كيف يمكن لملكة أن تموت. يموتن مثل بقية الناس. وبعضنا يُفضّل ألا يرى ذلك يحدث».

قال كاتويل بلا مبالاة، وهو يمدُّ يده خلالهما: «عذراً، أريد فقط أن ألقى نظرة على هذا القوس والنشاب. لا تلقوا بالاً لشأني».

قالت كيلى بقدر قليل من التردد في صوتها: «سأذهب بفخر لمواجهة قدرتي».

- لا، لن تفعلني. أعني، أنا أعلم ما أتحدث عنه. خذوها مني. لا يوجد شيء يدعو إلى الفخر في ذلك. ستموتين فحسب.

- نعم، ولكنّ الأمر يتعلق بكيفية فعل ذلك. سأموت بكرامة، مثل الملكة إزيريل.

تجعّدت جبهة مورت، فالتاريخ بالنسبة إليه كتاب مغلق، وسألها: «من هي؟».

قال كاتويل وهو يدير القوس والنشاب: «عاشت في كلاتش وكان لديها الكثير من العشاق وجلست على أفعى».

- لقد قصدت ذلك! كانت مكسورة القلب!

قال كاتويل بتفكير: «كل ما أستطيع تذكره هو أنها كانت تستحم في حليب الحمير. يا لطرافة التاريخ. تصبحين ملكة، تحكمين ثلاثين عامًا، تصدرين القوانين، تعلنين الحرب على الناس ثم الشيء الوحيد الذي يتذكرك الناس به هو أنك كنتِ تشبهين رائحة الزبادي وتعرضتِ للدغة ثعبان في...».

قاطعته كيلى بغضب: «إنها سلف بعيد لي. لن أستمع لهذا النوع من الحديث».

صرخ مورت بهما: «هل يمكنكما الصمت والاستماع لي!». فغطاهما الصمت كالقفن، ثم صوب كاتويل القوس بعناية وأطلق سهمًا على مورت في ظهره.

انطلقتِ الليلة بعد توديع ضحاياها الأوائل واستمرت في مسيرتها. حتى أكثر الحفلات جنونًا انتهت، وضيوفها يتمايلون في طريقهم إلى أسرّتهم، أو على الأقل إلى سرير شخص ما. بعد أن تخلصت من هؤلاء المسافرين العابرين، أولئك الأشخاص النهاريين الذين تجولوا خارج أراضيهم الزمنية، بدأ الناجون الحقيقيون من الليل في أعمالهم الجدية في الظلام.

لم تختلف هذه الأعمال كثيرًا عن أعمال النهار في عنخ-موربورك، باستثناء أن السكاكين كانت أكثر وضوحًا، ولم يبتسم الناس كثيرًا.

ساد الهدوء في حي الظلال، باستثناء إشارات الصفارات التي يُطلقها للصوص، والهمسات الناعمة لعشرات الأشخاص الذين يمارسون أعمالهم الخاصة في صمت حذر.

وفي زقاق الخنزير، انطلقت لعبة قمار كريبل والشهيرة. جلس عشرات من الأشخاص المجهولين أو ركعوا حول دائرة صغيرة من الأرض الصلبة حيث تتدحرج قطع نرد والثلث ذات الجوانب الثمانية وتدور بدرسها الخادع في الاحتمالات الإحصائية.

- ثلاثة!

- ثلاثة، يا إلهي!

- لقد هزمك يا هموك! هذا الرجل يعرف كيف يلعب النرد!

قال الموت: «إنها مهارة».

هموك مَجُوك، رجل صغير ذو وجه مسطح من إحدى القبائل الهابلاندية، اشتهر بمهارته في اللعب بالنرد أينما تجمّع رجُلان لسرقة ثالث. التقط هموك النرد ونظر إليه بحدة، ثم لعن وا بصمت، الذي كانت مهارته في تبديل النرد معروفة بشكل متساوٍ بين الخبراء ولكنه، على ما يبدو، أخفق في هذه المرة، وتمنى موتًا مؤلماً وغير متوقع للاعب الغامض الجالس مقابله، وألقى النرد في الوحل.

- واحد وعشرون بالطريقة الصعبة!

التقط كريبل والنرد وسلّمها إلى الغريب. عندما استدار نحو هموك، وَمَضَتْ عينه بشكل طفيف. أثار ذلك إعجاب هموك، وبالكاد لاحظ السرعة الخاطفة لأصابع والمجّعة بشكل خادع، وكان يراقب ذلك.

تناثرت قطع النرد بطريقة مزعجة في يد الغريب، ثم طارت منها في قوس بطيء ينتهي بأربع وعشرين نقطة صغيرة تشير إلى النجوم. بعض الأشخاص الأكثر ذكاءً في الحشد ابتعدوا عن الغريب، لأنّ حظاً كهذا يمكن أن يصبح سيئاً الحظ جداً في لعبة قمار كريبل وا.

انغلقت يد وا على النرد بصوت يشبه صوت زناد البندقية، قائلاً بشهيق: «كل الأرقام الثمانية. مثل هذا الحظ غير طبيعي يا سيد».

تبدد الحشد الباقي مثل الندى، تاركاً فقط أولئك الرجال الضخام غير الودودين الذين، لو أن وا دفع ضرائب يوماً ما، لكانوا قد سُجِّلُوا ضمن ضرائبه كمُعَدَّات أساسية للعمل.

أضاف وا: «ربما ليس حظاً. ربما هو سحر؟».

قال الموت: «أشعر بإهانة بالغة لذلك».

قال وا: «لقد كان لدينا ذات مرة ساحر حاول أن يصبح غنياً. لا أستطيع تذكر ما حدث له. أيها الأولاد؟».



telegram @
yasmeenbook

- أجرينا معه نقاشاً جيداً...

- وتركناه في ممر لحم الخنزير...

- وفي زقاق العسل...

- وفي بعض الأماكن الأخرى التي لا أستطيع تذكرها.

وقف الموت، فاقترب الفتیان منه وأحاطوا به، فقال لهم: «هذا غير مُسَوِّغ. أنا أسعى فقط للتعلم. ما المتعة التي يجدها البشر في تَكَرُّار القوانين البسيطة للمصادفة؟».

- لا علاقة للمصادفة بالأمر. دعونا نلقِ نظرةً عليه يا أولاد.

الأحداث التي تلت ذلك لم يتذكرها أي كائن حي سوى قطعة برية، واحدة من آلاف القطط في المدينة، عبرت الزقاق في طريقها إلى موعد، فتوقفت وشاهدت بفضول.

تجمد الفتیان في منتصف الطعن. تألق ضوء بنفسي مؤلم حولهم. دفع الموت قلنسوته إلى الخلف والتقط النرد، ثم دفعه في يد وا الذي لم

يقاوم. كان الرجل يفتح فمه ويغلقه، وعيناه تحاولان بلا جدوى ألا ترى ما أمامها وهو يبتسم.

- ارمِ النرد.

تمكن وا من النظر إلى يده، فهمس: «ما الرهان؟».

قال الموت: «إذا فزت، ستمتنع عن هذه المحاولات السخيفة للإيحاء بأن المصادفة تحكم شؤون البشر».

- أجل. أجل. وإذا خسرتُ؟

- ستمتنى لو أنك فزت.

حاول وا أن يبتلع ريقه، لكنَّ حلقة جفَّ، فقال: «أعرف أنني قتلتُ الكثير من الناس...».

- ثلاثة وعشرون شخصًا بالتحديد.

- هل فات الأوان لأقول إنني آسف؟

- لا تهمني مثل هذه الأمور. الآن ارمِ النرد.

أغلق وا عينيه وأسقط النرد على الأرض، مضطربًا جدًّا حتى إنه لم يحاول رميه بطريقته الخاصة بإدارته وقذفه، وحافظ على عينيه مغمضتين.

- كل الثمانيات. ها، لم يكن ذلك صعبًا جدًّا، أليس كذلك؟

ففقد وا وعيه.

هزَّ الموت كتفيه، ومشى مبتعدًا، متوقفًا فقط ليدغدغ أذني قطرة زقاق تصادف مرورها. همهم لنفسه. لم يكن يعرف تمامًا ما الذي أصابه، لكنه يستمتع بذلك.

قال مورت: «لم تكن متأكدًا أنها ستنجح!».

فَرَدَ كاتويل يديه بإيماءة نصالحية واعترف قائلًا: «حسنًا، لا. لكنني فكرتُ، ماذا لديّ لأخسره؟»، ثم تراجع إلى الخلف.

صرخ مورت: «ماذا لديك لتخسره؟»، ثم تقدم بخطى قوية وسحب السهم من أحد أعمدة سرير الأميرة قائلًا بحدة: «لا تخبرني أن هذا اخترقني؟».

قال كاتويل: «كنت أراقبه بعناية».

قالت كيلى: «أنا رأيته أيضًا. كان مُروِّعًا. خرج من حيث يوجد قلبك». قال كاتويل: «ورأيته تمشي خلال عمود حجري. ورأيته تنطلق بحصانك مباشرة خلال نافذة».

أعلن مورت وهو يُلوِّح بيديه في الهواء: «أجل، لكن ذلك وأنا في مهمة. لم يكن ذلك أمرًا يوميًا. كان مختلفًا. و...».

ثم توقف، وقال: «الطريقة التي تنظرون بها إليّ. إنها الطريقة نفسها التي نظروا بها إليّ في النزل هذا المساء. ما الخطب؟».

قالت كيلى بصوت ضعيف: «لقد لوَّحت بذراعك مباشرة خلال عمود السرير».

حدَّق مورت إلى يده، ثم طرق بها على الخشب وقال: «أترون؟ صلب. ذراع صلبة، خشب صلب».

قال كاتويل: «قلت إن الناس نظروا إليك في نزل؟ ماذا فعلت حينها؟ مشيت خلال الحائط؟».

- لا! أعني، لا، شربتُ هذا المشروب فقط، أعتقد أن اسمه سكرامبل...

- سكامبل؟

- أجل. طعمه مثل التفاح الفاسد. بدا كأنه نوع من السم بالطريقة التي استمروا بالنظر بها إليه.
- قال كاتويل: «كم شربت إذن؟».
- ربما كوب، لم أول الكثير من الانتباه...
- سأله الساحر: «هل تعلم أن السكامبل هو أقوى مشروب كحولي بين هنا ورامتوبس؟».
- قال مورت: «لا. لم يخبرني أحد. ما علاقته ب...».
- قال كاتويل ببطء: «لا. لم تكن تعرف. هم. هذه إشارة، أليس كذلك؟».
- هل له علاقة بإنقاذ الأميرة؟
- ربما لا. لكنني أرغب في الاطلاع على كتيبتي.
- قال مورت بحزم: «في هذه الحالة، ليس مهمًا».
- ثم التفت إلى كيلى التي كانت تنظر إليه ببداية خفيفة من الإعجاب، فقال: «أعتقد أنني أستطيع المساعدة. أعتقد أنني أستطيع الحصول على بعض السحر القوي. السحر سيوقف القبة، أليس كذلك يا كاتويل؟».
- سحري لن يفعل ذلك. يجب أن يكون الأمر قويًا للغاية، وحتى حينها لست متأكدًا. الواقع أقوى من...
- قال مورت: «سأذهب. إلى أن أراكم غدًا!».
- أشارت كيلى: «إنه الغد الآن».
- شعر مورت ببعض الإحباط، فقال: «حسنًا، الليلة إذن»، ثم قال شاعرًا ببعض الاستياء: «سأختفي!».
- تختفي ماذا؟

قال كاتويل بلطف: «إنه حديث الأبطال. لا يمكنه التحكم فيه».

عبس مورت في وجهه، وابتسم بشجاعة لكيلي وغادر الغرفة.

قالت كيلي بعد رحيله: «كان يمكنه فتح الباب».

قال كاتويل: «أعتقد أنه شعر ببعض الإحراج. كلنا نمر بهذه المرحلة».

- ماذا، مرحلة المرور خلال الأشياء؟

- بمعنى ما. الاصطدام بها على الأقل.

قالت كيلي: «سأذهب لأخذ قسط من النوم. حتى الموتى يحتاجون

إلى الراحة. كاتويل، توقف عن العبث بتلك القوس من فضلك. أنا متأكدة

أنه ليس من السحر أن تكون وحدك في غرفة سيدة».

- همم؟ لكنني لستُ وحدي، أليس كذلك؟ أنتِ هنا.

- هذا هو المغزى، أليس كذلك؟

- آه. نعم. عذرًا. حسنًا. سأراك في الصباح إذن.

- تصبح على خير يا كاتويل. أغلق الباب خلفك.

تسللت الشمس خلال الأفق، وقد قررت أن تبدأ يومها، فبدأت في

الارتفاع.

لكنها ستستغرق بعض الوقت قبل أن يصل ضوءها البطيء إلى

القرص النائم، مطارداً الليل أمامه، ولا تزال الظلال الليلية تحكم المدينة.

اجتمعت الظلال الآن حول حانة «الطبلية المرممة» في شارع فيلجري،

وهي أشهر حانات المدينة. كانت مشهورةً ليس بسبب مشروب الجعة

خاصتها الذي بدا مثل ماء العذراء وطعمه مثل حمض البطارية، بل

بسبب زبائنها. إذ يُقال إنه إذا جلست مدةً كافيةً في «الطَبلة»، فإن عاجلاً أو آجلاً سيسرق كل بطل كبير على القرص حصانك.

كان الجو داخلها لا يزال صاخباً بالحديث وملئاً بالدخان مع أنَّ صاحب الحانة فعل كل تلك الأشياء التي يفعلها أصحاب الحانات عندما يعتقدون أنه حان وقت الإغلاق، مثل إطفاء بعض الأنوار، وضبط الساعة، ووضع قطعة نسيج على المضخات، وفحص أماكن عصاهم ذات المسامير كإجراء احترازي. طبعاً، لم يولِ الزبائن ذلك أيَّ اهتمام على الإطلاق. بالنسبة إلى معظم زبائن «الطَبلة»، كانت العصا ذات المسامير مجرد تلميح.

ومع ذلك، راقبوا بقلق خفيف الشخص الطويل الداكن الذي وقف بجانب منضدة الحانة وشرب محتوياتها كلها.

الشاربون الوحيدون المُخلصون دائماً ما تتولّد منهم هالة ذهنية تضمن لهم الخصوصية الكاملة، لكنّ هذا الشارب بالذات شِعَّ نوعاً من الكآبة الحتمية التي أفرغت البار ببطء.

لم يتسبّب هذا في إزعاج الساقى، لأنّ هذا الشخص المنعزل انتظم في تجرّبة غالية الثمن جداً.

كل مكان للشرب في جميع أنحاء الكون المتعدد يحتوي على تلك الأرفف الملأى بزجاجات غريبة الشكل، لزجة، تحتوي على سوائل ذات أسماء غريبة، وكثيراً ما تكون زرقاء أو خضراء، وأيضاً قطع وأطراف لا توجد في الزجاجات الحقيقية، مثل الفواكه الكاملة، وقطع الأغصان، وفي الحالات القصوى، السحالي الصغيرة الغارقة. لا أحد يعرف لماذا يحتفظ أصحاب الحانات بالكثير منها، لأن طعمها جميعاً مثل دبس السكر المذاب في زيت التربينتين. وقد تكهّن البعض أنهم يحلمون بيوم

يأتي فيه شخص ما من الشارع ويطلب كوبًا من «كورنيش الخوخ مع لمسة من النعناع»، ومنذ ذلك الحين يصبح المكان مقصدًا للزيارة.
شقَّ الموت طريقه على طول الصف، ثم قال: «ما هذه الزجاجاة الخضراء؟».

ألقي صاحب الحانة نظرةً على ملصقها، وقال متشككًا: «إنها براندي البطيخ»، ثم أضاف: «كُتِبَ إنه مُعبأ من قبل بعض الرهبان وَفَّق وصفة قديمة».

- سأجرِّبه.

نظر الرجل بجانبه إلى الكؤوس الفارغة على المنضدة، وبعضها لا يزال يحتوي على أجزاء من سلطة الفواكه، حبات الكرز على عصا ومظلات ورقية صغيرة: «هل أنت متأكد أنك لم تشرب ما يكفي؟»، وقد أصابه القلق قليلًا لأنه لم يستطع تمييز وجه الغريب.

اختفتِ الكأس، مع شرابه المتبلور على الجوانب، في قلنسوة الموت وخرج إليه مرة أخرى فارغًا.

- لا. ما تلك الزجاجاة الصفراء التي تحتوي على الدبابير؟

- إنها مشروب الربيع. حسنًا؟

- آتني بها. وماذا عن الزجاجاة الزرقاء مع النقاط الذهبية؟

- ممم. المعطف القديم؟

- نعم. ثم الصف الثاني.

- أي واحدة تريد؟

- كلهم.

بقي الغريب واقفًا منتصبًا، والكؤوس محملة بالشراب والنباتات المتنوعة تختفي داخل قلنسوته متتالياتٍ.

فكّر صاحب الحانة: «هذا هو، هذا هو الأسلوب، هنا حيث أشتري سترة حمراء وربما أضع بعض الفول السوداني وبعض الخيار المخلّل على المنضدة، أضع بعض المرايا حول المكان، أستبدل نشارة الخشب. ثم التقط قطعة نسيج مبلة بالجة ومسح الخشب بعض المسحات الحماسية، ناشراً قطرات المشروبات من الكؤوس وجعلها لطخة قوس قزح أزالّت الطلاء. وضع آخر زبون عادي قبعته وخرج مترنحاً، يتمتم لنفسه.

قال الموت: «لا أرى الفائدة».

- عذراً؟

- ما المفترض أن يحدث؟

- كم عدد المشروبات التي تناولتها؟

- سبعة وأربعون.

قال صاحب الحانة: «أي شيء تقريباً، إذن»، لأنه يعرف عمله ويعرف ما هو متوقع منه عندما يشرب الناس بمفردهم في أواخر الليل، فبدأ في تلميع كأس بقطعة نسيج متسخة وقال: «لقد طردتك سيدتك، أليس كذلك؟».

- عفواً؟

- إنك غارق في أحزانك، أليس كذلك؟

- ليست لدي أي أحزان.

قال صاحب الحانة: «لا، طبعاً لا. انس أنني ذكرت ذلك»، ثم أعطى الكأس بعض المسحات الإضافية وقال: «فكرت فقط أنه من المفيد أن يكون لديك شخص لتتحدث إليه».

ظلّ الغريب صامتاً لحظةً، يفكر. ثم قال: «تريد أن تتحدث معي؟».

- نعم. بالتأكيد. أنا مستمتع جيد.

- لم يرغب أحد في التحدث معي من قبل.

- يا للعار.

- أعلم؟ لم يدعوني إلى الحفلات قط.

- تبًا.

- كلهم يكرهونني. الجميع يكرهني. ليس لدي صديق واحد.

قال صاحب الحانة بحكمة: «ينبغي أن يكون لكل شخص صديق».

- أعتقد...

- أجل؟

- أعتقد... يمكنني أن أكون صديقًا للزجاجة الخضراء.

أتى صاحب الحانة بالزجاجة ثمانية الأضلاع على المنضدة، فأخذها الموت وأمالها على الكأس، ليتساقط السائل على الحافة، فيما قال: «أنت تعتقد أنني ثمل، أليس كذلك؟».

قال صاحب الحانة: «أخدم أي شخص يمكنه الوقوف منتصبًا بوضوح».

- أنت محق تمامًا. لكنني...

توقف الغريب، وإصبعه في الهواء، ثم قال: «ماذا كنت أقول؟».

- قلت إنني أعتقد أنك ثمل.

- آه. نعم، لكن يمكنني أن أصبح واعيًا في أي وقت أريد. هذه تجربة.

والآن أود أن أجرب براندي البرتقال مرة أخرى.

تنهد صاحب الحانة ونظر إلى الساعة. لا شك أنه سيجني الكثير من المال، خاصة أن الغريب لم يبدُ مُهتمًا بالأسعار الباهظة أو قلة المال.

ولكنَّ الوقت صار متأخرًا؛ في الواقع تأخر الوقت لدرجة أنه أصبح مُبَكَّرًا. وهناك شيء أيضًا يخصُّ هذا الزبون الوحيد الذي أشعره بعدم الارتياح. كان الناس في «الطَبلة المرممة» يشربون عادةً كأنَّ لا وجود للغدِّ، لكنَّ هذه أول مرة شعر فيها فعلاً أنهم قد يكونون على حق.

قال الموت: «أعني، ما الذي يجب أن أتطلع إليه؟ ما الفائدة من كل هذا؟ ما الهدف الحقيقي من كل هذا؟».

- لا أعلم يا صديقي. أتوقع أنك ستشعر بتحسُّن بعد نوم ليلة جيدة.

- نوم؟ نوم؟ أنا لا أنام أبدًا. لقد ضُربَ بي المثل في عدم النوم.

قال صاحب الحانة: «الجميع يحتاج إلى النوم. حتى أنا».

- كلهم يكرهونني.

- نعم، قلتَ ذلك. لكنها الساعة الثالثة إلا ربع فجرًا.

استدار الغريب غير مستقر ونظر في أرجاء الحانة الصامتة، ثم قال: «لا يوجد أحد في المكان سواك وسواي».

رفع صاحب الحانة باب المنضدة الجانبي، واستدار حولها ليساعد الغريب على النزول من مقعده، الذي استمر قائلاً: «ليس لديَّ صديق واحد. حتى القطط تجدني مسلياً».

امتدَّت يد الموت وأمسكتُ بزجاجة من مشروب أمانيتا قبل أن يتمكن صاحب الحانة من دفع الموت نحو الباب، متسائلاً كيف يمكن لشخص نحيف جدًّا هكذا أن يكون ثَقِيلاً جدًّا.

- يجب ألا أكون ثَمَلًا. لماذا يحب الناس أن يكونوا ثَمَلين؟ هل هو ممتع؟

- يساعدهم على نسيان الحياة يا صديقي. الآن فقط اتكئ هنا فيما أفتح الباب...

- نسيان الحياة. ها. ها.

- تعالَ مرة أخرى في أي وقت تريد، حسنًا؟

- أتودُّ حقًا أن تراني مجددًا؟

نظر صاحب الحانة إلى كومة العملات الصغيرة على البار. كم كان ذلك غريبًا. على الأقل كان هذا الزبون هادئًا وبدا غير ضارّ.

قال صاحب الحانة: «أوه، أجل»، وهو يدفع الموت نحو الشارع ويستعيد الزجاجاة بحركة سلسلة، ليقول: «تفضّل في أي وقت».

قال الموت: «هذا ألطف شيء...».

انغلق الباب بقوة ليقطع بقية الجملة.

استيقظت يزابيل في فراشها، إذ سمعت طرقات على الباب مرة أخرى، طرقات هادئة تكررت بإلحاح، فسحبت الغطاء حتى ذقنها، وهمست: «من هناك؟».

أتاها الهمس من تحت الباب: «إنه أنا، مورت. دعيني أدخل من فضلك!».

- انتظر!

بحثت يزابيل بشكل محموم على المنضدة المجاورة للفراش عن أعواد الثقاب، وأسقطت زجاجة من ماء التواليت وأزاحت صندوقًا من الشوكولاتة الذي صار الآن مجرد أغلفة مرمية. حالما أشعلت الشمعة، عدّلت موضعها لتحقيق أفضل تأثير، وضبطت فستانَ نومها ليكون أكثر كشفًا لجسدها، وقالت: «الباب غير مُغلق».

ترنَّحْ مورت إلى الغرفة، تفوح منه رائحة الخيول والصقيع ومشروب السكامبل.

قالت يزابيل بجرأة: «آمل أنك لم تقتحم المكان لاستغلال مكانتك في هذا المنزل».

نظر مورت حوله. كانت يزابيل مُهَوَّسة بالزخارف النسيجية. حتى منضدة الزينة بدت كأنها ترتدي تنورة داخلية. لم تكن الغرفة بأكملها مؤثثة بقدر ما كانت مزينة بالكثير من الأنسجة المزخرفة.

قال مورت: «انظري، ليس لدي الكثير من الوقت للعبث. أحضري تلك الشمعة إلى المكتبة. ومن فضلك، ارتدي شيئاً معقولاً، أنتِ مكشوفة جداً».

نظرت يزابيل إلى الأسفل، ثم رفعت رأسها بسرعة، وقالت: «حسنًا!». أطلَّ مورت برأسه من الباب مرة أخرى وقال قبل أن يختفي: «إنها مسألة حياة وموت».

شاهدت يزابيل الباب وهو يغلق ببطء خلفه، كاشفًا عن رداء النوم الأزرق ذي الجوارب الذي فكَّر فيه الموت كهدية لها في آخر ليلة هوجسووتش والذي لم تردِّ التخلص منه، مع أنَّه كان صغير الحجم واحتوى على أرنب في منطقة الجيب.

في النهاية، تأرجحت بساقيها خارج السرير، وارتدت رداء النوم المُخزي، وسارت في الممر، فوجدت مورت في انتظارها، فسألته: «ألن يسمعنا والدي؟».

- لم يعدْ بعدُ. هيّا.

- كيف عرفت؟

- يبدو المكان مختلفاً عندما يكون هنا. إنه... إنه مثل الفرق بين المعطف عندما يرتديه أحدهم وعندما يُعلّق على الخطاف. ألم تلاحظي ذلك؟

- ما الذي نفعله ويعتبر مهمّاً إلى هذا الحد؟

فتح مورت باب المكتبة، فاندفع هواء دافئ وجاف، وأصدرت المفصلات صريراً احتجاجياً.

قال مورت: «نحن ذاهبون لإنقاذ حياة شخص ما. أميرة، في الواقع». بُهرت يزابيل على الفور، وقالت: «أميرة حقيقية؟ أعني هل يمكنها أن تشعر بحبة البازلاء من خلال عشرات المراتب؟».

قال مورت: «هل يمكنها...؟». ثم شعر باختفاء قلق طفيف، فأكمل: «أوه. نعم. ظننتُ أن ألبرت قد أخطأ».

- هل أنت واقع في حبها؟

توقّف مورت بين الأرفف، مدرّكاً الأصوات الصغيرة الصادرة من داخل أغلفة الكتب، ثم قال: «من الصعب أن أتأكد من ذلك. هل أبدو كذلك؟».

- تبدو مرتبّكاً قليلاً. ما شعورها نحوك؟

- لا أعرف.

قالت يزابيل بفهم ونبرة خبيثة: «آه. أسوأ أنواع الحب هو الحب من طرف واحد. مع ذلك، ربما ليست فكرة جيدة أن تتناول السم أو تقتل نفسك»، ثم أضافت بتفكير: «ماذا نفعل هنا؟ هل تريد أن تجد كتابها لترى أكانت ستتزوجك؟».

قال مورت: «لقد قرأته، وهي ميتة. لكنها ميتة نظرياً فقط. أعني، ليست ميتة حقاً».

- جيد، وإلا كان هذا سحر النكرومانسي⁽¹⁾. ما الذي نبحث عنه؟
- سيرة حياة ألبرت.
- لماذا؟ لا أعتقد أنه لديه واحدة.
- كل شخص لديه واحدة.
- حسنًا، إنه لا يحب أن يسأله الناس أسئلة شخصية. لقد بحثت عنها مرة ولم أتمكن من العثور عليها. اسم ألبرت وحده ليس كافيًا للبحث عنه. لماذا هو مثير للاهتمام؟
- ثم أشعلت يزابيل شمعتين باستخدام الشمعة التي في يدها، فملأت المكتبة بظلال راقصة.
- قال مورت: «أحتاج إلى ساحر قوي وأعتقد أنه كذلك».
- ألبرت؟
- أجل، نحن نبحت عن ألبرتو ماليش. أعتقد أن عمره أكثر من ألفي عام.
- ألبرت؟
- أجل. ألبرت.
- قالت يزابيل بشك: «إنه لا يعتمر قبعة السحرة».
- لقد فقدوها. على أي حال، القبعة ليست إلزامية. من أين نبدأ البحث؟
- حسنًا، إذا كنت متأكدًا... أعتقد المخزن. هذا هو المكان الذي يضع فيه والدي كل السير الذاتية التي يزيد عمرها على خمسمئة عام. إنه في هذا الاتجاه.

(1) سحر النكرومانسي: نوع من أنواع السحر الأسود يُتحكَّم به بجثث الموتى. (المترجم)

قاداته خلال أرفف الكتب الهامسة إلى باب في نهاية ممر مسدود. فتح الباب ببعض الجهد، فتردد صرير المفصلات في أرجاء المكتبة؛ وللحظة، تخيل مورت أن جميع الكتب توقفت مؤقتًا عن عملها لمجرد الاستماع.

قاداتهم درجات السلالم إلى ظلام هادئ، انتشرت فيه خيوط العنكبوت والغبار، ورائحة الهواء كأنه حبس في هرم ألف عام. قالت يزابيل: «لا يأتي الناس إلى هنا كثيرًا. سأقود الطريق». شعر مورت أن شيئًا ما يجب قوله، فقال: «يجب أن أقول.. أنت حجر الأساس هنا».

- أتقصد أنني وردية اللون، مربعة ومكتنزة كحجر البناء؟ أنت خبير حقًا في التحدث مع الفتيات يا ولدي. قال مورت تلقائيًا: «اسمي مورت».

ساد الظلام والصمت في المخزن ككهف عميق تحت الأرض. وبين الأرفف مساحة ضيقة تكفي بالكاد شخصًا واحدًا ليسير بينها، وارتفعت أعلى بكثير من قبة ضوء الشموع. كانت الأرفف غريبة بشكل خاص لأنها صامتة. لا توجد حيوات لتكتب بعد الآن، فنامت جميع الكتب. لكن شعر مورت أنها نائمة كالقطط، بعين واحدة مفتوحة، وما زالت واعية. قالت يزابيل هامسة: «لقد نزلتُ هنا مرة. إذا مشيت بعيدًا بما فيه الكفاية بين الأرفف، فستنتهي الكتب وتبدأ الألواح الطينية وقطع الحجر وجلود الحيوانات وكل من اسمه أوج وزوج».

كان الصمت ملموسًا تقريبًا. شعر مورت أن الكتب تراقبهما في أثناء تجولهما في الممرات الحارة الصامتة. كل شخص عاش على الإطلاق يوجد هنا في مكان ما، منذ أوائل الأشخاص الذين خلقتهم الآلهة من

الطين أو أي شيء آخر. لم يحقدوا عليه بالتحديد، بل تساءلوا فحسب عن سبب وجوده هنا.

همس مورت: «هل تجاوزتِ أوج وزوج؟ هناك الكثير من الناس سيكونون مُهتمين جدًا بمعرفة ما يوجد هناك».

- لقد شعرتُ بالخوف. إنه طريق طويل وليس لديّ ما يكفي من الشموع.

- يا للأسف.

توقفتُ يزابيل فجأةً لدرجة أن مورت اصطدم بها من الخلف، وقالت: «لا بدّ أن هذا هو المكان المناسب. ماذا الآن؟».

تأمل مورت الأسماء الباهتة على كعوب الكتب، وقال مُتذمّرًا: «لا يبدو أن هناك أي ترتيب!».

نظرا إلى الأعلى، ثم تجوّلوا في بعض الممرات الجانبية. سحبوا بعض الكتب من الأرفف السفلية عشوائيًا، وهذا ما أثار غبارًا كثيفًا.

قال مورت في النهاية: «هذا سخيف. هناك ملايين من الحيوانات هنا. احتمالات العثور على حياته أسوأ من...».

وضعتُ يزابيل يدها على فمه، وقالت: «استمع!».

همهم مورت قليلًا من خلال أصابعها ثم فهم الرسالة. أرهف أذنيه، محاولًا سماع أي شيء فوق صوت الصمت المطلق.

ثم وجده. صوت خريشة خافتة، مزعجة. بموضع عالٍ، عالٍ فوقهما، ففي مكان ما على حافة الأرفف في ظلام لا يمكن اختراقه، هناك حياة لا تزال تُكتب.

نظرا إلى بعضهما، وأعينهما تتسع، ثم قالت يزابيل: «مررنا بسلم ذي عجلات هناك».

أصدرتِ العجلات الصغيرة في أسفل السلم المتحرك صريرًا عندما دفعه مورت للخلف. تحرك طرف السلم العلوي أيضًا، كما لو كان مثبتًا على مجموعة أخرى من العجلات في مكان ما في الظلام.

قال مورت: «حسنًا، أعطيني الشمعة، و...».

قالت يزابيل بحزم: «إذا صعدتِ الشمعة، فسأصعد أنا أيضًا. ابقِ هنا لتحرّك السلم عندما أقول. ولا تجادل.».

قال مورت بنبل: «قد يوجد خطر في الأعلى هناك.».

أشارت يزابيل: «قد يوجد خطر هنا أيضًا، لذا سأكون على السلم مع الشمعة، شكرًا.».

وضعت قدمها على الدرجة السفلية وسرعان ما أصبحت ظلًا مزخرفًا محدّدًا بهالة من ضوء الشمعة الذي بدأ بالتقلّص.

ثبّت مورت السلم وحاول ألا يفكر في كل الحيوّات المحيطة به. تساقطت أحيانًا قطرات من الشمع الساخن على الأرض بجانبه، لتُحدث فجوة في الغبار. أصبحت يزابيل الآن توهجًا باهتًا بعيدًا في الأعلى، وهو يشعر باهتزازات كل خطوة خلال السلم.

ثم توقفت يزابيل، وبدأ الأمر كأنه استمر مدةً طويلةً. بعدها وصل صوتها إليه، مكتومًا بثقل الصمت المحيط بهم.

- مورت، لقد وجدته.

- جيد. أحضره إلى الأسفل.

- مورت، كنتَ على حق.

- حسنًا، شكرًا. الآن أحضره إلى الأسفل.

- نعم، مورت، لكن أي واحد؟

- لا تلعب، الشمعة لن تدوم طويلًا.

- مورت!

- ماذا؟

- مورت، هناك رف كامل!

الآن حلَّ الفجر حقًا، تلك اللحظة من اليوم التي لا تنتمي إلى أحد سوى طيور النورس في مواني موروبورك، والمدّ الصاعد في النهر، والريح الدافئة التي تضيف رائحة الربيع إلى رائحة المدينة المعقدة.

جلس الموت على رصيف الميناء، ينظر إلى البحر. قرّر أن يتوقف عن شرب الخمر، إذ أصابت رأسه بالصداع.

لقد جرّب الصيد، والرقص، والمقامرة، والشرب، والذين يُقال إنهم أربعة من أعظم متع الحياة، ولم يكن متأكدًا من أنه رأى الهدف منها. كان راضيًا عن الطعام، فالموت يحب الوجبة الجيدة كأى شخص آخر. لم يستطع التفكير في أي مُتَعٍ أخرى للجسد أو، بالأحرى، استطاع، ولكنها كانت، حسنًا، جسدية، ولم يستطع رؤية كيف يمكن أن يتعامل معها دون بعض التغييرات الجسدية الرئيسية التي لم يودّ التفكير فيها. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن البشر يتوقفون عن فعلها مع تقدمهم في العمر، لذا على ما يبدو لم تكن جذابة بهذا القدر.

بدأ الموت يشعر بأنه لن يفهم الناس طوال عمره.

جعلت الشمس الحصى ينبعث منها البخار، ف شعر الموت بوخزة خفيفة من تلك الرغبة الربيعية الصغيرة التي يمكن أن تضخ ألف طن من سوائل النباتات خلال خمسين قدمًا من الخشب في الغابة.

حامت طيور النورس وهبطت حوله. خرج قِطُّ أعور، في حياته الثامنة وبأذن واحدة، من مخبئه في كومة من صناديق السمك المهجورة،

فتمطى وتثاءب، وفرك نفسه فاردًا ساقيه. جلب النسيم، الذي عَبَرَ رائحة مدينة عنخ الشهيرة، نفحةً من روائح التوابل والخبز الطازج.

كان الموت في حيرة. لم يستطع مقاومته. إذ شعر بالسعادة حقًا لكونه حيًا، وبالحماس الشديد لكونه الموت. ففكر بداخله: لا بُدَّ أنني أعاني مرضًا ما.

تسلَّق مورت السلم بجانب يزابيل. كان مُهتَزًّا، لكنه بدا آمنًا. على الأقل لم يزعجه الارتفاع، فكل شيء بالأسفل غمره الظلام. بعض المجلدات الأولى لأبرت بدأت تتفكك تقريبًا. مدَّ يده لأحدها عشوائيًا، وشعر بالسلم يهتزُّ تحتها وهو يفعل ذلك، فأعاده وفتحه في مكان ما في الوسط، وقال: «حرَّكي الشمعة إلى هنا».

- هل تستطيع قراءته؟

- نوعًا ما...

ثم بدأ بالسرد: «حرَّك يده، لكنه كان متضايقًا لأن كل الناس يموتون في النهاية، فتعهد لنفسه بابحث عن الخلود بكبرياء. وقال للسحرة الشباب: «بهذا، يمكننا أن نصبح كالآلهة». في اليوم التالي، هطلت الأمطار، ألبرتو...».

فقال بعدها: «إنها مكتوبة بلغة قديمة، قبل اختراع التهجئة. لنلق نظرة على الأحداث منها».

تأكد مورت أنه ألبرت، إذ انتقط عدة إشارات إلى الخبز المقلي.

قالت يزابيل: «لنلق نظرة على ما يفعله الآن».

- هل تظنين أن علينا فعل ذلك؟ ذلك يشبه التجسس.

- وما المشكلة؟ أنت خائف؟

- حسنًا.

تصفّح حتى وصل إلى الصفحات الفارغة، ثم عاد إلى الوراء حتى وجد قصة حياة ألبرت، تتحرك خلال الصفحة بسرعة مفاجئة بالنظر إلى أن الوقت منتصف الليل، فمعظم السّير الذاتية لم يكن لديها الكثير لتقوله عن النوم، ما لم تكن الأحلام حية بشكل خاص.

قالت يزابيل: «أمسكِ الشمعة بشكل صحيح، لا أريد أن يتساقط الشمع على حياته».

- لمَ لا؟ إنه يحب الشمع.

- توقف عن الضحك، سنسقط معًا. الآن انظر إلى هذا الجزء...

قرأت يزابيل: «تسلل خلال ظلام المدخنة المغبر، وعيناه مثبتتان على التوهج الصغير للشمعة عاليًا. فيما فُكّر بداخله: متطفّلان، يعبثان بأشياء لا تعنيهما، الشيطانان الصغيران...».

قطعت يزابيل قراءتها فجأة: «مورت! إنه...».

قاطعها مورت: «اصمتي! أنا أقرأ!».

فأكمل القراءة: «سأوقف هذا قريبًا. تسلّل ألبرت بصمت إلى قاعدة السلم، بصق على يديه، واستعدّ للدفع. لن يعرف السيد أبدًا، فهو يتصرف بغرابة في هذه الأيام وكل ذلك بسبب ذلك الفتى، و...».

نظر مورت إلى عيني يزابيل المذعورتين، ثم أخذت الفتاة الكتاب من يد مورت، وحملته على طول ذراعها بينما ظلت نظرتها مثبتة على عينيّه، وتركت الكتاب يسقط.

راقب مورت شففتها تتحركان ثم أدرك أنه مثلها يعدُّ بصوت هامس...

ثلاثة، أربعة...

سمعا صوتَ ارتطام خافت، صرخة مكتومة، وصمت.

قال مورت بعد مدةٍ: «هل تعتقدين أنك قتلتِه؟».

- ماذا، هنا؟ على أي حال، لم ألاحظ أي أفكار أفضل قادمة منك».

- لا، لكن... في النهاية، إنه رجل مسن.

قالت يزابيل بحدة وهي تبدأ في النزول: «لا، ليس كذلك».

- أليس عمره ألفي عام؟

- لم يتجاوز السابعة والستين.

- قالت الكتب إنه...

- أخبرتك أن الوقت لا ينطبق هنا. ليس الوقت الحقيقي. ألا تصغي

يا فتى؟

قال مورت: «اسمي مورت».

- وتوقف عن دؤس أصابعي. انزلْ بأسرع ما أستطيع.

- آسف.

- ولا تتصرف بهذا الضعف. هل لديك أي فكرة عن مدى الملل الذي

نشعر به هنا؟

قال مورت بصدق شديد: «في الغالب لا. لقد سمعتُ بالملل لكن لم

تتح لي فرصة لتجربته».

- إنه رهيب.

- إذا كان الأمر كذلك، فإن الإثارة ليست كما يُشاع عنها.

- أي شيء أفضل من هذا.

سمعا أنيناً آتياً من الأسفل، ثم سيلاً من الكلمات البذيئة. حدّقت يزابيل إلى الظلام وقالت: «من الواضح أنني لم أضرب عضلات الشتاء لديه».

- لا أعتقد أن عليّ الاستماع لكلمات مثل تلك. هذا سيئ لأخلاقي. وجدا ألبرت متكئاً على قاعدة رف الكتب، يتمتم ويمسك بذراعه. قالت يزابيل بسرعة: «لا داعي إلى إحداث كل هذا الضجيج. أنت لست مصاباً؛ والدي ببساطة لا يسمح بحدوث مثل هذه الأشياء». تذرّأ ألبرت: «لماذا فعلت ذلك؟ لم أقصد أي ضرر». قال مورت محاولاً مساعدته على النهوض: «كنت ستدفعنا. لقد قرأته. أنا متفاجئ أنك لم تستخدم السحر». نظر إليه ألبرت بغضب، وقال بهدوء: «أوه، إذن لقد اكتشفت الأمر، أليس كذلك؟ حسناً، استفد بما علمت. ليس لديك الحق في التجسس». حاول الوقوف على قدميه متخلصاً من يد مورت، فتعثر عائداً بين الأرفف الهادئة.

قال مورت: «لا، انتظر، أحتاج إلى مساعدتك!». قال ألبرت في أثناء سيره بعيداً: «طبعاً، من الطبيعي أن تفكر هكذا، أليس كذلك؟ تظن أنك ستتجسس على حياة شخص ما الخاصة ثم تفاجئه بذلك ثم تطلب مساعدته».

ركض مورت خلفه قائلاً: «أردت فقط أن أعرف إذا كنت أنت حقاً».

- أنا هو. الجميع هو.

- لكن إذا لم تساعدني، سيحدث شيء رهيب! هناك أميرة، وهي...

- الأشياء الرهيبة تحدث طوال الوقت يا فتى...

- اسمي مورت...

- ولا أحد يتوقع مني أن أفعل شيئاً حياً ذلك.

- لكنك كنت الأعظم!

توقف ألبرت لوهلة، لكنه لم ينظرُ حوله، وقال: «كنت الأعظم، كنتُ. ولا تحاول أن تتملقني. أنا لا أخضع للتملُّق».

قال مورت محاولاً عدم التثاؤب: «لديهم تماثيل لك وأشياء أخرى».

- إذن هم أغبياء.

وصل ألبرت إلى قاعدة الدَّرج المؤدي إلى المكتبة الفعلية، وصعدته بسرعة، ثم وقف ليبدو جسده معاكساً لضوء الشموع القادم خلفه من المكتبة.

قال مورت: «تعني أنك لن تساعد؟ حتى لو كنت تستطيع؟».

قال ألبرت بتذمر: «كم أنت ذكي يا فتى. وليس من الجيد أن تظن أنك تستطيع أن تناشد طبيعتي الخيرة تحت هذا المظهر الخارجي القاسي، لأن داخلي قاسٍ أيضاً».

سمعه يعبرُ أرضية المكتبة كأنه يحمل ضغينة ضدها، وأغلق الباب خلفه بعنف.

قال مورت بتردد: «حسناً».

انفجرتُ يزابيل قائلة: «ماذا كنت تتوقع؟ إنه لا يهتم بأحد سوى والدي».

قال مورت وقد انخفضت طاقته: «ظننتُ فقط أن شخصاً مثله سيساعد إذا شرحتُ الأمر له بشكل صحيح»، ثم تلاشتِ الطاقة التي دفعته خلال تلك الليلة الطويلة، ليمتلئ عقله بشعور من الثقل، وقال: «أتعلمين أنه كان ساحراً شهيراً؟».

قالت يزابيل: «هذا لا يعني شيئاً، السحرة ليسوا بالضرورة لطفاء. لا تتدخل في شؤون السحرة لأنّ الرفض كثيراً ما يكون مهيناً، قرأتُ ذلك في مكان ما»، ثم اقتربت من مورت ونظرت إليه بقلق قائلة: «تبدو كأنك بقايا شيء على طبق».

قال مورت بصوت منخفض: «أنا بخير». وصعد الدَّرَج بخطى ثقيلة ليدخل إلى ظلال المكتبة الخشنة.

قالت يزابيل: «أنتَ لست بخير. تحتاج إلى نوم جيد يا فتى».
تمتم مورت: «أنا بخير».

شعر بيزابيل تضع ذراعه فوق كتفها. تحركتِ الجدران بلطف، حتى صوته بدا آتياً من بعيد، وشعر بشكل خافت كم سيكون جميلاً أن يتمدد على لوح حجري لطيف وينام إلى الأبد.

قال لنفسه: «سيعود الموت قريباً»، وهو يشعر بجسده المستسلم للمساعدة في أثناء سيره على طول الممرات. لا مفرّ، سيتعين عليه إخبار الموت. لم يكنْ شخصاً سيئاً جداً. سيساعده الموت؛ كل ما عليه فعله هو شرح الأمور. ثم يمكنه التوقف عن كل هذا القلق ويذهب للنوم...

- وما وظيفتك السابقة؟

أجاب الموت: «عفواً؟».

قال الشاب النحيف الجالس خلف المكتب: «ماذا كنتَ تفعل لكسب لقمة العيش؟».

تحرك الموت بعدم ارتياح، ثم قال: «كنت أرشد الأرواح إلى العالم الآخر. كنت قبرَ كل الأمل. كنت الحقيقة المطلقة. كنت القاتل الذي لا يمكن لأي قفل أن يوقفه».

قال الشاب: «نعم، فهمتُ. لكن هل لديك أي مهارات محددة؟».

فكّر الموت في الأمر، ثم قال بعد مدة: «أعتقد أن لديّ قدرًا معينًا من الخبرة في استخدام الأدوات الزراعية».

هزّ الشاب رأسه بحزم.

قال الموت: «لا؟».

أجابه الشاب: «هذه مدينة يا سيد...». نظر إلى الأسفل مرة أخرى، وشعر مرة أخرى بشعور طفيف من عدم الارتياح لم يستطع تحديده، فأكمل: «سيد.. سيد.. أيها السيد، ونحن نفتقر إلى الحقول»، ثم وضع قلمه وابتسم ابتسامة توشي بأنه تعلمها من كتاب.

لم تكن مدينة عنخ-موربورك متقدمة بما يكفي لامتلاك مكتب توظيف. فالناس قبلوا الوظائف لأن آباءهم منحوها إياهم، أو لأن مواهبهم الطبيعية وجدت منفذًا، أو خلال تناقل الكلام. لكن كان هناك احتياج إلى الخدم والعاملين البسطاء، ومع بداية ازدهار المناطق التجارية في المدينة، اخترع الشاب النحيف -السيد ليونا كيبل- مهنة وسيط العمل وكان في هذه اللحظة يجد الأمر صعبًا.

قال السيد ليونا: «سيدي العزيز...»، ثم نظر إلى الأسفل وقال: «أيها السيد، الكثير من الناس يأتون إلى المدينة من الخارج لأنهم، يا للأسف، يعتقدون أن الحياة هنا أغنى. عذرًا لقول ذلك، لكن يبدو لي أنك رجل نبيل أصابه الفقر. اعتقدت أنك ستفضل شيئًا أكثر رُقياً من...»، نظر إلى الأسفل مرة أخرى، وعبس: «شيئًا لطيفًا يعمل مع القطط أو الزهور».

قال الموت: «أنا آسف. شعرتُ أن الوقت قد حان للتغيير».

- هل تستطيع العزف على آلة موسيقية؟

- لا.

- هل تستطيع النجاة؟

أجابه الموت: «لا أعلم، لم أجرب ذلك من قبل»، ثم حدّق إلى قدميه،
إذ شعر بالحرج الشديد.

قلّب كيبل الأوراق على مكتبه وتنهّد، فتطوع الموت قائلاً: «أستطيع
المرور خلال الجدران»، مدرّكاً أن الحديث قد وصل إلى طريق مسدود.
نظر كيبل بشوق وقال: «أودُّ أن أرى ذلك، ربما كان هذا مؤهلاً جيداً».
- حسناً.

دفع الموت كرسيه إلى الخلف وتقدم بثقة نحو أقرب جدار.
- آه!

راقب كيبل متوقّعاً ما حدث وقال: «استمر، إذن».

- ممم. هل هذا جدار عادي؟

- أفترض ذلك. لستُ خبيراً في الجدران.

- يبدو أنه يسبب لي بعض الصعوبة.

- يبدو كذلك.

- ما اسم الشعور بأنك صغير جدّاً وحاد؟

دوّر كيبل قلمه وقال: «قزم؟».

- يبدأ بحرف «م».

- مُحَرَج؟

قال الموت: «أجل.. أجل».

قال كيبل: «يبدو أنه ليست لديك أي مهارة أو موهبة مفيدة على
الإطلاق. هل فكرتَ في الدخول إلى مجال التعليم؟».

كان وجه الموت قناعًا من الرعب. حسنًا، كان دائمًا قناعًا من الرعب، لكن هذه المرة سادته الرعب حقًا.

قال كيبل بلطف، واضعًا قلمه ومُشبِّهًا يديه معًا: «أتعلم؟ نادرًا ما أحتاج إلى العثور على مهنة جديدة لشخص... ما هو مرة أخرى؟».

أجابه الموت: «تجسيد للشكل البشري».

- آه، نعم. ما هو ذلك بالضبط؟

كان الموت قد طفح به الكيل، فقال: «هذا».

لبضع لحظات، لبضع لحظات فقط، رآه السيد كيبل بوضوح. أصبح وجهه شاحبًا تقريبًا مثل وجه الموت نفسه. تحركت يداه لا إرادياً، وتعثرت دقات قلبه.

شاهد الموت ما يحدث باهتمام طفيف، ثم أخرج ساعة رملية من أعماق عباءته ورفعها إلى الضوء وفحصها بعناية، ليقول بعدها: «اهدأ، ما زالت لديك بضع سنوات جيدة».

- ببيبي...

- يمكنني إخبارك بعدها إذا أردت.

كافح كيبل ليتنفس، إلى أن تمكّن من هزّ رأسه.

قال الموت: «هل تريد مني أن أحضر لك كوبًا من الماء؟».

- ل... ل... لا.

رنّ جرس المحل، فتحرّكت عينا كيبل. قرر الموت أنه مدين للرجل بشيء. يجب ألا يُسمح له بفقدان الزبائن، وهو شيء يُقدّره البشر بوضوح.

دفع جانبًا الستار المكون من حَبَّاتٍ وخرج إلى الجزء الخارجي من المتجر، حيث كانت امرأة صغيرة سمينة، تبدو كأنها رغيف خبز غاضب، تضرب على المنضدة بسمكة حدوق.

قالت: «يتعلق الأمر بوظيفة الطاهي في الجامعة. أخبرتني أنها وظيفة جيدة لكنها تجلب العار هناك، الحيل التي يلعبها هؤلاء الطلاب، وأطالب أن... أريدك أن... أنا لست...».

ثم تلاشى صوتها، فأكملت بعدها بصوت مرتعش: «آآ، أنتَ لست كيبل، أليس كذلك؟».

حدَّق الموت إليها. لم يواجهه من قبل عميلًا غير راضٍ. كان حائرًا، فاستسلم في النهاية، وقال:

«اخرجي من هنا، يا ساحرة الليل الشمطاء».

ضيَّقَت الطاهية عينيها الصغيرتين، وقالت باتهام وهي تضرب المنضدة بالسمكة مُجددًا: «من تنعت بساحرة الليل الشمطاء؟ انظر إلى هذه السمكة. كانت مدفأةً سريري ليلة أمس، وفي الصباح صارت سمكة. هأنا أسألك».

قال الموت مُحاولًا إجابتها: «فلتمزَّق شياطين الجحيم روحكِ الحية إذا لم تخرجي من المحل هذه اللحظة».

- لا أعرف ذلك، لكنْ ماذا عن مدفأة سريري؟ المكان هناك ليس مناسبًا لامرأة محترمة، لقد حاولوا أن...

قال الموت بعيدًا: «إذا ذهبتي، فسأعطيكِ بعض المال».

قالت الطاهية بسرعة تفوق سرعة الأفعى المهاجمة وسرعة البرق: «كم؟».

أخرج الموت حقيبة نقوده وصبَّ كومة من العملات القديمة والسوداء على المنضدة، فنظرت إليها بريبة عميقة.

قال الموت: «الآن غادري على الفور. قبل أن تحرقك رياح الأبدية الحارقة».

قالت الطاهية بوجوم وهي تترك المحل: «سأخبر زوجي بهذا». بدا للموت أنه لا تهديد منه يمكن أن يكون بهذا السوء.

عاد خلال الستائر، ليجد كيبل الذي لا يزال متهاكًا في كرسيه، يصدر نوعًا من الغرغرة المختنقة.

قال كيبل: «كان ذلك حقيقياً! ظننت أنك كابوس!».

قال الموت: «قد أشعر بالإهانة مما قلته».

قال كيبل: «هل أنتَ الموت حقاً؟».

- أجل.

- لماذا لم تقل؟

- الناس عادةً يفضلون ألا أفعل.

بحث كيبل بين أوراقه، ضاحكًا بهستيرية، ثم قال: «هل تريد أن تفعل شيئاً آخر؟ أن تصبح جنية الأسنان؟ روح الماء؟ رجل الرمل؟».

- لا تكن أحمق. أنا ببساطة أشعر أنني أريد تغييراً.

وأخيراً وجد كيبل الورقة التي بحث عنها، فأطلق ضحكة مجنونة ودفعها إلى يدي الموت، فقرأ الموت الورقة، وسأله: «هل هذه وظيفة؟ هل يدفع الناس لفعل ذلك؟».

- نعم، نعم، اذهب وقابله، أنت النوع المناسب تمامًا. فقط لا تخبره أنني أرسلتك.

ركض بينكي بسرعة خلال الليل، والقرص يتدحرج بعيدًا تحت حوافره. اكتشف مورت الآن أن السيف قادر على الوصول إلى أبعد مما يعتقد، يمكنه الوصول إلى النجوم نفسها، ولَوْح به خلال أعماق الفضاء إلى قلب نجم قزم أصفر تحوّل إلى نجم نوبا متوهج بشكل مُرضٍ للغاية. نهض واقفًا في السرج ودوّر النصل حول رأسه ضاحكًا، فيما تشتعل الشعلة الزرقاء خلال السماء تاركةً وراءها أثرًا من الظلام والجمر.

ولم يتوقف. كافح مورت والسيف يقطع الأفق، ويطحن الجبال، ويجفف البحار، ويحوّل الغابات الخضراء إلى رماد. سمع أصواتًا خلفه، وصيحاتٍ قصيرة من الأصدقاء والأقارب وهو يستدير بيأس. هبّت عواصف الغبار من الأرض الميتة فيما قاتل لتحرير قبضته، لكنّ السيف توهّج ببرودة جليدية في يده، ليجرّه إلى رقصة لن تنتهي إلا بعد أن يفنى كل شيء حي.

وجاء ذلك الوقت، ووقف مورت وحيدًا باستثناء الموت، الذي قال: «عمل رائع يا فتى».

فقال مورت: «اسمي مورت».

- مورت! مورت! استيقظ!

قام مورت ببطء، مثل جثة في بركة. كافح ضد ذلك، متمسكًا بوسادته وأهوال النوم، لكنّ شخصًا ما كان يشدُّ أذنه بإلحاح، فقال: «مممف؟».

- مورت!

- ماذا؟

- مورت، إنه أبي!

فتح عينيه وحقق إلى وجه يزابيل بلا فهم. ثم تذكّر أحداث الليلة السابقة كأنها ضربته بجورب مملوء بالرمل الرطب.

أرجح مورت ساقيه خارج السرير، ولا يزال ملفوفاً في بقايا حلمه: «أجل، حسنًا. سأذهب لرؤيته على الفور».

قالت يزابيل: «إنه ليس هنا! ألبرت جُنَّ جنونه!»، ثم أكملت في أثناء وقوفها بجانب السرير، تشد منديلًا بين يديها: «مورت، هل تعتقد أن شيئًا سيئًا قد حدث له؟».

أعطاهما نظرة فارغة وقال: «لا تكوني غبية جدًا. إنه الموت»، ثم خدش جلده فشعر بالحرارة والجفاف والحكة.

قالت يزابيل: «لكنه لم يغب قط كل هذه المدة! حتى في وقت الطاعون الكبير في سودوبوليس! أعني، يجب أن يكون هنا في الصباح لمراجعة الحسابات وحساب العُقد و...».

أمسك مورت بذراعيها، وقال بأقصى ما يستطيع من هدوء: «حسنًا، حسنًا. أنا متأكد أن كل شيء على ما يرام. فقط اهدئي، سأذهب وأتفقد... لماذا تغمضين عينيك؟».

قالت يزابيل بصوت ضيق: «مورت، من فضلك ارتدِ بعض الملابس». نظر مورت إلى أسفل، ثم قال بخنوع: «آسف، لم أدرك... من وضعني في السرير؟».

- أنا. لكنني نظرتُ إلى الاتجاه الآخر.

ارتدى مورت سرواله بسرعة، ولبس قميصه وهُرِعَ نحو مكتب الموت تتبعه يزابيل. وجدا ألبرت هناك، يقفز من قدم إلى أخرى مثل بطة على صفيحة ساخنة. عندما دخل مورت، بدا الامتنان على وجه الشيخ تقريبًا. ورأى مورت بدهشة أن في عينيه دموعًا.

قال ألبرت متأوهًا: «كرسيه لم يُجلَس عليه».

قال مورت: «آسف، لكن هل هذا مهم؟ اعتاد جدي ألا يعود إلى المنزل عدة أيام إذا باع جيدًا في السوق».

قال ألبرت: «لكنه دائمًا هنا. كل صباح، طوال مدة معرفتي به، يجلس هنا في مكتبه ليعمل على العُقد. إنه عمله. لن يفوته».

- أتوقع أن العُقد قادرة على أن تعتني بنفسها يومًا أو يومين.

أخبره الانخفاض في درجة الحرارة أنه كان مخطئًا، فنظر إلى وجوههم وقال: «لا يمكنها؟».

هزَّ ألبرت ويزابيل رأسيهما نفياً، وقالت يزابيل: «إذا لم تُحسب العُقد بشكل صحيح، يُدمر التوازن كله. يمكن لأي شيء أن يحدث».

قال ألبرت: «ألم يشرح لك الموت ذلك؟».

أجابه مورت: «ليس حقًا. لقد أدتُ الجانب العملي فقط. قال إنه سيخبرني بالأشياء النظرية لاحقًا».

انفجرت يزابيل في البكاء.

أخذ ألبرت ذراع مورت، وبكثير من التحريك الدرامي لحاجبيه، أشار إلى أنهما يجب أن يتحدثا قليلاً في الزاوية. تبعه مورت بتردد، فيما بحث الشيخ في جيوبه وأخيرًا أخرج كيسًا ورقيًا مهترئًا، وقال: «أتريد نعناعًا؟».

فهزَّ مورت رأسه.

قال ألبرت: «ألم يخبرك بالعُقد قط؟».

هزَّ مورت رأسه مرة أخرى، فامتصَّ ألبرت قطع حلوى النعناع، بصوت بدا كأنه فتحة السدادة في حوض استحمام الإله، ثم قال: «كم عمرك يا فتى؟».

- اسمي مورت. وعمري ستة عشر عامًا.

قال ألبرت، وهو ينظر خلف كتفه إلى يزابيل التي كانت تبكي في كرسي الموت: «هناك بعض الأشياء التي يجب أن يعرفها الفتى قبل أن يبلغ السادسة عشرة».

- أوه، أعرف ما تعنيه. أخبرني والذي كل شيء عن ذلك عندما كنا نأخذ حيوانات الثارجا للتزاوج. عندما يكون الرجل والمرأة....».

قال ألبرت بسرعة: «ما أقصده هو الكون. أعني، هل فكرت في ذلك من قبل؟».

قال مورت: «أعلم أن القرص محمول خلال الفضاء على ظهور أربعة فيلة تقف على صدفة آتوين العظيم».

- هذا جزء منه فقط. قصدتُ الكونَ بأكمله بما فيه من الزمان والمكان والحياة والموت والليل والنهار وكل شيء.

- لا أستطيع أن أقول إنني فكرت في ذلك كثيرًا.

- آه. يجب أن تفكر فيه. فالأمر هو، العُقد جزء منه. إنها تمنع الموت من الخروج عن السيطرة. ليس هو، ليس الموت. فقط الموت نفسه. مثل، آه...»، كافح ألبرت للعثور على الكلمات، فقال: «مثل، يجب أن يأتي الموت بالضبط في نهاية الحياة، ترى، ليس قبل أو بعد، ويجب أن تُحسب العقد بحيث تكون الشخصيات الرئيسية... أنت لا تستوعب هذا، أليس كذلك؟».

- آسف.

قال ألبرت بشكل قاطع: «يجب أن تُحسب. ثم يجب أن تحصل على الأرواح الصحيحة، أو ما تسميها الساعات الرملية. الواجب الفعلي هو العمل السهل».

- هل يمكنك فعل ذلك؟

- لا. هل تستطيع أنت؟

- لا!

مصّ ألبرت نعناعه بتأمل، ثم قال: «إذن، سيقع العالم كله في حالة فوضى».

قال مورت: «انظر، لا أستطيع أن أفهم سبب قلقك الشديد. أظن أنه تأخر في مكان ما»، لكن بدا ظنه ضعيفاً حتى بالنسبة إليه. لم يكن كأنّ الناس احتجزوا الموت ليحكوا له قصة أخرى، أو صفعوا ظهره وقالوا له أشياء مثل: «لديك وقت لتناول الشراب يا صديقي الشيخ، لا حاجة إلى الإسراع إلى المنزل»، أو يدعوه إلى الانضمام إلى فريق لعبة البولنج ويخرجوا لتناول عشاء كلاتشي بعد ذلك، أو... أدرك مورت فجأة، بحزن رهيب، أنه لا بُدَّ أن الموت هو الكائن الأكثر وَحْدَةً في الكون. في حفلة الخلق الكُبرى، ظلَّ الموت دائماً في المطبخ.

تمتم ألبرت: «أنا متأكد من أنني لا أعرف ما الذي حدث للسيد مؤخراً. ابتعدي عن الكرسي يا فتاتي. دعونا نلقِ نظرة على تلك العُقْد». فتحو الدفتر، فنظروا إليه مدةً طويلةً. ثم قال مورت: «ماذا تعني كل تلك الرموز؟».

قال ألبرت بخفوت: «سودومي نون سابينس».

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنني مُشوَّش إذا كنت أعلم.

قال مورت: «كان ذلك حديث السحرة، أليس كذلك؟».

- لا تقل شيئاً عن حديث السحرة. لا أعرف شيئاً عن حديث السحرة. ركّز عقلك على هذا هنا.

نظر مورت مرةً أخرى إلى شبكة الخطوط. بدتْ كأنَّ عنكبوتًا نسج شبكة على الصفحة، متوقفًا عند كل تقاطع لتدوين ملاحظات. حدَّق مورت منتظرًا شرارةً من الإلهام إلى أن آلمته عيناه، فلم تأتِ أي شرارة إلهام.

- هل وجدتَ شيئًا؟

قال مورت: «إنه كله باللغة الكلاتشية. لا أعرف حتى أكان يجب قراءته من أعلى إلى أسفل، أم من جانب إلى آخر».

قالت يزابيل وهي تشهق من مقعدها في الزاوية: «تدور في دوائر من المركز نحو الخارج».

تجاورت رؤوسهم فيما كانوا ينظرون إلى وسط الصفحة. حدَّقوا إليها، ثم هزتْ يزابيل كتفيها وقالت: «علَّمني والذي كيفية قراءة مخطط العُقد. عندما اعتدتُ الخياطة هنا. كان يقرأ لي بعض الأجزاء».

قال مورت: «هل يمكنكِ المساعدة؟».

قالت يزابيل: «لا»، ثم نفختْ أنفها.

زأر ألبرت: «ماذا تقصدين بلا؟ هذا أكثر أهمية من مزاج متقلب...».

قالت يزابيل بنبرة حادة: «أعني، أنني أستطيع فعلها وأنتم من يمكنكم المساعدة».

أصبحتْ نقابة التجار في عنخ-موربورك توظِّف عصابات كبيرة من الرجال ذوي الأذان التي تشبه القبضات، والقبضات التي تشبه أكياسًا كبيرة من الجوز، يتلخص عملهم في إعادة تعليم هؤلاء الأشخاص المضللين الذين يُخفِّقون في الاعتراف العلني بالعديد من النقاط الجذابة في مدينتهم الجميلة. على سبيل المثال، عُثِرَ على الفيلسوف

كاتروستر طافياً ووجهه نحو الأسفل في النهر بعد ساعات قليلة من التفوّه بالعبارة الشهيرة: «يضيق الرجل ذرعاً من عنخ-موربورك، كضيقة من وحل يصل إلى الكعب».

لذلك من الحكمة التحدث عن أحد -من بين العديد طبعاً- الأشياء التي تجعل عنخ-موربورك مشهورة بين المدن العظيمة في الكون المتعدد.

وهذا الشيء هو طعامها.

تمرُّ طرقُ التجارة الخاصة بنصف القرص خلال المدينة أو خلال نهرها البطيء. أكثر من نصف القبائل والأجناس في القرص لديهم ممثلون يعيشون في أفدنتها مترامية الأطراف. في عنخ-موربورك تتصادم المطابخ العالمية: ففي القائمة يوجد ألف نوع من الخُضَر، ألف وخمسمئة نوع من الجبن، ألفا نوع من التوابل، ثلاثمئة نوع من اللحوم، مئتا نوع من الطيور، وخمسمئة نوع مختلف من الأسماك، مئة نوع مختلف من المكرونة، وسبعون بيضةً من نوع أو آخر، وخمسون حشرة، وثلاثون نوعاً من الرخويات، وعشرون نوعاً من الثعابين والزواحف الأخرى، وشيء بني شاحب ومملوء بالتآليل يعرف باسم كمأة المستنقعات المهاجرة الكلاتشية.

تتنوع فيها أماكن تناول الطعام من الفاخرة، حيث تقل كميات الطعام فيها لكنَّ أطباقها فضية، إلى الأماكن السرية حيث يُشاع أن بعض السكان الأكثر غرابة في القرص يأكلون أيَّ شيء يمكنهم ابتلاعه على مرتين.

ربما لا يُعدُّ منزل أضلاع هارجا بجانب الميناء من بين المطاعم الرائدة في المدينة، إذ يُلبّي احتياجات نوعية الزبائن الممثلين الذين يفضلون الكميات الكبيرة ويكسرون المناضد إذا لم يحصلوا عليها. لا يهتمون

بالفاخر أو الغريب، بل يلتزمون الطعام التقليديّ مثل أجنة الطيور غير الطائرة، الأعضاء المفرومة في جلود الأمعاء، شرائح لحم الخنزير وبذور العشب المحروق المغموسة في الدهون الحيوانية؛ أو كما يُعرف في لهجتهم المحلية، البيض، والسجق، واللحم المقدد والبطاطس المقلية. كان من نوعية المطاعم التي لا تحتاج إلى قائمة طعام. فقط تنظر إلى قميص هارجا الداخلي.

ومع ذلك، كان عليه أن يعترف، أن هذا الطباخ الجديد يبدو ممتازًا. ابتسم هارجا الذي يظهر كإعلان صريح لبضاعته عالية الكربوهيدرات، بعدما رأى المكان مليئًا بالزبائن الراضين. هذا الطباخ الجديد يعمل بسرعة أيضًا! في الواقع، بسرعة مزعجة.

طَرَقَ هارجا النافذة، وقال للطباخ الجديد بصوت أجش: «بيضة بصفارين، ورقائق بطاطس، وفاصولياء، وبرجر الترول دون بصل». أجابه الموت: «حسنًا».

انفتحت النافذة إلى أعلى بعد بضع ثوانٍ وخرج من خلالها طبقان. فهزَّ هارجا رأسه بامتنان.

هكذا كان الأمر طوال المساء. البيض مُشْرِقٌ ولامع، والفاصولياء تتلألأ مثل الياقوت، ورقائق البطاطس ذهبية مقرمشة مثل أجسام محترقة بالشمس على شواطئ باهظة الثمن. الطباخ السابق لهارجا كان يُخْرِجُ رقائق البطاطس كأنها أكياس ورقية صغيرة ملأى بالصديد. نظر هارجا حوله في أرجاء المقهى المملوء بالبخار، فلم يجد أحدًا يراقبه. كان عازمًا على كشف هذا اللغز، فطرق الفتحة مرة أخرى، وقال: «شطيرة تمساح. واجعلها سريعة...».

انفتحتِ الفتحة فجأة. بعد بضع ثوانٍ ليجمع شجاعته، نظر هارجا تحت الشريحة العليا من الشطيرة الطويلة أمامه. لا يمكن القول إنها تمساح، ولا أنها ليست كذلك. فطرق الفتحة مرة أخرى، وقال: «حسنًا، لست أشكو. أريد فقط أن أعرف كيف فعلت ذلك بسرعة».

أجابه الموت: «الوقت غير مهم».

- حقًا؟

- صحيح.

قرر هارجا ألا يُجادِل، فقال: «حسنًا، إنك تعمل عملًا رائعًا هناك يا فتى».

- ماذا يُسمَّى عندما تشعر بالدفء والرضا وتتمنى أن تبقى الأمور على هذا النحو؟

- أعتقد أنك تسميها السعادة.

داخل المطبخ الصغير الضيق، المتراكم بالشحم لعقود، تحرَّك الموت ودار من مكان إلى آخر، يقصُّ ويقطِّع ويقلي، فلمعت مقلاة الموت خلال البخار العفن.

لقد فتح الباب لهواء الليل البارد، فدخلت عشرات من قطط الحي، بعد أن جذبتها أوعية الحليب واللحم -بعض أفضل ما لدى هارجا، لو كان يعلم- التي وُضِعَتْ باستراتيجية حول الأرض. أحيانًا توقَّف الموت عن عمله ليداعب إحدى القطط خلف الأذنين.

قال الموت: «السعادة»، مدهوشًا من نبرة صوته.

صعد كاتويل، الساحر والمُتعرِّف الملكي بالتعيين، آخر درجات البرج واتكأ على الجدار، منتظرًا إلى أن يتوقف قلبه عن الخفقان بقوة.

في الحقيقة، لم يكن هذا البرج عاليًا بشكل خاص، لكنه عالٍ فقط بالنسبة إلى ستولات. وفي التصميم العام والشكل، بدا البرج المعتاد لحبس الأميرات فيه، واستُخدم في الغالب لتخزين الأثاث القديم. ومع ذلك، تمتع بإطلالات لا تُضاهى على المدينة وسهل ستو، أي إنك تستطيع رؤية كمية كبيرة من الكرب.

وصل كاتويل إلى الشرفات المتهالكة في أعلى الجدار ونظر إلى ضباب الصباح. ربما كان الضباب أكثر كثافةً من المعتاد. إذا حاول جدية، يمكنه تخيل وميض في السماء. وإذا أجهد خياله حقًا، يمكنه سماع طنين فوق حقول الكرب، صوت يشبه شخصًا يقلي الجراد، فأصابته ارتجافة.

في وقت مثل هذا، فتشت يداه تلقائيًا في جيوبه، فلم يجد سوى نصف كيس من حلوى الجيلي التي ذابت وتحولت إلى كتلة لزجة، ونواة تفاح. لم يقدم أي منهما الكثير من العزاء.

ما أُراده كاتويل هو ما يريده أي ساحر عادي في مثل هذا الوقت، وهو تدخين سيجارة. كان ليقول من أجل سيجارة، وكان سيقبل بأي جروح جسدية من أجل عقب سيجارة مدعوسة. لكنه تمالك نفسه. فالعزم مفيد للإرادة الداخلية؛ المشكلة الوحيدة أن إرادته الداخلية لم تُقدّر التضحيات التي يقدمها من أجلها. يُقال إن الساحر العظيم حقًا يجب أن يكون في اضطراب دائم. وكاتويل مضطرب دائمًا كوتر قوس. أدار ظهره لمنظر حقول الكرب وعاد إلى أسفل الدرج الحلزوني إلى الجزء الرئيسي من القصر.

ومع ذلك، أخبر نفسه أن الحملة بدت كأنها تعمل. لم يبدو أن السكان يقاومون حقيقة أن هناك تنويجًا سيحدث، رغم أنه لم يتضح تمامًا من سيُتوج. ستوضع الزينة في الشوارع ورتب كاتويل لأن تعمل النافورة

الرئيسية في الساحة، وإن لم تتدفق بالنبيذ، فعلى الأقل بجعة مقبولة مصنوعة من البروكلي. سيحدث رقص شعبي، وبالسيف إن لزم الأمر. وسباقات للأطفال. وشواء لثور. وجُددت عربة الملك الملكية بالذهب، فتفاءل كاتويل بأنه يمكن إقناع الناس بملاحظتها وهي تمر.

رئيس كهنة معبد الإله إيو المكفوف سيكون مشكلة. اعتبره كاتويل روحًا طيبة قديمة، وخبرته في استعمال السكين غير موثوقة لدرجة أن نصف التضحيات كانت تتعب من الانتظار وتتجول بعيدًا. آخر مرة حاول فيها التضحية بماعز، كان لديها الوقت الكافي لولادة توأمين قبل أن يتمكن رئيس الكهنة من التركيز، ثم طاردت الماعزُ بدافع من شجاعة الأمومة الكهنةً بالكامل خارج المعبد.

فرصته في وضع التاج على الشخص المناسب بنجاح حتى في الظروف العادية تكاد تكون متوسطة، كما حسب كاتويل، لذا كان عليه أن يقف بجانب الشيخ ويحاول بتكتيك أن يوجّه يديه المرتعشتين.

ومع ذلك، لم تكن تلك هي المشكلة الكبرى. فالمشكلة الكبرى أكبر بكثير من ذلك، وقد أخبره بها المستشار بعد الإفطار.

قال كاتويل: «الألعاب النارية؟».

قال المستشار بقسوة كقشرة رغيف قديم: «هذا النوع من الأشياء التي يُفترض أن تكونوا أيها السحرة بارعين فيها، أليس كذلك؟ البريق والفرقعات وما إلى ذلك. أذكر ساحرًا عندما كنت صبيًا...».

قال كاتويل بنبرة تهدف إلى إظهار أنه يعتزُّ بهذا الجهل: «أخشى أنني لا أعرف أي شيء عن الألعاب النارية».

تذكّر المستشار بسعادة: «الكثير من الصواريخ. شموع مدينة عنخ. فرقعات الرعد. وأشياء يمكن أن تمسك بها في يدك. لا يصحُّ التتويج دون الألعاب النارية».

- نعم، لكن، ترى...

قال المستشار بلهجة متسرفة: «رجل جيد. علمتُ أننا يمكننا الاعتماد عليك. الكثير من الصواريخ، أتفهمني؟ ويجب أن يوجد مشهد خاص للختام، تذكّر، شيء مذهل حقًا مثل صورة لـ... لـ...»، ثم تبادلت عيناه بطريقة أصبحت مألوفة بشكل محبط لكاتويل.

قال كاتويل بتعب: «الأميرة كيلى».

قال المستشار: «آه. نعم. هي. صورة لـ... لها، بالألعاب النارية. هذه أمور بسيطة طبعًا بالنسبة إليكم معشر السحرة، لكنّ الناس يحبونها. لا شيء مثل انفجار جيد واحتفالية وضجة صغيرة من الشرفة للحفاظ على عضلات الولاء في أفضل حال، هذا ما أقوله دائمًا. اهتمّ بالأمر. صواريخ. وعليها حروف رونية».

قبل ساعة، أخذ كاتويل يبحث في فهرس كتاب «المرح الوحشي» السحري، فجمع بحذر عددًا من المكونات المنزلية الشائعة وأشعلها.

قال كاتويل متأملًا: «الشيء الغريب بشأن الحواجب، أنك لا تلاحظها حقًا إلى أن تختفي».

بعينين حمراوين، ورائحة خفيفة من الدخان تنبعث منه، تمشّى كاتويل نحو الشقق الملكية متجاوزًا مجموعة من الخادמות المنخرطات في ما كنّ يفعلنه، والذي يبدو دائمًا أنه يستلزم ثلاثًا منهم على الأقل. كلما رأين كاتويل، عادةً ما يصمتن، ويسرعن في المرور برؤوس منحنية ثم ينفجرن في ضحكات مكتومة على طول الممر. فأزعج هذا كاتويل، وفكّر داخل نفسه بسرعة أن ذلك ليس بسبب أي اعتبارات شخصية، بل لأن السحرة يجب أن يُظهرَ لهم مزيد من الاحترام. بالإضافة إلى ذلك، بعض الخادמות لديهنّ طريقة في النظر إليه تجعله يفكر أفكارًا غير سحرية بشكل واضح.

فكَّر بداخله قائلاً: «حقًا، طريق التنوير يشبه نصف ميل من الزجاج المكسور».

طرق كاتويل بابَ جناح كيلى، ففتحت خادمة الباب.

قال بأكبر قدر من التعالي الذي استطاع أن يتحلى به: «هل سيدُكِ في الداخل؟».

وضعتِ الخادمة يدها على فمها. اهتزَّت كتفها ولمعت عيناها. تسلل صوت يشبه هروب البخار بين أصابعها.

فكَّر كاتويل أنه لا يمكنه منع نفسه، يبدو أنه يملك تأثيرًا مذهلاً في النساء.

جاء صوت كيلى من الداخل: «هل هو رجل؟». فلمعت عينا الخادمة ببريق زجاجي وأمالت رأسها، كما لو لم تكن متأكدة مما سمعت.

قال كاتويل: «إنه أنا، كاتويل».

- آه، حسنًا، يمكنك الدخول.

دفع كاتويل الفتاة وحاول تجاهل الضحك المكتوم عندما هربت الخادمة من الغرفة. طبعًا، يعلم الجميع أن الساحر لا يحتاج إلى مرافق. فقط نبرة «آه، حسنًا» التي قالتها الأميرة جعلته يشعر بالحرَج الداخلي. جلسَتْ كيلى إلى منضدة الزينة، تمسَّط شعرها. قليل من الرجال في العالم يعلمون ما ترتديه أي أميرة تحت فساتينها، وانضمَّ كاتويل إليهم بتردد شديد لكن بتحكم ذاتي ملحوظ. لا شك أنه لن يصبح جيدًا في السحر لأيام قادمة.

استدارت وشمَّ رائحة مسحوق التلك. تَبَّأ، الأيام ستصبح أسابيع.. أسابيع.

قالت: «تبدو محمومًا قليلًا يا كاتويل. هل هناك شيء ما؟».

- آآآ...

- معذرة؟

هزّ نفسه. وقال في نفسه: «رُكِّز على فرشاة الشعر، يا رجل، فرشاة الشعر». قال: «فقط بعض التجارب السحرية، سيدتي. حروق سطحية فقط».

- هل لا يزال الحاجز يتحرك؟

- أخشى ذلك.

استدارت كيلبي إلى المرأة مرة أخرى بوجه متجهم، وقالت: «هل لدينا وقت؟».

هذا هو الجزء الذي يهابه. لقد فعل كل ما يمكنه فعله. توقف المنجم الملكي عن شرب الخمر مدةً كافيةً ليصرَّ على أن الغد هو اليوم الوحيد الممكن لإقامة الحفل، لذا نظَّمه كاتويل ليبدأ بعد ثانية واحدة من منتصف الليل. فقلَّص بشدة مدةً عزف الأبواق الملكية. حدَّد توقيت استدعاء الكاهن الأعظم للآلهة ثم عدَّله بشدة؛ سينشب خلاف عندما تكتشف الآلهة ذلك. حفل الدهن بالزيوت المقدسة قد اختُصِرَ إلى مسحة سريعة خلف الأذنين. لم تكن ألواح التزلج معروفة في عالم القرص؛ إن كانت كذلك، لصارت رحلتها في الممر سريعة بشكل غير دستوري. ومع ذلك، لم يكن ذلك كافياً. أخذ نفساً عميقاً، وقال: «أعتقد أنه ربما لا نملك وقتاً كافياً. قد يكون الأمر قريباً جداً».

رأها تنظر إليه في المرأة بحدة، فقالت: «قريباً لأي درجة؟».

- ممم. جداً.

- أتحاول أن تقول إن الحاجز قد يصل إلينا في نفس وقت الحفل؟

قال كاتويل بأسى: «ممم. بل قد يصل قبله... نوعاً ما».

لم يكن هناك صوت سوى طقطقة أصابع كيلى على حافة المنضدة. تساءل كاتويل أكانت ستنهار، أو تكسر المرأة. بدلاً من ذلك، قالت: «كيف تعرف؟».

تساءل أكان يمكنه الإفلات بقول شيء مثل، أنا ساحر، نعرف هذه الأشياء، لكنه قرّر ألا يفعل ذلك. فأخّر مرة قال فيها ذلك، هددته بالفأس. قال: «سألتُ أحد الحراس عن ذلك النُّزْل الذي تحدث عنه مورت. ثم حسبْتُ المسافة التقريبية التي يجب أن يقطعها. قال مورت إنه تحرّك بوتيرة مشي بطيئة، وأعتقد أن خطوته تقريباً...».

- بهذه البساطة؟ ألم تستخدمِ السحر؟
- فقط بالإحساس الفطري. إنه أكثر قابلية للثقة على المدى الطويل. مدتُ يدها وربتتُ يده، وقالت: «أيها الشيخ المسكين».
- عُمرى عشرون عاماً فقط يا سيدتي.
وقفتُ كيلى ومشتُ نحو غرفة ملابسها. إحدى الأشياء التي تتعلمها إذا كنت أميرة هي أن تكون دائماً أكبر سنّاً من أي شخص ذي رتبة أقل. قالت دون أن تستدير بوجهها: «نعم، أعتقد أنه يوجد سحرة شباب. يظن الناس دائماً أن جميع السحرة كبار في السن. أتساءل لماذا؟».
قال كاتويل بضجر: «مشاق المهنة يا سيدتي»، وكان بإمكانه سماع حفيف الحرير.

قالت كيلى بصوت مكتوم، كأنَّ هناك شيئاً فوق رأسها: «ما الذي جعلك تقرر أن تصبح ساحراً؟».

قال كاتويل: «إنها وظيفة في مكان مغلق دون رفع أوزان ثقيلة. وأعتقد أنني أردتُ أن أتعلم كيف يعمل العالم».

- إذن، هل نجحت؟

- لا.

لم يكنْ كوتويل جيدًا في المحادثات القصيرة، وإلا لما سمح لعقله بالشروء إلى درجة السماح له بقول: «ما الذي جعلك تقرر أن تصبحي أميرة؟».

بعد صمت متأمل، قالت: «لقد تقرر لي، كما تعلم».

- آسف، أنا...

- كوني ذات منصب ملكي هو تقليد أسري نوعًا ما. أتوقع أن الأمر نفسه ينطبق على السحر؛ لا شك أن والدك كان ساحرًا، أليس كذلك؟

كزَّ كوتويل أسنانه، وقال: «ممم. لا. ليس حقًا. في الواقع، على الإطلاق».

عرف ما ستقوله بعد ذلك، وها هو يأتي، جاد كغروب الشمس، بصوت يغمسه التسلية والافتتان.

- أوه؟ صحيح حقًا أن السحرة لا يُسمح لهم ب...

قال كاتويل بصوت عالٍ: «حسنًا، إذا كان هذا كل شيء، فيجب أن أذهب الآن. إذا كان أحد يريدني، فقط اتبعوا الانفجارات. أنا...!!!!!!».

لقد خرجتُ كيلى من غرفة الملابس.

الآن، لم يُشغل كاتويل كثيرًا بملابس النساء - في الواقع، عندما كان يفكر في النساء، كانت صورته الذهنية نادرًا ما تشمل أي ملابس على الإطلاق - لكنَّ ما يراه أمامه حبس أنفاسه حقًا. من صمم هذا الفستان لم يعرف متى يتوقف. لقد وضع الدانتيل فوق الحرير، وزينه بالحشرات السود، ووضع اللؤلؤ في أي مكان يبدو فارغًا، ونفخ الأكمام ثم أضاف التفضيض الفضّي ثم بدأ مرة أخرى بالحرير.

في الواقع، كان مذهلاً بحق ما يمكن فعله بعدة أوقيات من المعادن الثقيلة، وبعض الرخويات المزعجة، وعدد قليل من القوارض الميتة والكثير من الخيوط المستخرجة من قيعان الحشرات. لم يُصنَع الفستان كي يُرتدى بقدر ما صُنِعَ ليُحتل، وما لم تكن الأطراف الخارجية مدعومة بعجلات، فإن كيلى أقوى مما اعتقد.

قالت وهي تدور ببطء: «ما رأيك؟ لقد ارتدته أمي، ومن قبلها جدتي، وأمها».

قال كاتويل، مستعداً تماماً لتصديق ذلك: «ماذا، جميعاً معاً؟». ليتساءل بداخله عن كيف أمكنها أن تدخل فيه؟ لا بُدَّ أن هناك باباً في الخلف...

- إنه إرث أسري. يحتوي على ماسات حقيقية على الصدر.

- أي جزء هو الصدر؟

- هذا الجزء.

ارتجف كاتويل وقال بعدما استطاع أن يثق بنفسه للحديث: «إنه مثير للإعجاب جداً. ألا تعتقدين أنه يناسب من هو أكبر سنّاً؟». - إنه فستان ملكي.

- نعم، لكن ربما لن يسمح لك بالتحرك بسرعة؟

- ليست لدي أي نية للركض. يجب أن أظهر بكرامة.

مرة أخرى، بدا فكها شبيهاً بفكوك خط نسبها وصولاً إلى جدها الفاتح، الذي فضّل التحرك بسرعة دائماً وعرف عن الكرامة بقدر ما يُمكن حمله على طرف رمح حاد.

فتح كاتويل ذراعيه وقال: «حسنًا. جيد. كل منا يفعل ما بوسعه. آمل فقط أن يمتلك مورت بعض الأفكار».

- من الصعب أن تضع ثقتك بشبح. إنه يمشي خلال الجدران!
- لقد فكرتُ في ذلك الشأن. إنه لغز، أليس كذلك؟ إنه يمشي خلال الأشياء فقط إذا لم يعرف أنه يفعل ذلك. أعتقد أنه مريض صناعي.
- ماذا؟

- كنتُ شبه متأكد الليلة الماضية. إنه يصبح حقيقياً.
- لكننا جميعاً حقيقيون! على الأقل، أنت حقيقي، وأعتقد أنني كذلك.
- لكنه يصبح أكثر حقيقية. حقيقياً للغاية. تقريباً حقيقياً كالموت، ولا يوجد ما هو أكثر حقيقية منه. على الإطلاق.

قال ألبرت بلهجة متشككة: «هل أنت متأكدة؟».

قالت يزابيل: «طبعاً. احسبها بنفسك إذا أردت».

نظر ألبرت إلى الكتاب الكبير، وقد ارتسم عدم اليقين على وجهه بوضوح، ثم اعترف بعدم رضا: «حسناً، قد يكونون على حق»، ثم نسخ الاسمين على قطعة من الورق، ليُكَمِّل: «هناك طريقة واحدة فقط لمعرفة ذلك، على أي حال».

فتح الدرج الأعلى في مكتب الموت، وأخرج منه حلقة مفاتيح معدنية كبيرة، لم يكن بها سوى مفتاح واحد فقط.

قال مورت بصوت يشبه صوت الموت: «ماذا سيحدث الآن؟».

قال ألبرت: «علينا إحضار مؤقتات الحياة. يجب أن تأتي معي».

همست يزابيل: «مورت!».

- ماذا؟

قالت يزابيل: «ما قلته للتو...»، ثم توقفت عن الكلام، أضافت بعدها: «آه، لا شيء. فقط بدا... غريبًا».

قال مورت: «لقد سألت فقط ماذا سيحدث الآن».

- نعم، لكن... آه، لا يهم.

تجاوزهما ألبرت وسار في الممر مثل عنكبوت ذي ساقين حتى وصل إلى الباب الذي ظلَّ مُغلقًا دائمًا. تطابق المفتاح تمامًا، وانفتح الباب. لم ينتج صرير من مفاصله، مجرد صمت أعمق.

وهدير الرمال المتدفقة.

وقف مورت ويزابيل في المدخل، مذهولين، فيما سار ألبرت بين الصفوف الزجاجية. لا يدخل الصوت إلى الجسم من خلال الأذنين فقط، بل يأتي من خلال الأرجل ومن أعلى الرأس ليملاً الدماغ حتى لم يعد بإمكانه التفكير في أي شيء آخر سوى ضجيج الهسيس الرمادي، صوت ملايين الحيوانات فيما تُعاش، وتندفع نحو مصيرها الحتمي.

نظروا إلى صفوف مؤقتات الحياة التي لا تنتهي، كل واحدة مختلفة، وكل واحدة تحمل اسمًا. أُضيئت بضوء المشاعل المصفوفة على الجدران، بحيث لمع نجم على كل زجاجة. فاخفت جدران الغرفة البعيدة في مجرة الضوء.

شعر مورت بأصابع يزابيل تضغط على ذراعه، وعندما تكلمت، أتي صوتها مختنقًا: «مورت، بعضها صغير جدًا».

قال مورت بصوت الموت العميق: «أعرف».

استرخت قبضتها بلطف، مثل شخص يضع ورقة الجوكر على بيت من الورق ويسحب يده بحذر حتى لا يهدم كل البناء.

قالت بهدوء: «قل ذلك مرة أخرى».

قال بصوته العادي: «قلت أعرف. لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك. ألم تدخلني هنا من قبل؟».

قالت يزابيل: «لا»، ثم تراجعت قليلاً، وحدّقت إلى عينيه.

قال مورت: «إنها ليست أسوأ من المكتبة»، وكاد يصدق ذلك. لكن في المكتبة تقرأ فقط عن الأمر؛ هنا يمكنك أن ترى ذلك يحدث. ثم أضاف: «لماذا تنظرين إليّ هكذا؟».

قالت: «كنتُ أحاول تذكر لون عينيك، لأن...».

صاح ألبرت فوق هدير الرمال: «إذا كنتما قد اكتفيتما من بعضكما! فلتأتيا من هذا الطريق!».

قال مورت ليزابيل: «بُنيّة. إنها بُنيّة اللون. لماذا؟».

صاح ألبرت: «أسرعاً!».

قالت يزابيل: «من الأفضل أن تذهب وتساعده. يبدو أنه بدأ ينزعج حقاً».

تركها مورت، وعقله أصبح مستنقِعاً من القلق المفاجئ، وتوجّه خلال الأرضية ذات البلاط إلى حيث وقف ألبرت متمللاً ينقر بقدمه، ثم قال: «ماذا يجب أن أفعل؟».

أجابه ألبرت: «اتبعني فقط».

انفتحتِ الغرفة إلى سلسلة من الممرات، كل واحد منها مصفوف بالساعات الرملية. قُسِّمَتِ الأرفف بكل مكان بأعمدة حجرية محفورة بعلامات زوايا. ألقى ألبرت نظرات عليها من حين إلى آخر؛ بشكل أساسي سار خلال متاهة الرمال كأنه يعرف كل منعطف بقلبه.

- هل هناك ساعة رملية لكل شخص، ألبرت؟

- أجل.

- هذا المكان لا يبدو كبيرًا بما يكفي.

- هل تعرف أيَّ شيء عن التضاريس ذات أبعاد الميم؟

- مممم. لا.

- إذن لو كنتُ مكانك، فيجب ألا تطمح إلى تكوين أي آراء.

توقف ألبرت أمام رف من الساعات الرملية، نظر إلى الورقة مرة أخرى، مرَّر يده على الصف وفجأة اختطف ساعة رملية جزءها العلوي شبه فارغ، وقال: «أمسك هذا. إذا كان هذا صحيحًا، فلا بدُّ أن الأخرى قريبة. آه. ها هي».

أدار مورت الساعتين الرمليتين في يديه. واحدة منهما احتوت على جميع العلامات لما تبدو أنها حياة هامة، وكانت الأخرى قصيرة وغير ملحوظة.

قرأ مورت الأسماء. الأولى بدت أنها تشير إلى نبيل في مناطق الإمبراطورية الأجتية. والثانية كانت مجموعة من الرسوم التصويرية التي تعرَّفها من أصولها في كلاتش مع اتجاه الدوران.

قال ألبرت بسخرية: «دورك. كلما بدأت أسرع، انتهيت أسرع. سأحضر بينكي إلى الباب الأمامي».

قال مورت بقلق: «هل يبدو لك أن عينيَّ بخير؟».

قال ألبرت: «لا شيء خطأ فيهما مما أرى. حمراوان قليلًا حول الحواف، أكثر زرقة من المعتاد قليلًا، لا شيء مميز».

تبعه مورت عائدًا خلال الأرفف الزجاجية الطويلة وهو يفكر. شاهدته يزابيل وهو يأخذ السيف من الرف بجانب الباب ويختبر حافته بتمريره في الهواء، تمامًا كما يفعل الموت، مبتسمًا ابتسامة لا تحمل أي مرح عند سماعه هزيم الرعد المُرَضِي.

تعرفتُ طريقة مشيه. كان يتقدم بخطوات طويلة، فهمست:
«مورت؟»

أجابها بصوت عميق: «نعم؟».

- شيء ما يحدث لك.

قال مورت بصوته العميق: «أعلم ذلك»، ثم أكمل بصوته العادي:
«لكنني أعتقد أنني أستطيع التحكم فيه».

سمعا صوت الحوافر في الخارج، ودفع ألبرت الباب ودخل وهو
يفرك يديه قائلاً: «حسنًا، يا فتى، لا وقت لـ...».

أدار مورت السيف بطول ذراعه، فمرَّ خلال الهواء بصوت يشبه
تمزق الحرير ودفن نفسه في إطار الباب بجانب أذن ألبرت.

قال مورت بصوته العميق: «اجثُ على ركبتيك يا ألبرتو ماليش».

انفتح فم ألبرت بدهشة. دارت عيناه في الاتجاهين نحو الشفرة
اللامعة على بعد بضع بوصات من رأسه، ثم ضاقتا كخطين ضيقين
وقال: «بالتأكيد لن تجرؤ يا فتى».

- اسمي مورت.

انطلقتِ الجملة بسرعة مثل ضربة سوط، وبضعفي شدة شراستها.
قال ألبرت بصوت يحمل شذرة من الشك: «هناك عهد. هناك اتفاق».

- ليس معي.

- هناك اتفاق! أين ستنتهي بنا الحال إذا لم نتمكن من احترام
الاتفاق؟

قال مورت بنعومة: «لا أعلم أين سأكون»، ثم أكمل بصوته العميق:
«لكنني أعلم أين ستذهب أنت».

قال ألبرت منتحبًا: «هذا ليس عدلاً!».

أجابه مورت بالصوت العميق: «لا يوجد عدل. هناك أنا فقط».

قالت يزابيل: «توقف عن ذلك. مورت، إنك تتصرف بسخافة. لا يمكنك قتل أحد هنا. وعلى أي حال، لا تريد قتل ألبرت حقًا».

- ليس هنا. لكنني أستطيع أن أعيده إلى العالم.

شحب وجه ألبرت وقال: «لن تفعل ذلك!».

قال مورت: «لا يمكنني؟ يمكنني أن أعيدك وأتركك هناك. لا أعتقد أن لديك الكثير من الوقت المتبقي، أليس كذلك؟»، ثم بصوته العميق: «أليس كذلك؟».

قال ألبرت دون أن يجرؤ على النظر في عينيه: «لا تتحدث بهذا الشكل. تبدو مثل السيد عندما تتحدث بهذه الطريقة».

قال مورت بهدوء: «يمكنني أن أكون أسوأ بكثير من السيد. يزابيل، أيمكنك الذهاب وإحضار كتاب ألبرت؟».

- مورت، أعتقد حقًا أنك...

صاح بصوته العميق: «هل سأكرر طلبتي؟».

فهربت من الغرفة، شاحبة من الخوف.

نظر ألبرت إلى مورت على طول السيف، وابتسم ابتسامة مائلة خالية من الفكاهة قائلاً: «لن تتمكن من التحكم في ذلك إلى الأبد».

- لا أريد ذلك. أريد فقط التحكم فيه مدة كافية.

- صرت مُستعدًا الآن، أترى؟ كلما طالت مدة غياب السيد، أصبحت مثله أكثر. لكن بشكل أسوأ، لأنك ستتذكر كل شيء عن كونك إنسانًا و...

قاطع مورت: «ماذا عنك إذن؟ ماذا يمكنك أن تتذكر عن كونك إنسانًا؟ إذا عُدت، كم من الحياة تبقى لك؟».

قال ألبرت على الفور: «واحد وتسعون يومًا، وثلاث ساعات وخمس دقائق. كنت أعلم أنه يتعقبني. لكنني في أمان هنا وهو ليس سيدًا سيئًا إلى هذا الحد. أحيانًا لا أعلم ما الذي سيفعله من دوني».

قال مورت: «نعم، لا أحد يموت في المملكة الخاصة بالموت. وأنت راضٍ عن ذلك؟».

- عُمري أكثر من ألفي عام. عشتُ أطول من أي شخص في العالم. هزَّ مورت رأسه، وقال: «إنك تعلم أنك لم تعيش حقًا. لقد مددت الأمور فقط. لا أحد يعيش حقًا هنا. الوقت في هذا المكان مجرد وهم. إنه ليس حقيقيًا. لا شيء يتغير. أفضل الموت ومعرفة ما سيحدث بعد ذلك بدلًا من قضاء الأبدية هنا».

قرص ألبرت أنفه بتفكير، ثم قال: «نعم، حسنًا، ربما كنت على حق. لكنني كنتُ ساحرًا. كنتُ جيدًا في ذلك. لقد صنعوا تمثالًا لي. ولكنك لا تعيش حياة طويلة كساحر دون أن تصنع بعض العداوات، ترى، أولئك الذين... ينتظرون على الجانب الآخر».

ثم استنشق، وقال: «ثم إن ليس كلهم لديهم ساقان. بعضهم ليس لديهم أرجل على الإطلاق. ولا وجوه. لا أخاف الموت، بل ما يأتي بعده».

- ساعدني إذن.

- ما الفائدة التي ستعود عليَّ من ذلك؟

قال مورت: «قد تحتاج يومًا ما إلى بعض الأصدقاء على الجانب الآخر»، ثم فكر بضع ثوانٍ وأضاف: «إذا كنتُ مكانك، لن يضرَّ أن أعطي روحي بعض تلميع اللحظة الأخيرة. بعض أولئك الذين ينتظرونك قد لا يعجبهم ذلك».

ارتعش ألبرت وأغمض عينيه. ثم أضاف بمزيد من الإحساس دون الاهتمام بالقواعد اللغوية: «أنت لا تعرف شيئاً عما تتحدث عنه. وإلا لما قلت ذلك. ماذا تريد مني؟».

أخبره مورت.

قهقه ألبرت.

- هذا فقط؟ مُجرّد تغيير الواقع؟ لا يمكنك. لم يعد هناك أي سحر قوي بما فيه الكفاية بعد الآن. التعاويذ العظمى كانت قادرة على ذلك. لا شيء آخر. وهذا كل شيء، لذا يمكنك أن تفعل ما يحلو لك وأتمنى لك التوفيق.

عادت يزابيل، متعبة قليلاً، وهي تحمل الجزء الأخير من حياة ألبرت. استنشق ألبرت مرة أخرى، فأثارت القطرة الصغيرة على نهاية أنفه اهتمام مورت، ففكر بداخله أنها كانت دائماً على وشك السقوط، لكنها لم تكن لديها الشجاعة لفعل ذلك. تماماً مثله.

قال الساحر الشيخ بحذر: «لا يمكنك أن تفعل لي شيئاً باستخدام الكتاب».

- لا أنوي ذلك. لكن يبدو لي أنك لا تصبح ساحراً قوياً بقول الحقيقة طوال الوقت. يزابيل، اقرئي ما يُكتب.

قرأت يزابيل: «نظر ألبرت إليه بتردد».

- لا يمكنك أن تصدق كل ما يُكتب هناك...

أكملت يزابيل: «...قال ذلك وهو يعرف في أعماق قلبه الصخري أن مورت بالتأكيد يمكنه تصديق ذلك...».

- توقفي!

صاح ألبرت، محاولاً وضع المعرفة في ذهنه بأنه حتى لو لم يكن بالإمكان إيقاف الواقع، فربما من الممكن إبطاؤه قليلاً.

قال مورت بصوته العميق: «كيف؟».

أكملت يزابيل بإخلاص: «نطق مورت بنبرة ثقيلة مثل الموت».

قال مورت بغضب: «نعم، نعم، حسناً، ليس عليك أن تهتمي بكلامي».

- عذراً على كوني حية، أنا متأكدة.

أجابها مورت بالصوت العميق: «لا أحد يعتذر عن كونه حياً».

قالت يزابيل: «ولا تتحدث معي بهذه الطريقة، شكرًا. هذا لا يخيفني»، ثم نظرت إلى الكتاب، حيث كانت السطور في أثناء حركة كتابتها تسميها كاذبة.

قال مورت: «أخبرني كيف، أيها الساحر».

ناح ألبرت: «سحري هو كل ما تبقى لي!».

- أنت لا تحتاج إليه، أيها الشيخ البخيل.

- لا أخاف منك أيها الفتى...

قال مورت بصوته العميق: «انظر إلى وجهي وقل ذلك».

نقر مورت أصابعه بسلطوية، فانحنت يزابيل مرة أخرى فوق الكتاب وقرأت: «نظر ألبرت إلى التوهج الأزرق لتلك العينين وانتهى آخر ما تبقى من مقاومته. لأنه لم يرَ الموت فقط، بل إنه الموت بكل توابله البشرية من الانتقام والقسوة والكرهية، وأدرك بقناعة رهيبية أن هذه كانت الفرصة الأخيرة وأن مورت سيرسله مرة أخرى إلى الخط الزمني ويطارده ويمسك به ويسلمه جسدياً إلى أبعاد الزنزانة المظلمة حيث المخلوقات المرعبة ستفعل به... نقاط نقاط نقاط نقاط»، ثم قالت بعدها: «هناك نقاط تملأ نصف صفحة».

همس ألبرت: «ذلك لأن الكتاب لا يجروُ حتى على ذكرهم»، وحاول إغلاق عينيه لكنَّ الصور في الظلام خلف جفنيه كانت واضحة جدًّا لدرجة أنه فتحهما مرة أخرى. حتى مورت كان أفضل مما سيصيبه هناك، فقال: «حسنًا. هناك تعويذة واحدة. تبطئ الوقت في مِنطَقة صغيرة. سأكتبها، لكنَّ عليك أن تجد ساحرًا لينطقها».

- يمكنني فعل ذلك.

مرَّر ألبرت لسانه الأشبه بليفة قديمة على شفثيه الجافتين، وأضاف: «هناك ثمن، رغم ذلك. عليك إكمال مهمتك أولًا».

قال مورت: «يزابيل؟». فنظرت إلى الصفحة أمامها، ثم قالت: «إنه لا يكذب. إذا لم تفعل ذلك، فكل شيء سينهار وسيعود إلى خط الزمن على أي حال».

توجَّه الثلاثة جميعًا للنظر إلى الساعة الكبيرة التي هيمنت على الردهة، فرأوا نصل البندول يقطع الهواء ببطء، ليقطع الزمن إلى قطع صغيرة.

تنهَّد مورت وقال: «ليس هناك وقت كافٍ! لا أستطيع إنجاز كلا الأمرين في الوقت المناسب!».

قال ألبرت: «السيد كان سيجد الوقت».

انتزع مورت النصل من المدخل وهزَّه بغضب نحو ألبرت الذي تراجع، لكنَّ بلا خطر حقيقي، وصرخ: «اكتب التعويذة، إذن. اكتبها بسرعة!».

استدار مورت على عقبيه وعاد إلى غرفة مكتب الموت. كان هناك قرص كبير للعالم في أحد الزوايا، مكتمل بتفاصيل الفيلة الفضية الصلبة الواقفة على ظهر السلحفاة آتوين العظيم المصنوع من البرونز

ويزيد طوله على متر. تمثلت الأنهار العظيمة بعروق من اليشم الأخضر،
والصحاري بمسحوق الماس والمدن الأكثر شهرة مميزة بالأحجار
الكريمة؛ على سبيل المثال، عنخ-موربورك بحجر عقيق أحمر.

وضع الساعتين الرمليتين في المواقع التقريبية لأصحابهما، وارتمى
على كرسي الموت مُحَدِّقًا إليهما، راغبًا في أن يجعلهما أقرب إلى
بعضهما. أصدر الكرسي صريرًا خافتًا عندما استدار من جانب إلى
جانب، مُحَدِّقًا إلى القرص الصغير.

بعد مدة، دخلت يزابيل بهدوء، وقالت بالهدوء نفسه: «لقد كتب
ألبرت التعويذة. وتحققتُ من الكتاب. ليست خَدْعَة. لقد ذهب وأغلق
عليه غرفته الآن و...».

- انظري إلى هذين! أعني، هَلَّا تنظرين إليهما!

- أعتقد أنك يجب أن تهدأ قليلًا يا مورت.

- كيف يمكنني أن أهدأ وهذا، انظري، هذا هنا تقريبًا في صحراء
نيف الكُبرى، وهذا في بيس بيلارجك، ثم يجب أن أعود إلى ستو
لات. هذا يعني رحلة طولها عشرة آلاف ميل كيفما نظرت إليها. لا
يمكن فعل ذلك.

- أنا واثقة أنك ستجد طريقة. وسأساعدك.

نظر إليها لأول مرة ورأى أنها ترتدي معطفها الخارجي، غير المُلائم
ذي ياقة الفراء الكبيرة.

- أنتِ؟ ماذا يمكنك أن تفعلي؟

قالت يزابيل بخجل: «بإمكان بينكي أن يحمل اثنين بسهولة»، ثم
لَوَّحت بِحُزْمَة ورقية بشكل غامض، وقالت: «لقد جهَّزت لنا شيئًا لنأكله.
يمكنني فتح الأبواب وأشياء من هذا القبيل».

ضحك مورت دون مرح قائلاً بصوته العميق: «ذلك ليس ضرورياً».

- أتمنى أن تتوقف عن التحدث بهذا الشكل.

- لا أستطيع أخذ رگاب. ستبطينيني.

تنهدت يزابيل، وقالت: «انظر، ما رأيك في ما يلي؟ دعنا نتظاهر بأننا تشاجرنا وأنني فزت. أرايت؟ سيوفر هذا الكثير من الجهد. أعتقد فعلاً أنك قد تجد بينكي متردداً في الانطلاق إذا لم أكن معك. لقد أطعمته الكثير من مكعبات السكر على مر السنين. الآن، هل نحن ذاهبون؟».

جلس ألبرت على فراشه الضيق مُحدقاً إلى الجدار بغضب. سمع صوت حوافر اختفى فجأة عندما طار بينكي، فتمتم في خفوت.

مرّت عشرون دقيقة. طافت التعبيرات على وجه الساحر الشيخ مثل ظلال الغيوم خلال التلال. فيهمس أحياناً لنفسه شيئاً مثل «قلت له ذلك» أو «لم أكن لأتحمل ذلك» أو «يجب أن يعلم السيد».

في النهاية، بدا كأنه توصل إلى اتفاق مع نفسه، فركع بحذر وسحب صندوقاً مهترئاً من تحت سريره. فتحه بصعوبة وبسط رداءً رمادياً مغبراً تناثرت منه كرات النفتالين وقطع الترتير الملوثة على الأرض. ارتداه، ونفض عنه أسوأ الأتربة، وزحف تحت السرير مرة أخرى. أطلق الكثير من السباب المكتوم مع أصوات لصريير الفخار، ليخرج ألبرت في النهاية مُمسكاً بعصا أطول منه.

كانت أكثر سمكاً من أي عصا عادية، وذلك بسبب النقوش التي غطتها من الأعلى إلى الأسفل. في الواقع، لم تكن واضحة تماماً، ولكنها أعطت انطباعاً بأنك ستندم على رؤيتها إذا ظهرت بوضوح أكثر.

نفض ألبرت نفسه مرة أخرى وفحص نفسه بتركيز في مرآة المغسلة، ثم قال: «قبعة. لا قبعة. يجب أن توجد قبعة للسحر. اللعنة».

خرج من الغرفة وعاد بعد خمس عشرة دقيقة ملأى بالحركة، تضمنت قطع ثقب دائري في السجادة في غرفة مورت، وأخذ الورق الفضي من خلف المرآة في غرفة يزابيل، وإبرة وخيطاً من الصندوق تحت المغسلة في المطبخ وبعض الترتير السائب بعدما كشطه من قاع صندوق الأثواب. لم تكن النتيجة النهائية كما رغب، وانحرفت بشكل مائل فوق إحدى عينيه، لكنها سوداء ومُزَيَّنة بالنجوم والأقمار، لتعلن دون شك أن صاحبها هو ساحر، وإن كان ساحراً يائساً.

شعر بأنه ارتدى الزي المناسب لأول مرة منذ ألفي عام. كان شعوراً مزعجاً وجعله يفكر لثانية قبل أن يركل السجادة المهترئة بجانب السرير ويستخدم العصا لرسم دائرة على الأرض.

عندما مرَّ طرف العصا، ترك خطاً من الأوكتارين المتوهج، اللون الثامن من الطيف، لون السحر، صبغة الخيال.

حدد ثماني نقاط على محيط الدائرة وربطها لتشكيل ثماني الأضلاع، فبدأ صوت خافت يهزُّ الغرفة. دخل ألبرتو ماليش إلى المركز ورفع العصا فوق رأسه. شعر أنها استيقظت في قبضته، شعر بوخز القوة النائمة يظهر ببطء وبتعمد، مثل نمر يستيقظ. أثار ذلك ذكريات قديمة عن القوة والسحر اللذين يطنَّان في أعلى أركان عقله المغبرة. شعر بأنه حيٌّ لأول مرة منذ قرون.

لعق شفثيه، ثم اختفى الاهتزاز، تاركاً نوعاً غريباً من الصمت، كأنه ينتظر شيئاً ما.

رفع ماليش رأسه وصاح بمقطع واحد.

اندلعتِ النيران الزرقاء الخضراء من كلا طرفي العصا. تفجّرت تيارات اللهب الأوكتاريني من النقاط الثمانية للأوكتوجرام وأحاطت بالساحر. كل هذا لم يكن ضروريًا فعليًا لإتمام التعويذة، ولكنَّ السحرة يعتبرون المظاهر أمرًا هامًا للغاية...

وكذلك الاختفاءات. إذ اختفى.

جلدتُ رياح القرص عباءة مورت، فيما صرخت يزابيل في أذنه: «إلى أين نحن ذاهبون أولًا؟».

صاح مورت ودُؤامة الرياح تشتت كلماته بعيدًا: «بيس بيلارجك!».

- أين هذا المكان؟

قال مورت: «الإمبراطورية الأجتية! قارة الوزن المضاد!»، وأشار إلى الأسفل.

لم يجبر بينكي على الحركة في تلك اللحظة، مدرّكًا الأُميَال التي تنتظرهم، إذ يركض الحصان الأبيض الكبير حاليًا بسرعة سهلة فوق المحيط. نظرت يزابيل إلى الأمواج الخضراء الصاخبة التي تعلوها رغبة بيضاء، فتشبّثت بمورت بإحكام.

نظر مورت إلى الأمام نحو سحابة تشير إلى القارة البعيدة وقاوم الرغبة في تسريع بينكي باستخدام حد سيفه. لم يضرب الحصان قطُّ، ولم يثق تمامًا مما سيحدث إذا فعل.

كل ما يمكنه فعله هو الانتظار.

ظهرت يد تحت ذراعه تحمل شطيرة، ويزابيل تقول: «هناك لحم خنزير أو جبن ومربّى. من الأفضل أن تأكل، فلا يوجد شيء آخر لتفعله».

نظر مورت إلى الشطيرة المثلثة الرطبة وحاول أن يتذكر آخر مرة تناول فيها وجبة. في وقت بعيد تعجز الساعة عن تحديده على أي حال، بل يحتاج إلى تقويم الشهور لحسابه، فأخذ الشطيرة، وقال بأقصى قدر مُستطاع من اللطف: «شُكرًا».

تدحرجت الشمس الصغيرة نحو الأفق، ساحبة ضوءَ نهارها الكسلان وراءها. ظهرتِ السحب أمامهما بوضوح، مُميّزة باللونين الوردي والبرتقالي. بعد مدة استطاع تمييز اللمحة الداكنة للأرض تحتها، ومعها أضواء المدينة المتناثرة.

بعد نصف ساعة، صار مُتأكدًا من أنه يستطيع رؤية المباني بشكل فردي، فوجد أن العمارة الأجتية تميل نحو الأهرامات القصيرة.

انخفض بينكي إلى أن صارت حوافره بالكاد على بُعد بضع أقدام فوق البحر. فحص مورت الساعة الرملية مرة أخرى، وجذب اللجام بلطف لتوجيه الحصان نحو ميناء بحري باتجاه الحافة يحيد قليلًا عن مسارهم الحالي.

هناك بعض السفن راسية، معظمها سفن تجارية ساحلية ذات سارية واحدة. لم تُشجّع الإمبراطورية رعاياها على الابتعاد كثيرًا، خشية أن يروا أشياء قد تزعجهم. ولهذا السبب، أقامت جدارًا حول البلاد بأكملها تحت حراسة الحرس السماوي، ووظيفتهم الرئيسية هي الضغط بشدة على أصابع أي مواطنين يشعرون أنهم يرغبون في الخروج بضع دقائق لأخذ نفس من الهواء النقي.

لم يحدث هذا كثيرًا، لأن معظم رعايا إمبراطور الشمس سعدوا تمامًا بالعيش داخل الجدار. ففي الواقع، الجميع على جانب واحد أو آخر من الجدار عمومًا، لذا فإن الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو نسيان الأمر أو تطوير أصابع أقوى.

قالت يزابيل في أثناء مرورهم فوق الميناء: «من يدير هذا المكان؟». قال مورت: «هناك إمبراطور صبي نوعًا ما. لكن أظن أن المتحكم الرئيسي هو كبير الوزراء».

قالت يزابيل بحكمة: «لا تثق أبدًا بكبير الوزراء».

في الواقع، لم يثق به إمبراطور الشمس. لكبير الوزراء، الذي كان اسمه «المرايا التسعة الدوارة»، آراء واضحة جدًا عمّن يجب أن يدير البلاد، فمثلاً: هو الأجدر بذلك، والآن أصبح الصبي كبيرًا بما يكفي لطرح أسئلة مثل «ألا تعتقد أن الجدار سيصبح أجمل ببعض البوابات فيه؟»، و«نعم، لكن كيف هو الوضع على الجانب الآخر؟»، فقرر أنه من مصلحة الإمبراطور الشخصية أن يُسمّم ببطء ويُدفن في الجير الحي.

حطَّ «بينكي» على الحصى المحفور خارج القصر المنخفض متعدد الغرف، مُعيدًا ترتيب تناغم الكون⁽¹⁾ بقسوة. انزلق مورت عن ظهر بينكي وساعد يزابيل على النزول، ثم قال بتعجُّل: «لا تتدخل في الأمر، حسنًا؟ ولا تطرحي أسئلة أيضًا».

ركض على بعض الدرجات المصقولة وأسرع خلال الغرف الصامتة، متوقفًا أحيانًا ليسترشد بالساعة الرملية. في النهاية، انسلَّ خلال ممر وأطلَّ من خلال شبكة مزخرفة إلى غرفة طويلة منخفضة حيث تناول أعضاء البلاط الملكي وجبتهم المسائية.

(1) الحديقة الحجرية للسلام والبساطة العالميين، التي وُضِعَتْ بأوامر الإمبراطور القديم «مرآة الشمس الواحدة**»، استخدمت اقتصاد الموقع والظل لترمز إلى الوحدة الأساسية للروح والمادة وتناغم كل الأشياء. يُقال إن الأسرار في أعماق قلب الواقع مخفية في الترتيب الدقيق لحجارتها. (المؤلف)

** من أبرز ما اشتهر به الإمبراطور القديم «مرآة الشمس الواحدة» أنه قطع شفاه أعدائه وأرجلهم ثم وعدهم بالحرية إذا استطاعوا الجري عبر المدينة وهم يعزفون على البوق. (المؤلف)

جلس الإمبراطور الشاب مُتربِّعًا على بداية السجادة، وقد انتشرت عباءته المصنوعة من الفرو والريش خلفه. بدا كأن حجمه صار كبيرًا على ارتدائها. جلس بقية أفراد البلاط حول السجادة بترتيب دقيق ومعقد وَفْقَ الأسبقية، لكنْ لا شك في هُوِيَّة الوزير الأعظم الذي انهمك في تناول وعاء من الحساء وطحالب البحر المغلية بطريقة مريبة جدًّا. لم يبدُ أن أحدًا على وشك الموت.

مشى مورت على طول الممر، ثم استدار نحو زاويته، فكاد يصطدم بعدة أفراد كبار من الحرس السماوي، الذين اجتمعوا حول ثَقْب تجسس في الجدار الورقي، وتبادلوا سيجارة من يد إلى أخرى بطريقة الجنود في أثناء الخدمة.

عاد بخفة إلى النافذة الشبكية المزخرفة واسترق السمع إلى المحادثة على هذا النحو.

قال كبير الوزراء ممسكًا بعيدان الأكل: «أنا أسوأ البشر حظًّا، أيها الحضور البارز، لأنَّ أجد شيئًا كهذا في حسائي الذي كان رائعًا حتى الآن».

امتدت أعناق الحاضرين لرؤية ما يقصده، وكذلك فعل مورت. لم يستطع مورت أن يمنع نفسه من الموافقة على ما قيل، إذ كان الشيء كتلة زرقاء مائلة إلى الأخضر مع أنابيب مطاطية متدلية منها.

قال الإمبراطور: «يا صاحب العلم النبيل، سيُعاقب مُعِدُّ الطعام. من حصل على الأضلاع المتبقية؟».

- لا، أيها الأب الحكيم لشعبك، كنت أشير إلى أن هذا هو، على ما أعتقد، مثانة وطحال سمك الأنقليس النفاث العميق، الذي يُقال إنه ألد الأطعمة إلى حد أنه قد يُؤكل فقط مِنْ قَبْلِ مَنْ تحبُّهم الآلهة

أنفسهم أو هكذا هو مكتوب، وطبعًا لا أدرج نفسي البائسة في مثل هذه الرفقة.

وبحركة ماهرة، نقلها إلى وعاء الإمبراطور، حيث تمايلت إلى أن سكنت. نظر الفتى إليها بعضَ الوقت، ثم اخترقها بعصا الأكل وقال: «آه. ألم يكتب أيضًا الفيلسوف العظيم لي تين ويدل أن العالم قد يكون في مرتبة أعلى من الأمراء؟ أذكر أنك أعطيتني النص لأقرأه مرة، أيها الباحث الأمين والدؤوب عن المعرفة».

انتقل الشيء خلال الهواء مرة أخرى وسقط باعتذار في وعاء كبير الوزراء، فجمعه بحركة سريعة واستعدَّ لجولة ثانية، وقد ضاقت عيناه قائلاً: «ربما كانت هذه هي الحال بشكل عام، يا نهر الحكمة النفيسة، لكنني بالتحديد لا يمكن أن أصبح في مرتبة أعلى من الإمبراطور الذي أحبه كابني منذ وفاة والده الراحل، ولذلك أضع هذه الهدية الصغيرة عند قدميك».

تتبعت أعين أفراد البلاط الملكي ذلك العضو البائس في رحلته الثالثة خلال السجادة، لكن التقط الإمبراطور مروحته وضرب بها ضربة رائعة انتهت بالعضو في وعاء كبير الوزراء بقوة كبيرة مما أرسل رذاذًا من الطحالب البحرية.

صرخ مورت دون أن يسمعه أحد: «ليأكله أحدكم، بحق السماء. أنا في عجلة من أمري!».

- أنت فعلاً أكرم الخَدم، أيها الرفيق المخلص والوحيد حقًا لأبي وجدي الراحلين عندما ماتا، ولذلك قررتُ أن تُكافأ بهذه القطعة النادرة واللذيذة للغاية.

دغدغ كبير الوزراء الشيء بشك، ونظر إلى ابتسامة الإمبراطور المشرقة المخيفة محاولاً إيجاد عذر، فبدأ قائلاً: «يا للأسف، يبدو أنني قد أكلت كثيرًا فعلاً...»، لكنَّ الإمبراطور أشار له بالصمت، وقال:

«لا شك أنه يحتاج إلى توابل مناسبة»، وصفق بيديه، فتمزَّق الجدار خلفه من الأعلى إلى الأسفل واندفع أربعة من الحرس السماوي، ثلاثة منهم شاهرين سيوفهم، والرابع يحاول ابتلاع عقب سيجارة مشتعلة بسرعة.

سقط وعاء كبير الوزراء من يديه، فيما قال الإمبراطور: «يعتقد خادمي الأكثر إخلاصًا أنه لم يعد لديه مكان لهذه اللقمة الأخيرة. لا شك أنه يمكنكم تفتيش معدته لمعرفة أكان هذا صحيحًا. ولماذا يخرج الدخان من أذني ذلك الرجل؟».

قال الرقيب بسرعة: «إنه متحمس للعمل، أيها السمو السماوي. أخشى أنه لا يمكن إيقافه».

- إذن، دعه يأخذ سكينه و... أوه، يبدو أن كبير الوزراء ما زال جائعًا. أحسنت.

ساد صمت تام فيما انتفخت وجنتا كبير الوزراء بإيقاع، ثم ابتلع قائلاً: «لذيذ. رائع. إنه طعام الآلهة حقًا، والآن، إذا سمحتم لي...»، ثم فتح ساقيه وكأنه يريد الوقوف. ظهرت قطرات صغيرة من العرق على جبينه.

قال الإمبراطور رافعًا حاجبيه: «هل ترغب في المغادرة؟».

- مسائل دولة ملحة، أيها السيد الفَظَن...

قال الإمبراطور: «اجلس. النهوض بعد الطعام مباشرة قد يضرُّ الهضم»، فأومأ الحراس موافقين، بينما أكمل: «بالإضافة إلى ذلك،

لا توجد مسائل دولة عاجلة إلا إذا كنت تشير إلى تلك الموجودة في الزجاجة الحمراء الصغيرة الموسومة بـ «ترياق» في الخزانة السوداء على السجادة الخيزرانية في غرفتك، يا مصباح الليل».

كان هناك رنين في أذني كبير الوزراء، وبدأ وجهه يتحول إلى اللون الأزرق.

قال الإمبراطور: «أترى؟ النشاط في وقت غير مناسب بمعدة ثقيلة يؤدي إلى المرض. لتصل هذه الرسالة سريعًا إلى جميع أرجاء بلادي، حتى يعرف الجميع حالتك المؤسفة ويستفيدوا منها».

قال كبير الوزراء: «يجب أن... أهنئ جلالتك... على مثل هذه... العناية»، ثم سقط وجهه في طبق سرطان البحر المطبوخ ذي القشرة الناعمة.

قال الإمبراطور: «لقد كان لديّ معلم ممتاز».

قال مورت ملوِّحًا بالسيف: «حان الوقت».

بعد لحظة، نهضت روح كبير الوزراء من على السجادة ونظر إلى مورت من أعلى إلى أسفل، ثم قال بحدة: «من أنت، أيها الهمجي؟».

- الموت.

قال كبير الوزراء بحزم: «ليس موتي. أين تنين النار السماوي الأسود؟».

قال مورت: «لم يستطع الحضور». بدأت الظلال تتشكل في الهواء خلف روح الوزير، ارتدى بعضها أردية الإمبراطور، لكن دفعهم آخرون كثر، وبدأ جميعهم متحمسين للغاية للترحيب بالوافد الجديد إلى أراضى الموتى.

قال مورت مُسارعًا بالابتعاد: «أعتقد أن بعض الأشخاص جاءوا هنا لرؤيتك». عندما وصل إلى الممر بدأت روح الوزير بالصراخ...
وقفتُ يزابيل بصبر بجانب بينكي، الذي تناول غداءً متأخرًا من شجرة بونساي عمرها خمسمئة عام.
قال مورت: «انتهيتُ من الأول»، ثم تسلق إلى السرج قائلاً: «هيا. لديّ شعور سيئ بشأن الشخص التالي، وليس لدينا الكثير من الوقت».

تجسّد ألبرت في مركز الجامعة الخفية، في المكان نفسه الذي غادر فيه العالم قبل قرابة ألفي عام.
تأوه برضا ونفض بعض الغبار عن رداءه.
أدرك أنه كان مراقبًا؛ فنظر إلى الأعلى، ليكتشف أنه تجسّد تحت نظرة تمثاله الرخامية الصارمة.
عدّل نظارته ونظر بازدياء إلى اللوحة البرونزية المثبتة على قاعدة التمثال. كان مكتوبًا عليها:
«ألبرتو ماليش، مؤسس هذه الجامعة. السنة السحرية 1222-1289. (لن نرى مثله مرة أخرى)».

فكّر بداخله أن هذا أكثر إحباطًا مما توقعه، وإذا ظنُّوا أنه مهم إلى هذا الحد، كان بإمكانهم على الأقل توظيف نحات جيد. كان ذلك معيبًا، فالأنف غير صحيح، وهل هذه ساق؟ لقد نحت الناس أسماءهم عليها أيضًا. وطبعًا، لم يكن ليموت مرتديًا قبعة مثل هذه. لم يكن ليراه الناس ميتًا على الإطلاق، إذا كان بإمكانه تجنب ذلك.

أطلق ألبرت صاعقة أوكتارين على التمثال الشنيع وابتسم ابتسامة شريرة بعدما تفجر إلى غبار.

صاح بشكل عام كأنه لعالم القرص كله: «حسنًا، لقد عدتُ»، لتنتقل وخزات السحر على طول ذراعه وتبدأ توهجًا دافئًا في عقله. كم اشتاق إليه طوال هذه السنوات.

هُرِعَ السحرة خلال الأبواب المزدوجة الكبيرة عند صوت الانفجار واستخلصوا الاستنتاج الخاطئ من البداية.

وجدوا قاعدة التمثال فارغة، وسحابة من غبار الرخام تغطي كل شيء. ومن وسطها، خطا ألبرت خارجًا، يتمم لنفسه.

بدأ السحرة في الجزء الخلفي من الحشد بالابتعاد بسرعة وهدوء قدر الإمكان. فأغلبهم في وقت ما من أوقات شبابهم المرح، وضعوا وعاء من أوعية التبول المنزلية على رأس ألبرت الشيخ، أو نحتوا أسماءهم في مكان ما على جسد التمثال البارد، أو سكبوا الجعة على القاعدة. وأساء من ذلك، خلال أسبوع المزاح عندما يكثرون من تناول الخمر، فيتبولون عند التمثال. بدت كل هذه الأفكار مضحكة حينها في ذلك الوقت. لكنها لم تعد كذلك الآن.

لم يبقَ لمواجهة غضب التمثال إلا شخصان، أحدهما لأن رداءه علق في الباب، والآخر لأنه كان، في الواقع، قريرًا ومن ثمَّ يمكنه أن يتخذ موقفًا مريحًا تجاه شؤون البشر.

أمسك ألبرت بالساحر الذي كان يحاول بيأس أن يخرق الحائط، فصرخ الرجل:

«حسنًا، حسنًا، أعترف! كنت ثملًا في ذلك الوقت، صدقني، لم أقصد ذلك، يا إلهي، أنا آسف، أنا آسف جدًا...».

قال ألبرت مدهوشًا حقًا: «بم تهذي يا رجل؟».

- ...آسف جدًا، إذا حاولتُ أن أخبرك بمدى أسفي فسوف...

قال ألبرت: «توقف عن هذا الهراء اللعين!»، ثم نظر إلى القرد الصغير، الذي منحه ابتسامة دافئة وودية، ثم قال: «ما اسمك يا رجل؟».

- نعم يا سيدي، سأتوقف يا سيدي، حالاً، لا مزيد من الهراء يا سيدي... اسمي رينسويند يا سيدي. مساعد أمين المكتبة، إذا كان هذا مناسباً لك.

نظر إليه ألبرت من الأعلى إلى الأسفل. بدا الرجل بحالة مُهملة للغاية، مثل شيء تُرك للغسل. قرر ألبرت أنه إذا كانت هذه هي حال السحرة الآن، فعلى أحدهم أن يفعل شيئاً حيال ذلك.

سأل ألبرت بغضب: «أي أمين مكتبة سيجعلك مساعداً له؟».

قال القرد: «أوووك»، فيما حاول بيده التي تشبه قفازاً ناعماً دافئاً أن يمسك بيد ألبرت.

صاح ألبرت: «قرد! في جامعتي!».

قال رينسويند بعجالة: «من فصيلة إنسان الغاب يا سيدي. كان ساحراً لكنه وقع في بعض السحر يا سيدي، والآن لن يسمح لنا بتحويله مرة أخرى، وهو الوحيد الذي يعرف مكان جميع الكتب»، ثم أضاف، معتقداً وجود حاجة إلى تفسير إضافي: «أنا أهتم بموزاته».

تجهم ألبرت نحوه، وقال: «اصمت».

- سأصمت حالاً، سيدي.

- وأخبرني أين هو الموت.

قال رينسويند متراجعاً نحو الحائط: «الموت يا سيدي؟».

- طويل، هيك عظمي، عيان زرقاوان، يتحدث بنبرة عميقة... الموت. هل رأيته مؤخراً؟

بلع رينسويند ريقه، ثم قال: «ليس مؤخراً يا سيدي».

- حسنًا، أريده. يجب أن يتوقف هذا الهراء. سأوقفه الآن، هل تفهم؟
أريد أن يُجمَع أقدم ثمانية سحرة هنا، بعد نصف ساعة مع كل
المُعَدَّات اللازمة لأداء طقوس (أشكينت)، هل هذا مفهوم؟ رغم
أن رؤية هذا الحشد لا تعطيني أي ثقة. إن جميعكم مجموعة من
المتخاذلين، وتوقف أيها القرد عن محاولة إمساك يدي!
- أوووك.

قال ألبرت بحدة: «والآن سأذهب إلى الحانة. هل يبيعون أي نوع جيد
من بول القطط في هذه الأيام؟»

قال رينسويند: «هناك حانة الطبلبة التالفة يا سيدي».

- الطبلبة التالفة؟ في شارع فيليجري؟ ما زالت موجودة؟

قال رينسويند: «حسنًا، يغيِّرون الاسم أحيانًا ويعيدون بناءها تمامًا،
لكنَّ الموقع، آه، بالموضع نفسه لسنوات»، ثم قال بطريقة وديَّة مروعة:
«أعتقد أنك جاف تمامًا، أليس كذلك يا سيدي؟».

قال ألبرت بحدة: «ما الذي تعرفه عن ذلك؟».

قال رينسويند على الفور: «لا شيء على الإطلاق، سيدي».

- سأذهب إلى الحانة، إذن. نصف ساعة، فهمتني؟ وإذا لم يكونوا
في انتظاري عندما أعود، حسنًا، من الأفضل أن يكونوا موجودين!

ثم خرج من القاعة في سحابة من غبار الرخام. راقب رينسويند
ذهابه، بينما أمسك أمين المكتبة بيده.

قال رينسويند: «أتعرف ما أسوأ جزء في الأمر؟».

- أوووك؟

- لا أتذكر حتى أنني مشيتُ تحت مرآة⁽¹⁾.

في الوقت نفسه الذي كان فيه ألبرت في حانة «الطبلية المرممة» يجادل صاحب الحانة حول فاتورة بار قديمة صفراء انتقلت بعناية من الأب إلى الابن خلال جريمة قتل ملك، وثلاث حروب أهلية، وواحد وستين حريقًا كبيرًا، وأربعمئة وتسعين عملية سطو وأكثر من خمسة عشر ألف شجار في الحانات لتسجيل حقيقة أن ألبرتو ماليش ما زال مدينًا للإدارة بثلاث قطع نُحاسية، بالإضافة إلى الفائدة الحالية التي تعادل محتويات معظم غرف الخزائن الكبيرة في عالم القرص، وهذا ما أثبت مرة أخرى أن تاجرًا من مدينة عنخ لديه فاتورة غير مدفوعة عنده ذاكرة أقوى من ذاكرة الأفيال... في هذا الوقت تقريبًا، انطلق بينكي بسرعة في السماء فوق قارة كلاتش الغامضة العظيمة.

في الأسفل، دوّت الطبول في الغابات العطرية المظلمة، وتصاعدت أعمدة الضباب المتلوي من الأنهار المخفية حيث تتربص وحوش مجهولة تحت السطح تنتظر مرور العشاء.

قالت يزابيل: «لقد نفد الجبن، عليك أن تأخذ لحم الخنزير. ما هذا الضوء هناك؟».

قال مورت: «سدود الضوء. نحن نقترّب»، ثم أخرج الساعة الرملية من جيبه وفحص مستوى الرمل، ليكمل: «لكن ليس قريبًا بما يكفي، اللعنة!».

(1) يُشاع في المعتقدات الشعبية الغربية أن السير أسفل سلم خشبي يجلب سوء الحظ، وكذلك كسر المرآة. لكن طبعًا في عالم القرص تختلف الأمور عن عالمنا، فيصبح السير تحت المرآة هو ما يجلب سوء الحظ. (المُترجم)

وقعت سدود الضوء مثل برك من الضوء في مسارهم نحو اتجاه المركز، وهذا بالضبط ما كانت عليه؛ إذ بَنَتْ بعض القبائل جدراناً من المرايا في جبال الصحراء لجمع ضوء شمس القرص الذي يمتاز ببطئه وثقله قليلاً، لِيُستخدَم كعملة.

طار بينكي فوق نيران معسكرات البدو والمستنقعات الصامتة لنهر تسورت. بدأت الأشكال المألوفة المظلمة تكشف عن نفسها في ضوء القمر.

تنهدت يزابيل قائلة: «أهرام تسورت في ضوء القمر! كم هو رومانسي!».

قال مورت بنبرته العميقة: «مبنية بدماء آلاف العبيد».

- من فضلك لا تتحدث هكذا.

- أنا آسف، لكنَّ الواقع العملي هو أن هذه...

قالت يزابيل بغضب: «حسنًا، حسنًا، لقد أوضحتَ فكرتك».

قال مورت في أثناء دورانهم فوق أحد الأهرام الصغيرة: «إنه جهد كبير يذهب لدفن ملك ميت. يملأونه بالمواد الحافظة، كي ينجو في العالم الآخر».

- وهل يفيد ذلك؟

قال مورت: «ليس بشكل ملحوظ»، ثم انحنى فوق عنق بينكي وقال: «تلك المشاعل بالأسفل. تمسّكي».

تحرك موكب مبتعدًا عن جادة الأهرام، يقوده تمثال عملاق للإله أوفلر التمساح محمولاً من قبل مئة عبد متعرق. ركض بينكي فوق التمثال دون أن يلاحظه أحد، وهبط بدقة بأطرافه الأربعة على الرمال الصلبة خارج مدخل الهرم.

قال مورت: «لقد خلَّلوا ملكًا آخر»، ثم فحص الساعة الرملية مرة أخرى في ضوء القمر. كانت عادية تمامًا، ليست من النوع المعتاد ربطه بالملوك.

قالت يزابيل: «لا يمكن أن يكون هو المطلوب. لا يُخلَّلونهم وهم ما زالوا أحياء، أليس كذلك؟».

- أتمنى ألا يفعلوا، لأنني قرأت أنه، قبل التحنيط، يقومون، آه، بفتحهم وإزالة...

- لا أريد أن أسمع ذلك...

أكمل مورت بضعف: «كل الأجزاء الطرية. من الجيد حقًا أن لا فائدة من التخليل، تخيلي فقط أن تمشي دون...».

قالت يزابيل بصوت عالٍ: «حسنًا، ليس الملك الذي جئت لتأخذه. من ستأخذ إذن؟».

توجه مورت نحو المدخل المظلم. لن يُغلق حتى الفجر، لإعطاء الوقت لروح الملك الميت للمغادرة. بدا المدخل عميقًا ومرعبًا، يشير إلى أغراض أكثر رعبًا بكثير من... الحفاظ على شفرة حلاقة حادة على سبيل المثال.

قال مورت: «سنكتشف ذلك».

- احذروا! لقد عاد!

اصطف أكبر ثمانية سحرة في الجامعة، وحاولوا تمليس لحاهم وعامة بذلوا جهدًا غير ناجح للظهور بمظهر لائق. لم يكن الأمر سهلًا. لقد انتزعوا من غرف عملهم، أو من تناول البراندي بعد الغداء أمام نار مشتعلة، أو من التأمل الهادئ تحت منديل في كرسي مريح في مكان

ما، وشعر جميعهم بقلق وارتباك شديدين، واستمروا في النظر إلى القاعدة الفارغة.

لا يمكن لأي كائن آخر أن يكرر التعابير على وجوههم، باستثناء حمامة سمعت أن اللورد نيلسون نزل من عموده بل شوهده أيضاً وهو يشتري بندقية عيار 12 وصندوقاً من الخراطيش.

صرخ رينسويند: «إنه قادم خلال الممر!»، وقفز خلف عمود.

راقب السحرة المجتمعون الأبواب الكبيرة المزودة كأنها على وشك الانفجار، وهذا ما يظهر مدى بُعد نظرهم، لأنها انفجرت. تطايرت قطع صغيرة بحجم أعواد الثقاب من خشب البلوط بين الحضور ووقف شخص صغير نحيل عكس اتجاه الضوء، يحمل عصا مدخنة في يده. أما اليد الأخرى فحملت ضفدعاً أصفر صغيراً.

صاح ألبرت: «رينسويند!».

- أجل يا سيدي!

- خذ هذا الشيء وتخلص منه.

زحف الضفدع إلى يد رينسويند ومنحه نظرة اعتذار.

قال ألبرت بشعور من الرضا: «هذه آخر مرة يتجرأ فيها صاحب الحانة اللعين ذاك على التحدث بوقاحة إلى ساحر. يبدو أنني أدير ظهري لبضع مئات من السنين وفجأة يتشجع الناس في هذه المدينة على الاعتقاد بأن بإمكانهم الرد على السحرة، أليس كذلك؟».

تمتم أحد السحرة الكبار بشيء ما، فقال ألبرت: «ماذا كان ذلك؟ تكلم بوضوح، أيها الرجل!».

تمتم الساحر محاولاً تجنب نظرة ألبرت الثاقبة: «بصفتي أمين صندوق هذه الجامعة، يجب أن أقول إننا دائماً نُشجّع سياسة الجوار

الجيد مع المجتمع». كان لديه وعاء تبول مقلوب على ضميره، وثلاث حالات من كتابات الحائط الفاحشة التي يجب أخذها في الاعتبار. ترك ألبرت فمه ينفتح مدهوشًا، وقال: «لماذا؟».

- حسنًا، إحم، شعور بالواجب المدني، نعتقد أنه من الضروري للغاية أن نقدم مثالًا، أآآآآه!

حاول الساحر يائسًا إخماد النيران في لحيته، فيما خفض ألبرت عصاه ونظر ببطء خلال صف السحرة، فتراجعوا بعيدًا عن نظراته كما تنزاح الأعشاب في عاصفة.

قال: «أريد أي شخص آخر إظهار شعور بالواجب المدني؟ جيران طيبون، أي أحد؟»، ثم شدَّ قامته إلى كامل ارتفاعها وقال: «أيها الديدان المذعورة! لم أوُسس هذه الجامعة لكي تقرضوا الناس ماكينة جز العشب الملعونة! ما الفائدة من القوة إذا لم تستخدموها؟ إن لم يُظهر لك الرجل احترامًا، لا تترك له ما يكفي من نزلُه اللعين لتحميمص الكستناء، فهمتموني؟».

ندتُ ما يشبه تنهيدة خافتة من السحرة المجتمعين، إذ نظروا بحزن إلى الضفدع في يد رينسويند. معظمهم، في أيام شبابهم، قد أتقنوا فن الوصول المتهور إلى الثمالة في حانة الطلبة. طبعًا، كل ذلك صار من الماضي الآن، لكنَّ عشاء الشوكة والسكين السنوي لجمعية التجار كان سيُعقد في غرفة الطابق العلوي في حانة الطلبة في المساء التالي، وقد أرسلتُ تذاكر مجانية إلى جميع سحرة المستوى الثامن؛ كان من المفترض أن يجدوا هناك بجة مشوية ونوعين من حلوى الترايفل والكثير من التهاني الأخوية إلى «ضيوفنا المحترمين، بل المتميزين» حتى يحين وقت وصول عمال الكلية بالعربات.

تجول ألبرت على طول الصف، مختبراً بطون السحرة بين الحين والآخر بعصاه. رقص ذهنه وغنى. العودة إلى مملكة الموت؟ مستحيل! هذه هي القوة، هذه هي الحياة؛ سيتحدى الموت الشيخ ويبول في عينيه الفارغتين.

- بحق مرآة دخان جريسم، ستطراً بعض التغييرات هنا!

هزّ السحرة الذين درسوا التاريخ رؤوسهم بتوتر. سيعودون إلى الأرضيات الحجرية ويستيقظون عندما لا يزال الظلام قائماً، ولا كحول تحت أي ظرف، وحفظ الأسماء الحقيقية لكل شيء حتى تصرخ أدمغتهم.

صاح ألبرت: «ما الذي يفعله هذا الرجل؟».

أحد السحرة، كان قد مدّ يده دون تفكير إلى كيس التبغ خاصته، ترك السيارة نصف المكونة تسقط من أصابعه المرتعشة. ارتدت عندما ارتطمت بالأرض، وراقبها جميع السحرة بأعين ملأى بالشوق حتى تقدم ألبرت بخطى واثقة وسحقها.

استدار ألبرت فجأة، فكاد رينسويند الذي تبعه كنوع من المساعدة غير الرسمي، أن يصطدم به.

صاح ألبرت: «أنت! رينسو... شيء ما! هل تدخن؟».

قال رينسويند: «لا، سيدي! إنها عادة قدرة!»، وتجنب نظرات رؤسائه، ليدرك فجأة أنه قد صنع بعض الأعداء الدائمين، ولم يجد عزاء في إدراك أنه ربما لن يبقى هؤلاء الأعداء مدةً طويلةً.

قال ألبرت: «حسنًا! أمسك بعصاي. الآن، أيها المتخاذلون التعساء، هذا سيتوقف، هل تسمعون؟ أول شيء تفعلونه غدًا، استيقاظ عند الفجر، ثلاث مرات حول الفناء والعودة هنا إلى التمارين البدنية! وجبات

متوازنة! دراسة! تمارين صحية! وقبل كل ذلك، فليذهب هذا القرد الملعون إلى السيرك!».

قال القرد: «أوووك؟».

أغلق عدد من السحرة الكبار أعينهم، فيما أكمل ألبرت مُخفِضاً صوته: «لكن أولاً، ستساعدونني بإقامة طقوس (أشكىنت). لدي بعض الأعمال غير المنتهية».

تقدّم مورت خلال ممرات الهرم السوداء كالقطط، فيما أسرعت يزابيل خلفه. أضاء التوهج الخافت من سيفه المكان فبدت أشياء مخيفة؛ كان أوفلر الإله التمساح بمنزلة إعلان أدوات تجميل مقارنة ببعض الأشياء التي عبدها سكان تسورت. وفي الأركان على طول الطريق، انتصبت تماثيل لمخلوقات بدت كأنها مكوّنة من بقايا الأجزاء التي تركها الرب جانباً.

همست يزابيل: «لماذا هم هنا؟».

قال مورت: «يقول الكهنة التسورتيون إن الحياة تدبّ فيهم عندما يُغلق الهرم ويجوبون الممرات لحماية جسد الملك من سارقي القبور».

- يا لها من خرافة مرعبة.

قال مورت دون أن ينتبه: «من قال شيئاً عن الخرافة؟».

- هل يحيون حقاً؟

- كل ما سأقوله هو أنه عندما يلقي التسورتيون لعنة على مكان، فإنهم لا يمزحون.

دار مورت حول منعطف بالمرمر، وفقدتُ يزابيل رؤيته للحظة مفاجئة، فهَرِعتُ خلال الظلام واصطدمتُ به، لتجده يفحص طائرًا برأس كلب.



telegram @
yasmeenbook

قالت: «تبًا. ألا يسبب لك هذا قُشْعْريرة؟».

قال مورت ببرود: «لا».

- لمَ لا؟

أجابها مورت بنبرته العميقة: «لأنني مورت»، واستدار، فرأت عينيه تتوهجان كنقاط زرقاء.

- توقف عن ذلك!

- لا أستطيع.

حاولتُ أن تضحك، فلم ينجح ذلك. قالت: «أنت لست الموت. أنت فقط تؤدي عمله».

- الموت هو أيُّ مَنْ يؤدي عمل الموت.

صمتتُ بدهشة، ليقطع صدمتها صوتُ أنين قادم من أسفل الممر المظلم. استدار مورت على عقبه وأسرع نحوه.

فكَّرتُ يزابيل أنه على حق، فحتى الطريقة التي يتحرك بها...

لكنَّ الخوف من الظلام الذي سحبه النور نحوها تغلَّب على أي شكوك أخرى وتبعَت مورت بحذر، حول منعطف آخر نحو ما بدا، في الوهج المتقطع من السيف، أنه مزيج من خزانة وعلية مزدحمة للغاية، فهمست: «ما هذا المكان؟ لم أرَ هذا الكم من الأشياء من قبل!».

قال مورت بالنبرة العميقة: «يأخذها الملك معه إلى العالم الآخر».

- إنه لا يؤمن بالسفر الخفيف، بالتأكيد. انظر، هناك قارب كامل.

وحوض استحمام ذهبي!

- من المؤكد أنه يرغب في البقاء نظيفاً عندما يصل إلى هناك.

- وكل تلك التماثيل!

- تلك التماثيل، يؤسفني أن أقول، كانت أشخاصاً. خدماً للملك.

تجهّم وجه يزابيل، فيما أكمل مورت بالنبرة نفسها: «أعطاهم الكهنة سُماً».

سمعا أنيناً آخر، من الجانب الآخر من الغرفة المزدحمة. تبعه مورت إلى مصدره، متخطياً بصعوبة لفائف السجاد، وأكداس التمر، وصناديق الأواني الفخارية وأكوام الجواهر. من الواضح أن الملك لم يتمكن من اتخاذ قرار بشأن ما سيتركه وراءه في رحلته، فقرر عدم المخاطرة، وأخذ كل شيء.

أضاف مورت بلهجة كئيبة: «لكن لا يعمل السُّم بسرعة دائماً».

تسلقت يزابيل بشجاعة وراءه، وألقت نظرة من فوق زورق على فتاة شابة مستلقية على كومة من السجاد. كانت ترتدي سروالاً شفافاً، وسترة قصيرة مصنوعة من مادة غير كافية، وعدداً من الأساور يكفي لربط سفينة بحجم لائق، وهناك بقعة خضراء حول فمها.

قالت يزابيل بهدوء: «هل يؤلم؟».

- لا. إنهم يعتقدون أنه يأخذهم إلى الجنة.

- وهل يفعل ذلك؟

- ربما. من يدري؟

أخذ مورت الساعة الرملية من جيب داخلي وفحصها بوهج السيف. بدا وكأنه يعدُّ بصوت منخفض، ثم بحركة مفاجئة ألقى بالساعة خلف كتفه وأنزل السيف بيده الأخرى.

نهض ظل الفتاة وتمدد، مع صوت رنين جواهرها الشبحية، وحالما
رأت مورت، انحنت برأسها قائلة: «سيدي!».

قال مورت: «لست سيداً لأي أحد. الآن انطلقى إلى حيثما تعتقدين
أنك ستذهبين».

قالت بحزم: «سأكون محظية في البلاط السماوي للملك زيتيسفوت
الذي سيسكن بين النجوم إلى الأبد».

قالت يزابيل بحدة: «لست مضطرةً إلى أن تكوني كذلك».

التفتت الفتاة إليها بعينين متسعيتين وقالت فيما تتلشى عن الأنظار:
«أوه، لكن يجب أن أكون كذلك. لقد تدربتُ عليه، لم أتمكن حتى الآن إلا
أن أكون خادمة».

اختفت الفتاة، لتنظر يزابيل بعدم رضا شديد إلى المكان الذي كانت
تشغله، ثم قالت: «حسنًا! هل رأيت ما كانت ترتديه؟».

- لنخرج من هنا.

تذمرت يزابيل وهي تحاول الخروج من الغرفة المزدحمة: «لكن لا
صحة لما قالته بأن الملك سيسكن بين النجوم، لا يوجد هناك سوى
الفضاء الفارغ».

- يصعب شرح ذلك. سيسكن بين النجوم في عقله.

- مع العبيد؟

- إذا اعتقدوا أنهم كذلك.

- هذا ليس عدلاً.

- لا توجد عدالة. نحن فقط.

أسرعاً بالعودة خلال ممرات الوحوش المُنتظرة، وفي أثناء ركضهما تقريباً اندفعا إلى هواء ليل الصحراء. اتكأت يزابيل على المنحوتات الحجرية وتنفست بصعوبة.

لكن لم يلهث مورت.

لم يكن يتنفس، وقال: «سأخذك إلى أي مكان تريدني، ثم يجب أن أتركك».

- لكنني اعتقدت أنك تريد إنقاذ الأميرة!

هزّ مورت رأسه، وقال: «لا خيار لديّ. لا توجد أي خيارات».

ركضت يزابيل نحو الأمام وأمسكت بذراعه فيما يتجه نحو بينكي المنتظر، فأزاح يدها بلطف قائلاً:
«لقد أنهيت مدة تدريبي».

صرخت يزابيل: «هذا كله داخل عقلك! أنت ما تعتقد أنك عليه!».

توقفت ونظرت إلى الأسفل، إذ بدأت الرمال حول قدمي مورت تتطاير في دوامات صغيرة.

كان هناك شعور بالاضطراب في الهواء، وإحساس دهني. بدا مورت غير مرتاح وهو يقول: «شخص ما يؤدي طقوس أشك...».

ثم أتت ضربة مثل المطرقة، قوة من السماء فجّرت الرمال وصنعت حفرة عميقة، مع طنين منخفض ورائحة معدن ساخن.

نظر مورت حوله في عاصفة الرمال الهادرة، كأنه في حلم، يقف وحده في مركز العاصفة الهادئ. أضاء البرق داخل الغيمة الدوارة. وكافح داخل أعماق عقله كي يتحرر، لكن شيئاً ما كان يمسكه ولم يستطع المقاومة أكثر من قدرة إبرة البوصلة على تجاهل الإجبار على الإشارة نحو المركز.

وجد أخيراً ما كان يبحث عنه. باب مُحاط بالضوء الأوكتاريني، يؤدي إلى نفق قصير. وهناك أشخاص يلوّحون له في نهاية النفق.

قال: «أنا قادم»، ثم استدار عندما سمع الضجيج المفاجئ خلفه. جسد فتاة ثقيلة ضربته بقوة في صدره، رافعةً إياه عن الأرض.

هبط مورت ويزابيل راكعة فوقه، ممسكة بذراعيه بشدة، ليقول بنبرته العميقة: «اتركيني، لقد استُدعيت».

- ليس أنت، أيها الأحمق!

حدّقت إلى عينيه، البرّك الزرقاء الخالية من بؤبؤ العينين، وكأنها تنظر إلى نهاية نفق.

انحنى مورت إلى الخلف وصرخ بسُبة قديمة وخبيثة جدًّا لدرجة أنها تجسدت داخل ذلك الحقل السحري القوي، ورفرفت بجناحيها الجلديين وانسلّت بعيداً، فيما دوّت عاصفة رعديّة خاصة حول الكتبان الرملية. جذبتها عيناه مرة أخرى، فنظرت يزابيل بعيداً قبل أن تسقط كحجر في بئر مصنوعة من الضوء الأزرق.

قال مورت بصوت قادر على ثقب الصخور: «أنا آمرك».

قالت بهدوء: «جرّب والذي هذه النبرة معي سنواتٍ. عادةً عندما يريد مني تنظيف غرفتي. لم ينجح ذلك أيضاً في تلك الأوقات».

صرخ مورت بسُبة أخرى، فتجسدت وارتطمت بالهواء وحاولت أن تدفن نفسها في الرمال.

صاح مورت: «الأم...».

قالت يزابيل: «كل هذا داخل رأسك»، وهي تُعدُّ نفسها ضد القوة التي أرادت سحبهما نحو ذلك الباب المتلألئ، لتُكمل: «أنت لست الموت. أنت مورت فقط. أنت ما أعتقد أنك عليه».

في مركز الزرقة المغبشة لعينيه، ظهرت نقطتان بنيتان صغيرتان، ترتفعان بسرعة البصر.

ارتفعتِ العاصفة من حولهما وولولت، فصرخ مورت.

طقوس (أشكينت)، ببساطة، تستدعي الموت وتربطه. سيُدرِك طلاب السحر أنه يمكن إجراؤها بتعويذة بسيطة، وثلاث قطع صغيرة من الخشب و4 سم مكعب من دم الفأر، لكن لا ساحر يستحق قبعته الحادة سيحلم بفعل شيء غير باهر، إذ أدركوا داخل نفوسهم أنه إذا لم تتضمن التعويذة شموعًا صفراء كبيرة، والكثير من البخور النادر، ودوائر مرسومة على الأرض بثمانية ألوان مختلفة من الطباشير وبعض المراحل حول المكان، فإنها ببساطة لا تستحق التفكير.

تمايل السحرة الثمانية في مواقعهم على نقاط الشكل الثماني الطقسي الكبير في أثناء الإنشاد، وأذرعهم ممدودة إلى الجانبين بحيث يلامس كل منهم أطراف أصابع السحرة بجانبه.

لكن هناك شيء يسير بشكل خاطئ. صحيح أن ضبابًا قد تشكّل في وسط الشكل الثماني الحي، لكنه كان يتلوّى ويلتف على نفسه، رافضًا أن يتركّز.

صاح ألبرت: «المزيد من القوة! أعطوه المزيد من القوة!».

ظهر شخص ما لحظة وسط الدخان، مرتديًا رداءً أسود ويحمل سيفًا لامعًا. أطلق ألبرت سُبّة عندما لمح الوجه الشاحب تحت الغطاء؛ لم يكن شاحبًا بما فيه الكفاية.

صرخ ألبرت، منحنيًا داخل الشكل الثماني ليضرب الشكل المتلألئ بيديه: «لا! ليس أنت، ليس أنت...».

وفي تسورت البعيدة، نسيت يزابيل أنها سيدة، وكوّرت قبضتها، وضيق عينيها وضربت مورت مباشرة على فكه، فانفجر العالم من حولها...

في مطبخ بيت الأضلاع لدى هارجا، سقطت المقلادة على الأرض، فهربت القطط من الباب...

وفي القاعة الكبرى للجامعة الخفية، حدث كل شيء في وقت واحد⁽¹⁾. القوة الهائلة التي كان السحرة يبذلونها نحو عالم الظلال صار لها تركيز واحد فجأة. مثل قطعة فلين انطلقت من فوهة زجاجة، مثل دفقة من الكاتشب الناري من زجاجة صلصة الأبدية المقلوبة، هبط الموت في الشكل الثماني مُطلقاً السُّباب.

أدرك ألبرت متأخراً جداً أنه كان داخل الحلقة المسحورة، فحاول الفرار نحو الحافة، لكنْ أمسكته الأصابع الهيكلية من طرف رداءه. السحرة، أو من كانوا لا يزالون على أقدامهم ومحتفظين بوعيتهم، تفاجأوا إلى حد ما لرؤية أن الموت كان يرتدي مئزر الطهو ويمسك قطعة صغيرة.

قال الموت: «لماذا أفسدت كل شيء؟».

صاح ألبرت غاضباً محاولاً الوصول إلى حافة الدائرة: «أفسدت كل شيء؟ هل رأيتَ ما فعله الفتى؟».

رفع الموت جمجمته وشم الهواء، فارتفع صوت استنشاقه فوق كل الأصوات الأخرى في القاعة وأجبرها على الصمت.

(1) هذا ليس دقيقاً تماماً. يتفق الفلاسفة عموماً على أن أقصر وقت يمكن أن يحدث فيه كل شيء هو ألف مليار عام. (المؤلف)

كان صوتًا من النوع الذي يُسمَع في حواف الأحلام، ذلك النوع الذي تستيقظ منه بعرق بارد من الرعب البشري. كان الاستنشاق تحت عتبة باب الرهبة. كان مثل استنشاق القنفذ، لكن إذا كان كذلك، فإنه القنفذ الذي يخرج من جوانب الطرق ويسحق الشاحنات. كان صوتًا لا تودُّ سماعه مرتين، بل لا تودُّ سماعه مرة واحدة.

ثم فَرِدَتْ قامة الموت ببطء، وقال: «أهكذا يُرَدُّ جميل إحساني؟ أن يسرق ابنتي، يهين خدامي ويخاطر بنسيج الواقع من أجل نزوة شخصية؟ يا للغباء، يا للغباء، لقد كنت غيبًا مدةً طويلةً جدًّا!..».

قال ألبرت: «سيدي، إذا تفضلتَ بأن تترك ردائي...»، ولاحظ الساحر نبذة التوسل في صوته التي لم تكن موجودة من قبل.

تجاهله الموت. نقر بأصابعه كصنوج موسيقية، وانفجر المئزر حول خصره إلى السنة لهب قصيرة. لكنه وضع القطة بعناية شديدة ودفعها برفق بقدمه، قائلاً: «ألم أعطه أعظم فرصة؟».

- بالتأكيد، سيدي، وإذا أمكنك فقط أن...
- ألم أعطه مهارات؟ هيكلًا وظيفيًا؟ آفاقًا مستقبلية؟ وظيفة مدى الحياة؟

- فعلاً، وإذا كنت ستترك...

تغيّر صوت ألبرت بالكامل، فأبواق الأمر أصبحت صفارات التوسل. بدا مرعوبًا، في الواقع، لكنه تمكن من لفت انتباه رينسويند وهمس له: «عصاي! ارم لي عصاي! بينما هو في الدائرة، فهو ليس منيعًا من الهزيمة! دعني أحصل على عصاي وسأتمكن من الهرب!..».

قال رينسويند: «عفوًا؟».

قال الموت: «آه، أنا من يقع اللوم عليه لأنني استسلمت لهذا الضعف الذي سأسميه الجسد، لرغبتني في إيجاد كلمة أفضل!».
تمتم ألبرت: «عصاي، أيها الأحمق، عصاي!».
- آسف؟

قال الموت: «أحسنْتَ يا خادمي، لأنك جعلتني أعود إلى صوابي. دعنا لا نضيع الوقت».
- عصايب...!

حدث انفجار داخل الدائرة، وتدفق الهواء إلى الداخل. امتدَّ لهب الشموع كخطوط من النار للحظة، ثم انطفأت، ومرَّ بعض الوقت.
بعدها أتى صوت أمين الصندوق من مكان ما بالقرب من الأرض:
«كان ذلك سلوكًا غير لطيف يا رينسويند، أن يفقد عصاه بهذا الشكل. ذكرني بأن أعاقبك بشدة في أحد الأيام. هل لدى أحدكم قداحة؟».
- لا أعرف ما حدث لها! لقد أسندتها إلى العمود هنا والآن هي...
- أوووك.

قال رينسويند: «آه».

قال أمين الصندوق بلهجة معتدلة: «حصة إضافية من الموز لذلك القرد». اشتعل عود ثقاب وتمكن أحدهم من إضاءة شمعة، فيما بدأ السحرة في النهوض من على الأرض.

استمر أمين الصندوق في كلامه: «حسنًا، كان هذا درسًا لنا جميعًا»، وهو يزيل الغبار والشمع الذائب عن رداءه، ثم نظر إلى الأعلى، متوقعًا رؤية تمثال ألبرتو ماليش عائدًا إلى قاعدته، فقال: «من الواضح أن حتى التماثيل لها شعور. أذكر نفسي، عندما كنت طالبًا في السنة الأولى،

أنني كتبتُ اسمي عليه، حسنًا، لا يهم. المهم هو، إنني أقترح أن نستبدل التمثال على الفور».

قوبل هذا الاقتراح بصمت مهيب.

تابع أمين الصندوق بحماس: «مثلًا، نضع تمثالًا مطابقًا تمامًا مصبوبًا من الذهب، مزينًا بالأحجار الكريمة كما يليق بمؤسسنا العظيم». ثم أضاف: «ولضمان عدم تشويه الطلاب له بأي شكل، أقترح أن نقيمه في أعرق قبو، ثم نغلق الباب»، فبدأ بعض السحرة يشعرون بالبهجة.

قال رينسويند: «ونرمي المفتاح؟».

قال أمين الصندوق وقد تذكّر لتوه مسألة «الطبلّة المرممة»: «ونلحم الباب»، ثم فكر لحظة وتذكر أيضًا نظام اللياقة البدنية، فقال: «ثم نغلق المدخل بالطوب»، فتدافعت التصفيفات.

ضحك رينسويند، وقد شعر بأنه بدأ يعتاد هذا: «ونقتل البناء!».

عبس أمين الصندوق بوجهه نحوه قائلاً: «لا داعي إلى أن تتجاوز حدودك».

في صمت، ارتفع كثيب رمل أكبر من المعتاد بشكل غريب ثم تهاوى ليكشف عن بينكي، وهو ينفخ الرمل من خياشيمه ويهز عرقه. فتح مورت عينيه.

يجب أن تكون هناك كلمة تصف ذلك الوقت القصير الذي يلي الاستيقاظ مباشرة، عندما يكون العقل ممتلئًا بكم دافئ وردي من اللاشيء. تستلقي هناك خاليًا تمامًا من الأفكار، باستثناء شك متزايد أن جميع الذكريات التي تودُّ حقًا تجنبها، والتي تفيد بأن العامل الوحيد

الذي يُخَفِّف من مستقبلك الرهيب هو اليقين بأنه سيكون قصيرًا جدًا،
تتجه نحوك مثل كيس من الرمل الرطب في زقاق مظلم.

جلس مورت ووضَعَ يديه على رأسه ليمنعه من الانفكاك.

تكوَّمت الرمال بجانبه ودفعت يزابيل نفسها إلى وضعية الجلوس.
امتلاً شعرها بالرمال وتغطى وجهها بغبار الهَرَم، فيما بدا بعض شعرها
مجمعًا عند الأطراف. نظرت إليه بفتور، فقال لها وهو يختبر فكَّه بلُطف:
«هل ضربتيني؟».

- أجل.

- أوه.

نظر إلى السماء، وكأنه يأمل أن تُذَكِّره بشيء ما. تذكَّر أنه عليه
الوجود في مكان ما قريبًا. ثم تذكَّر شيئًا آخر، فقال: «شكرًا لك».

قالت يزابيل: «في أي وقت، أؤكد لك»، ثم حاولت الوقوف وإزاحة
التراب والعناكب عن فستانها، لتسأله بعدها بتردد: «هل نحن ذاهبون
لإنقاذ أميرتك هذه؟».

استعاد مورت حقيقته الشخصية الداخلية، فقفز على قدميه بصيحة
مختنقة، ورأى الألعاب النارية الزرقاء تتفجر أمام عينيه، وسقط مرة
أخرى.

أمسكت به يزابيل من تحت كتفيه وساندته إلى أن وقف على قدميه،
وقالت: «لنذهب إلى النهر. أعتقد أننا جميعًا بحاجة إلى شراب».

- ماذا حدث لي؟

هزَّت كتفها بأفضل ما يمكنها فيما استمرت بدعمه وقالت: «استخدم
أحدهم طقس (أشكينت). أبي يكرهه، يقول إنهم دائمًا يستدعون به في

أوقات غير ملائمة. جزء الموت بداخلك ذهب وبقيت أنت. أظن ذلك. على الأقل استعدت صوتك الخاص».

- كم الساعة؟

- ما الوقت الذي قلت إن الكهنة يغلِقون فيه الهرم؟

حدّق مورت بعينيه المليئتين بالدموع نحو مقبرة الملك. وفعلًا، رأى أيدي مضاءة بالمشاعل تعمل على الباب. قريبًا، وفَقَّ الأسطورة، سيستفيق الحراس ويبدأون دوريتهم الأبدية.

أدرك أنهم سيفعلون ذلك. تذكّر معرفته السابقة. تذكّر أنه شعر كأن عقله بارد كالجليد وبلا حدود كسماء الليل. تذكّر أنه استُدعي إلى الوجود المتردد في اللحظة التي ظهر فيها أول كائن حي، وهو على يقين من أنه سيعيش أطول من الحياة نفسها إلى أن يُتوفّى آخر كائن في الكون، وعندها سيكون دوره، من الناحية المجازية، هو وضع الكراسي على المناضد وإطفاء الأضواء.

تذكّر الوَحْدَة، فقال بسرعة: «لا تتركيني».

قالت يزابيل: «أنا هنا. ما دمتَ تحتاج إليّ مهما طال الوقت».

قال بفتور: «إنه منتصف الليل»، ثم غمر رأسه المتألم في الماء بجانب نهر تسورت. سمع بجانبه صوتًا كصوت تفريغ حوض الاستحمام فيما أخذ بينكي أيضًا رشفة من الماء.

قالت يزابيل: «هل يعني ذلك أننا تأخرنا؟».

- أجل.

- أنا آسفة. أتمنى لو كان هناك شيء يمكنني فعله.

- لا يوجد.

- على الأقل، حافظتَ على وعدك لألبرت.

قال مورت بمرارة: «أجل. على الأقل فعلتُ ذلك».

تقريبًا على طول الطريق من أحد جانبي القرص إلى الجانب الآخر... يجب أن توجد كلمة للشرارة الدقيقة من الأمل التي تجرؤ على عدم التمسك بها خوفًا من أن يؤدي مجرد الاعتراف بها إلى زوالها، مثل محاولة النظر إلى جسيم فوتون. لا يمكنك إلا أن تقترب من تلك الشرارة خلسة، تنظر من خلالها، تمر بجانبها، تنتظر حتى تكبر بما يكفي لمواجهة العالم.

رفع مورت رأسه وهو تتساقط منه المياه، ونظر نحو أفق الغروب، محاولًا تذكُّر النموذج الكبير للقرص في مكتب الموت دون أن يدع الكون يعرف ما يطرحه.

في أوقات مثل هذه، قد يبدو أن حتمية الأمور متوازنة بدقة لدرجة أن التفكير بصوت عالٍ يمكن أن يفسد كل شيء. استدلَّ على موقعه من خلال الأشرطة الرقيقة من ضوء المركز الراقصة أمام النجوم، وخرج بتخمين ملهم بأن ستولات كانت... هناك...

قال بصوت عالٍ: «منتصف الليل».

قالت يزابيل: «لقد مرَّ منتصف الليل الآن».

نهض مورت، محاولًا ألا يدع الفرع يشع منه كمنارة، وأمسك بسرج بينكي قائلاً: «هيا. لم يتبقَّ لدينا الكثير من الوقت».

- عمَّ تتحدث؟

مدَّ مورت يده ليرفع يزابيل خلفه. كانت فكرة جيدة، ولكنها كادت تتسبب في سقوطه من على السرج، فدفعته يزابيل برفق وصعدت بمفردها. اندفع بينكي متأثرًا بإثارة مورت الحماسية، فنفت الهواء من منخاريه وضرب بحوافره الرمال.

- قلت، عمّ تتحدث؟

وجّه مورت الحصان نحو التوهج البعيد لغروب الشمس، وقال:
«سرعة الليل».

أطلّ كاتويل برأسه فوق أسوار القصر متذمّرًا. كان حاجز القبة على بعد شارع واحد، واضحًا بشدة في الضوء الأوكتاريني، ولم يضطر إلى أن يتخيل الصوت الصادر عنها، إذ استطاع سماعه... دمدمة مزعجة ذات أسنان منشار حيث تصطدم جسيمات الاحتمالات العشوائية بحواجز القبة وتفقد طاقتها كضوضاء. تقدّم الجدار اللامع في الشارع، فابتلع الزينة، والمشاعل، والجماهير المنتظرة، تاركًا شوارع مظلمة فقط. فكَرَّ كاتويل، أنه في مكان ما هناك، هو نائم بعمق في فراشه ولم يحدث أي من هذا. كم هو محظوظ هناك.

انحنى كاتويل، وانزلق على السلم إلى الأحجار الصغيرة، ليركض عائداً إلى القاعة الرئيسية، فيما تراقصت أذيال عبااته حول كعبيه. تسلل خلال البوابة الصغيرة في الباب الكبير وأمر الحراس بإغلاقه، ثم أمسك بأذياله مرة أخرى وركض خلال ممر جانبي لكي لا يلاحظه الضيوف.

كانت القاعة مُضاءة بآلاف الشموع ومكتظةً بشخصيات من سهل ستو، ومعظمهم غير متأكد لماذا هم هناك. وطبعًا، كان هناك الفيل.

ذلك الفيل هو ما أقنع كاتويل بأنه فقد عقله، لكنّ بدت الفكرة جيدة قبل بضع ساعات، عندما التقى إحباطه من ضعف بصر الكاهن الأعلى ذكرى أن مطحنة خشب على حافة المدينة تمتلك هذا الحيوان لأغراض النقل الثقيل. كان الفيل مُسنًا، ومُصابًا بالتهاب المفاصل، ومزاجه غير

مستقر، لكنْ له مزية هامة كأضحية، إذ لا بُدَّ أن الكاهن الأعلى سيكون قادرًا على رؤيته.

حاول نصف دزينة من الحراس تقييد الحيوان بصعوبة، وقد بدأ يُدرك دماغه البطيء أنه ينبغي أن يكون في إصطبله المألوف، حيث يتوفر القش والماء ووقت كافٍ للحلم بأيام الصيف الحارة على سهول كلاتش الكبيرة، فبدأ الفيل في التملل.

سيتضح قريبًا أن سبب تملله المتزايد هو أن خرطومهم، في فوضى ما قبل الاحتفال، عثر على الكأس الاحتفالية التي تحتوي على جالون من النبيذ القوي وشربه بالكامل. بدأت أفكار غريبة وساخنة في الظهور أمام عينيه ذات القشور، مثل اقتلاع أشجار البواباب، ومعارك التزاوج مع الثيران الأخرى، والتدافع المجيد خلال القرى المحليّة، ومصادر متعته الأخرى التي لا يتذكرها بوضوح. سرعان ما سيبدأ في رؤية أشخاص زهرية اللون.

من حسن الحظ، لم يدرِ كاتويل بذلك، وتمكن من لفت انتباه مساعد الكاهن الأعلى -وهو شاب ذو نظرة مستقبلية لديه البصيرة ليجهز نفسه بمئزر مطاطي طويل وحذاء مائي- وأشار بضرورة بدء الاحتفال. عاد مسرعًا إلى غرفة ملابس الكاهن وكافح ليرتدي الثوب الاحتفالي الخاص الذي صنعه خياطة القصر له، إذ بحثت بعمق في سلة العمل الخاصة بها لتجد بقايا من الدانتيل، والترتر، والخيوط الذهبية لتنتج رداءً بلمعان لا يضاهي في ذوقه السيئ لدرجة أن حتى مستشار الجامعة الخفية لم يكن ليخجل من ارتدائه. منح كاتويل نفسه خمسَ ثوانٍ للإعجاب بنفسه في المرآة قبل أن يضع القبعة الحادة على رأسه ويركض عائدًا إلى الباب، متوقفًا في الوقت المناسب ليظهر بخطوات رزينة كما يليق بشخص ذي مكانة.

وصل إلى الكاهن الأعلى فيما بدأت كيلى تقدمها في الممر الأوسط،
مُحاطة بخادِمت يتدافعن حولها مثل قاطرات حول سفينة كبيرة.
على الرغم من عيوب الثوب الموروث، فكّر كاتويل أن كيلى تبدو
جميلة. كان هناك شيء ما بشأنها جعله...

كزّ كاتويل أسنانه وحاول التركيز على ترتيبات الأمن، فقد وضع
حُرَّاسًا في نقاط استراتيجية في القاعة تحسبًا لمحاولة دوق ستو
هيليت إعادة ترتيب الخلافة الملكية في اللحظة الأخيرة، وذكّر نفسه بأن
يُمعن في مراقبة الدوق نفسه الذي جلس في الصف الأمامي من المقاعد
بابتسامة غريبة وهادئة على وجهه. تلاقت نظرات الدوق بعيني كاتويل،
فأسرع الساحر بالنظر بعيدًا.

رفع الكاهن الأعلى يديه إيدانًا بالصمت. تحرّك كاتويل نحو الكاهن
فيما استدار الشيخ تجاه مركز القرص، وبدأ بالصلاة إلى الآلهة بصوت
متهدّج، في حين ترك كاتويل عينيه تعودان نحو الدوق.
- اسمعوني، آه، أيتها الآلهة...

هل كان ستو هيليت ينظر إلى الظلام المملوء بالخفافيش في
العوارض الخشبية؟

- اسمعني، أيها الإله إيو المكفوف ذو المئة عين؛ اسمعني، أيها الإله
أوفلر ذو الفم المسكون بالطيور؛ اسمعني، أيها القَدَر الرحيم؛
اسمعني، أيها المصير البارد؛ اسمعني، يا سيك ذو الأيدي السبع؛
اسمعني، يا هوكي الغابات؛ اسمعني، أيها...

بذعر ممل، أدرك كاتويل أن الشيخ الأحق، رغم كل التعليمات، كان
على وشك ذكر جميع الآلهة. هناك أكثر من تسعمئة إله معروف على
القرص، ويكتشف باحثو اللاهوت المزيد كل عام. قد يستغرق الأمر
ساعات، وفعلاً بدأ الحاضرون في التحرك في أماكنهم.

وقفتُ كيلى أمام المذبح بوجه يملأه الغضب. وخز كاتويل الكاهن الأعلى فى أضلاعه، فلم يكن لذلك تأثير ملحوظ، ثم لوح بحاجبيه بشدة نحو الشاب المساعد، وهمس: «أوقفه! ليس لدينا وقت!».

- ستغضب الآلهة...

- لن تغضب بقدر غضبي، وأنا موجود هنا، بعكسهم.

نظر المساعد إلى تعبير وجه كاتويل لحظةً وقرر أنه من الأفضل أن يشرح للآلهة لاحقاً، فنقر كتف الكاهن الأعلى وهمس بشيء فى أذنه. « يا ستيكهجيل، إله الحظائر المنعزلة؛ اسمعني، أوه.. مرحباً؟ ماذا؟».

همهمة، همهمة.

- هذا، مم، غير معتاد جداً. حسناً، سننتقل مباشرة إلى، مم، سرد النسب الملكي.

همهمة، همهمة.

عبس الكاهن الأعلى تجاه كاتويل، أو على الأقل تجاه المكان الذى ظنَّ أن كاتويل يقف فيه.

- أوه، حسناً. مم، حضُّروا البخور والروائح لتطهير المسار الرباعي. همهمة، همهمة.

اغتمَّ وجه الكاهن الأعلى، وقال بحدة: «أفترض أن، مم، الصلاة القصيرة، هم، غير مقبولة تماماً؟». قالت كيلى بوداعة: «إذا لم يتحرك البعض بسرعة، ستحدث مشكلة».

همهمة.

قال الكاهن الأعلى: «لا أدري، أنا متأكد. قد لا يكلف الناس أنفسهم عناء حضور المراسم الدينية، ممم، على الإطلاق. أحضروا الفيل اللعين، إذن».

نظر المساعد إلى كاتويل نظرة يائسة ولوّح للحراس. وبينما كانوا يدفعون حمولتهم المتأرجحة بلطف نحو الأمام بالصراخ والعصي الحادة، تقدّم الكاهن الشاب نحو كاتويل ودفع شيئاً في يده. نظر كاتويل إلى الأسفل، فوجد أنها قبعة مقاومة للماء، فقال: «هل هذا ضروري؟».

قال المساعد: «إنه متدين جداً. قد نحتاج إلى أنبوب التنفس». وصل الفيل إلى المذبح وأُجبر على الركوع، دون صعوبة كبيرة، ثم تجشأ. صرخ الكاهن الأعلى: «حسنًا، أين هو إذن؟ لننهي هذه، ممم، المهزلة!».

همهم المساعد بجانبه، فاستمع الكاهن الأعلى، وأوماً برأسه بجدية، ثم أخذ سكين التضحية ذات المقبض الأبيض ورفعها بكلتا يديه فوق رأسه. شاهده القاعة كلها، وهي تحبس أنفاسها. ثم خفضها مرة أخرى وقال: «أين أمامي؟». همهمة.

- بالتأكيد لا أحتاج إلى مساعدتك، أيها الفتى! لقد ضحيتُ بالرجال، والفتية، ممم، والنساء، والحيوانات سبعينَ عامًا، وعندما لا أستطيع استخدام، ممم، السكين، يمكنك أن تدفني!». ثم أطاح بنصل السكين في حركة واسعة عشوائية أصابت الفيل بجرح طفيف على خرطومه.

استيقظ المخلوق من سباته التألمي اللطيف وصرخ، فاستدار
المساعد في رعب لينظر إلى عينين صغيرتين محتقنتين بالدم تُحدّقان
أسفل خرطوم غاضب، وقفز عن المذبح في قفزة واحدة.

ثار الفيل، وغمرت رأسه المتألم ذكريات غامضة ومربكة عن نيران
وصيحات ورجال بشباك وأقفاص ورماح وسنوات طويلة من سحب
جذوع الأشجار الثقيلة. أنزل خرطومه على حجر المذبح، ولدهشته إلى
حد ما، قسمه إلى نصفين، ورفع الجزءين في الهواء بأنيابه، ثم حاول
دون جدوى اقتلاع عمود حجري، ليشعر فجأة بحاجة إلى نَفْسٍ من
الهواء النقي، فبدأ في التحرك ببطء نحو نهاية القاعة.

وصل إلى الباب بسرعة جنونية، ودماؤه تضج بنداء القطيع
وممزوجة بالكحول، فخلعه من المفصلات. وانطلق خلال الفناء فيما
ما زال يرتدي الإطار على كتفيه، فحطّم البوابات الخارجية، وتجشأ في
أثناء اختراقه المدينة النائمة، وظل يتسارع ببطء عندما شم رائحة قارة
كلاتش المظلمة البعيدة خلال نسيم الليل، فرفع ذيله مُتَّبِعًا النداء القديم
للوطن.

في القاعة كان هناك غبار وصيحات وارتباك. دفع كاتويل قبعته
بعيدًا عن عينيه ونهض على يديه وركبتيه، فقالت كيلى التي كانت
مستلقية تحته: «شكرًا لك. ولماذا قفزت فوقى؟».

- أول غريزة فطرية لديّ هي حمايتك، يا صاحبة الجلالة.

قالت كيلى: «نعم، ربما كانت غريزة فطرية، لكن...»، كادت تقول
إنه ربما كان الفيل سيزن أقل، لكن رؤية وجهه الكبير والجاد والمشتعل
أوقفها، فقالت بعدما جلست لتمسح الغبار عن نفسها: «سنتحدث عن
هذا لاحقًا. في هذه الأثناء، أعتقد أننا سنتخلى عن التضحية. لست

صاحبة الجلالة بعد، فقط صاحبة السمو، والآن إذا كان بإمكان شخص ما إحضار التاج....».

أنت من خلفهم فرقة قفل الأمان لسلاح ما، فيما قال الدوق: «فليضع الساحر يديه حيث أستطيع رؤيتهما».

وقف كاتويل ببطء، واستدار، فرأى الدوق مدعومًا بنصف دزينة من الرجال الكبار الجادين، الذين تتلخص وظيفتهم الوحيدة في الحياة في الوقوف وراء أشخاص مثل الدوق. حمل الرجال دزينة من الأقواس الكبيرة الجادة، التي تتلخص وظيفتها الرئيسية في أن تبدو على وشك الانطلاق.

نهضت الأميرة بسرعة وألقت بنفسها على عمها، لكن كاتويل أمسك بها، وقال بهدوء: «لا. إنه ليس نوع الرجال الذين يقيدونك في قبو مع ما يكفي من الوقت للفئران لتأكل حبالك قبل أن ترتفع مياه الفيضان. إنه من النوع الذي يقتلك هنا على الفور».

انحنى الدوق، وقال: «أعتقد أنه يمكن القول بحق أن الآلهة قد تحدثت. من الواضح أن الأميرة سحقت بشكل مأساوي من قبل الفيل الهائج. سيشعر الناس بالحزن. سأعلن شخصيًا أسبوعًا من الحداد».

قالت الأميرة وهي على وشك البكاء: «لا يمكنك فعل ذلك، جميع الضيوف رأوا...».

هز كاتويل رأسه، إذ رأى الحراس يتحركون بين حشود الضيوف المرتبكين، فقال: «لم يروا شيئًا. ستدهشين مما لم يروه. خاصة عندما يعلمون أن الموت المأساوي سحقتًا بالفيلة الهائجة يمكن أن يكون مُعديًا. يمكنك حتى أن تموتي منه في سريرك».

ضحك الدوق بلطف، وقال: «أنت ذكي حقًا بالنسبة إلى ساحر. الآن، أنا أقترح فقط النفي...».

قال كاتويل: «لن تفلت بفعلتك هذه»، ثم فكَرَ قليلاً، وأضاف: «حسنًا، ربما ستفلت بفعلتك، لكنك ستشعر بالسوء حيال ذلك على فراش الموت وستتمنى...».

ثم توقّف عن الكلام، وفتح فمه بدهشة. استدار الدوق نصف استدارة ليتبع نظراته قائلًا: «حسنًا، أيها الساحر؟ ماذا رأيت؟».

قال كاتويل بهستيرية: «لن تفلت بفعلتك هذه. لن تكون هنا حتى. هذا لن يحدث أبدًا، أتدرك ذلك؟».

قال الدوق: «راقبوا يديه. إذا حرك أصابعه، أطلقوا النار عليهما». ثم نظر حوله مرة أخرى بارتباك. بدا صوت الساحر حقيقيًا. طبعًا، كان يُقال إن السحرة يمكنهم رؤية أشياء غير موجودة...

تابع كاتويل بتلعثم: «لا يهم حتى لو قتلتنى، لأنه غداً سأستيقظ في سريري ولن يكون هذا قد حدث على أي حال. لقد اخترق الجدار!».

امتدَّ الليل على القرص. هو موجود دائمًا طبعًا، يختبئ في الظلال والثقوب والأقبية، لكنّ مع انجراف ضوء النهار البطيء بعد الشمس، انتشرت بحيرات وبرك الليل، واجتمعتْ واندمجتْ. يتحرك الضوء على قرص العالم ببطء بسبب الحقل السحري الهائل.

الضوء على قرص العالم ليس مثل الضوء في أي مكان آخر. لقد نضج قليلاً، وعرف ما يدور حوله، فلم يعد يشعر بالحاجة إلى الاندفاع في كل مكان. يعرف أنه مهما كانت سرعته، فإن الظلام دائمًا يصل أولاً، لذا صار يأخذ الأمور بسهولة.

حلّق منتصف الليل خلال المناظر الطبيعية كخفاش مخمليّ. وظهرت شرارة صغيرة تتجه نحو العالم المظلم للقرص، عكس اتجاه

منتصف الليل وأسرع منه، صادرة عن بينكي. كانت ألسنة اللهب تتراجع عن حوافره، فيما تتحرك العضلات تحت جلده اللامع مثل الثعابين في الزيت.

تحركوا في صمت، أبعدت يزابيل ذراعها من حول خصر مورت، وراقبت الشرارات تتلأأ حول أصابعها في جميع ألوان الطيف الثمانية. تدفقت ثعابين ضوئية صغيرة متصدعة أسفل ذراعها وتألقت من أطراف شعرها.

قاد مورت الحصان إلى أسفل، تاركًا أثرًا من السحب المغلية يمتد أميالًا خلفهم، وتمتم: «الآن أعلم أنني أُصبت بالجنون».

- لماذا؟

- لقد رأيتُ للتو فيلاً هناك. يا للهول. انظري، يُمكنك رؤية ستولات أمامك.

نظرت يزابيل من فوق كتفه إلى بريق الضوء البعيد، فقالت بقلق: «كم بقي لدينا من الوقت؟».

- لا أعرف. بضع دقائق، ربما.

- مورت، لم أسألك من قبل...

- ماذا؟

- ماذا ستفعل عندما نصل إلى هناك؟

- لا أعرف. كنت آمل أن يُقترح شيء ما في الوقت المناسب.

- هل حدث ذلك؟

- لا. لكن لم يحن الوقت بعد. قد تساعدنا تعويذة ألبرت. وأنا...

جثمتُ قبة الواقع فوق القصر مثل قنديل بحر منهار، فتلاشى صوت مورت في صمت مروع.

ثم قالت يزابيل: «حسنًا، أعتقد أن الوقت قد حان تقريبًا. ماذا سنفعل؟».

- تمسكي جيدًا!

انزلق بينكي خلال البوابات المحطمة للفناء الخارجي، وانزلق على الحصى تاركًا أثرًا من الشرارات ليقفز خلال المدخل المُدمَّر للقاعة. ارتفع جدار الواجهة اللؤلؤية ومرَّ مثل صدمة رذاذ بارد.

رأى مورت بشكل غير واضح كيلى وكاتويل ومجموعة من الرجال الضخام وهم يقفزون للنجاة بحياتهم. تعرَّف ملامح الدوق وسحب سيفه، قافزًا من السرج بمجرد أن توقف حصانه السريع.

صرخ مورت: «لا تلمسها! سأقطع رأسك!».

قال الدوق ساحبًا سيفه الخاص: «هذا أمر مثير للإعجاب بالتأكيد. وغبيٌّ جدًّا أيضًا. أنا...».

ثم توقَّف، تجمدتْ عيناه، وسقط إلى الأمام.

أنزل كاتويل الشمعدان الفضي الكبير الذي حمله، وابتسم لمورت باعتذار.

استدار مورت نحو الحراس، واللهب الأزرق لسيف الموت يطنُّ في الهواء، فزمجر قائلاً: «هل يريد أحد آخر بعض هذا؟»، فتراجعوا إلى الخلف، ثم استداروا وركضوا. وعندما مرُّوا خلال الواجهة، اختفوا. لم يكن هناك أي ضيوف في الخارج أيضًا. في الواقع الحقيقي، كانت القاعة مظلمة وفارغة.

بقي الأربعة في نصف كرة يتضاءل بسرعة، فتسلل مورت نحو كاتويل قائلاً: «أي أفكار؟ أليدك تعويذة سحرية هنا في مكان ما...».

- انسَ ذلك. إذا حاولت فعل أي سحر هنا الآن، فستنفجر رؤوسنا. هذا الواقع الصغير لا يتسع لذلك.

انهار مورت على بقايا المذبح. شعر أنه خاوٍ، مستنزف. ولوهلة، شاهد الجدار المتوهج للواجهة يقترب. كان يأمل أن ينجو، وكذلك يزابيل. أما كاتويل، فلن ينجو، ولكن كاتويل آخر سينجو. لكن كيلى... قالت كيلى ببرود: «هل سأتوَّج أم لا؟ يجب أن أموت كملكة! سيكون فضيلاً أن أكون ميتة وعادية!».

نظر إليها مورت دون تركيز، محاولاً تذكُّر ما كانت تتحدث عنه. بحثت يزابيل في الحطام خلف المذبح، ووجدت دائرة ذهبية مثبتة بالماس صغير، فقالت: «هل هذا هو التاج؟».

قالت كيلى، وهي على وشك البكاء: «هذا هو التاج، لكن لا يوجد كاهن أو شيء من هذا القبيل».

تنهَّد مورت بعمق، وقال: «كاتويل، إذا كان هذا هو واقعنا الخاص، يمكننا إعادة ترتيبه بالطريقة التي نريدها، أليس كذلك؟».

- ماذا تقترح؟

- أنت الآن كاهن. اختر إلهك الخاص.

انحنى كاتويل، وأخذ التاج من يزابيل، فصاحت كيلى: «أتسخرون مني جميعاً!».

قال مورت بإرهاق: «أسف. لقد كان يوماً طويلاً نوعاً ما».

قال كاتويل بجدية: «آمل أن أتمكن من فعل ذلك بشكل صحيح. لم أتوَّج أي شخص من قبل».

قالت كيلى: «لم أتَّوَج من قبل!».

ردَّ كاتويل مُطمئنًا: «جيد، يمكننا أن نتعلم معًا».

بدأ في تلاوة بعض الكلمات المؤثرة بلغة غريبة. كانت في الواقع تعويذة بسيطة للتخلص من البراغيث في الملابس، لكنه فكَّر، ما المشكلة؟ ثم فكَّر، يا للهول، في هذا الواقع أنا أقوى ساحر على الإطلاق، سيكون ذلك شيئًا لأخبر أحفادي به... كزَّ أسنانه. هناك بعض القوانين التي ستُغيَّر في هذا الواقع، هذا أمر مؤكد.

جلستُ يزابيل بجانب مورت وأمسكت بيده، وقالت بهدوء: «حسنًا؟ حان الوقت. هل اقترح أي شيء نفسه؟».

- لا.

تقدَّمت الواجهة ببطء خلال القاعة، تتباطأ قليلًا مع تقدمها بلا هودة تحت ضغط الواقع المتسلل.

شعر مورت بشيء رطب ودافئ ينفخ في أذنه، فمدَّ يده ولمس أنف بينكي قائلاً: «يا حصاني العزيز. ليس لديَّ أي قطع سكر. عليك أن تجد طريقك للعودة بنفسك...».

توقَّفت يده في منتصف التربيطة، وقال: «يمكننا جميعًا العودة إلى المنزل».

قالت يزابيل: «لا أعتقد أن والدي سيحب ذلك كثيرًا»، لكنَّ تجاهلها مورت، وصاح: «كاتويل!».

- أجل؟

- سنغادر. هل ستأتي؟ ستظل موجودًا عندما تُغلق الواجهة.

قال الساحر: «جزء مني سيظل».

قال مورت مُتسلِّقًا ظهر بينكي: «هذا ما قصدته».

قال كاتويل بسرعة: «لكنْ بصفتي الجزء الذي لن يبقى، أرغب في الانضمام إليكما».

قالت كيلى: «أنوي البقاء هنا لأموت في مملكتي الخاصة».

قال مورت: «ما تنوينه لا يهم. لقد جئتُ خلال القرص كله لإنقاذك، كما ترين، وسأنقذك».

قالت كيلى: «لكنني الملكة!»، وامتلأت عيناها بالشك، فاستدارت نحو كاتويل الذي خفض شمعدهانه بارتباك، وقالت: «سمعتك تقول الكلمات! أنا الملكة، أليس كذلك؟».

قال كاتويل على الفور: «أوه، نعم»، ثم، لأنه يُفترض أن يكون كلام الساحر أكثر صلابة من الحديد الزهر، أضاف بلُطف: «وأيضًا خالية تمامًا من العدوى».

قال مورت بحزم: «كاتويل!»، فأومأ الساحر، وأمسك كيلى من خصرها ورفع جسدها على ظهر بينكي، ثم رفع تنورته حول خصره وتسَلَّق خلف مورت ثم مدَّ نفسه ليرفع يزابيل وراءه.

تثاقل الحصان على الأرضية، متذمرًا من الحمولة الزائدة، لكنْ وجَّهه مورت نحو المدخل المكسور وحثَّه على التقدُّم.

تابعتهم القبة فيما اتجهوا نزولًا خلال القاعة إلى الفناء، وارتفعتُ ببطء. كان الضباب اللؤلؤي على بعد أمتار قليلة فقط، يضيق ببطء.

قال كاتويل ليزابيل، رافعًا قبعته: «عذرًا. أنا إيجنوس كاتويل، ساحر من الدرجة الأولى بالجامعة الخفية، مُتعرِّف ملكي سابقًا وعلى وشك أن يُقَطَّع رأسه على الأرجح. هل تعرفين إلى أين نحن ذاهبون؟».

صرختُ يزابيل، بصوت أعلى من الريح: «إلى بلد والدي».

- هل قابلته من قبل؟

- لا أعتقد. كنت ستتذكر إذا حدث ذلك.

احتكّت قمة جدار القصر بحوافر بينكي فيما انقبضت عضلاته، سعيًا للحصول على ارتفاع أكبر، فانحنى كاتويل إلى الخلف مجددًا، متمسكًا بقبعته، وصاح: «من هذا الرجل النبيل الذي نتحدث عنه؟».

قالت يزابيل: «الموت».

- ليس...

- أجل.

قال كاتويل: «أوه»، ثم نظر إلى الأسطح البعيدة، وأعطاهما ابتسامة مائلة قائلاً: «هل سأوفر الوقت إذا قفزت الآن؟».

قالت يزابيل مدافعة: «إذا تعرّفته ستجده لطيفًا».

- أهو كذلك؟ هل تعتقدين أننا سنحظى بهذه الفرصة؟

قال مورت: «تمسّكوا! ينبغي أن نعبر خلال...».

ظهرت فجوة ملأى بالسواد وسط السماء فجأة وابتلعتهم، فيما تراقصت الواجهة بشكل غير مؤكد، فارغة كجيب فقير، واستمرت في الانكماش.

انفتح الباب الأمامي، ومدّت يزابيل رأسها من خلاله، لتقول: «لا يوجد أحد في المنزل. من الأفضل أن تدخلوا».

دخل الثلاثة الآخرون إلى الرواق، ومسح كاتويل قدميه بعناية.

قالت كيللي بانتقاد: «إنه صغير بعض الشيء».

قال مورت: «إنه أكبر بكثير من الداخل»، ثم توجه إلى يزابيل قائلاً: «هل نظرت في كل مكان؟».

قالت: «لا أستطيع حتى العثور على ألبرت. لا أتذكر أنه غاب عن هنا من قبل».

ثم سعلت، متذكراً واجباتها كمضيقة، فقالت: «هل يرغب أي شخص في تناول مشروب؟»، فتجاهلتها كيلى التي قالت: «كنت أتوقع قلعة على الأقل. كبيرة وسوداء، ذات أبراج مظلمة ضخمة. وليس حامل مظلات».

أشار كاتويل: «عليها منجل».

قالت يزابيل بسرعة: «لنذهب جميعاً إلى المكتب ونجلس، وواثقة أننا سنشعر بتحسن»، ثم فتحت الباب الأسود المغطى بالنسيج المخملي. دخل كاتويل وكيلى من الباب، يتشاجران، فيما أمسكت يزابيل بذراع مورت وقالت: «ماذا سنفعل الآن؟ سيغضب والذي بشدة إذا اكتشف وجودهما هنا».

قال مورت: «سأفكر في شيء ما. سأعيد كتابة السير الذاتية أو شيئاً من هذا القبيل»، ثم ابتسم بضعف قائلاً: «لا تقلقي. سأفكر في شيء ما».

أغلق الباب خلفه بقوة، فالتفت مورت لينظر إلى وجه ألبرت المبتسم. كان الكرسي الجلدي الكبير خلف المكتب يدور ببطء. نظر الموت إلى مورت خلال أصابعه المتشابكة. عندما تأكد تماماً من أنه يحظى بكامل انتباههما المذعور، قال: «يُفَضَّل أن تبدأ الآن».

ثم نهض، وبدا كأنه يزداد حجماً فيما تتزايد ظلمة الغرفة، ليضيف: «لا حاجة إلى الاعتذار».

دَفَنْتُ كيلى رأسها في صدر كاتويل الواسع.

قال الموت: «لقد عدتُ. وَأَنَا غَاظِبٌ».

قال مورت: «سيدي، أنا...».

قال الموت: «اصمْتُ»، ثم أشار إلى كيلى بإصبع عظمية، فنظرت إليه، وجسدها لا يجرؤ على العصيان.

مدَّ الموت يده ولمس ذقنها، فتحرّكت يد مورت نحو سيفه.

تساءل الموت: «هل هذا الوجه هو ما أطلق ألف سفينة، وأحرق أبراج بوسودوبوليس العارية؟».

حدّقت كيلى مذهولة في النقاط الحمراء العميقة في تلك المحاجر الداكنة.

قال كاتويل: «آه، عذراً». مُتمسكاً بقبعته باحترام، على الطريقة المكسيكية.

قال الموت مُشوَّشاً: «حسنًا؟».

- لا يا سيدي. لا بُدَّ أنك تفكر في وجه آخر.

- ما اسمك؟

- كاتويل يا سيدي. أنا ساحر، سيدي.

قال الموت باحتقار: «أنا ساحر، سيدي. إذن، اصمت يا ساحر».

تراجع كاتويل خطوة قائلاً: «حسنًا، سيدي».

توجّه الموت إلى يزابيل قائلاً: «ابنتي، وضّحي ما فعلته. لماذا ساعدتي هذا الأحمق؟».

انحنت يزابيل بتوتر، وقالت: «أنا... أحبه، يا أبي. أظن ذلك».

قال مورت بدهشة: «هل تحبينني؟ لم تقولي ذلك قط!».

قالت يزابيل: «لم يكن هناك وقت. أبي، لم يكن يقصد...».

- اصمُتي.

خفضت يزابيل نظرها، وقالت: «حسنًا يا أبي».

دار الموت حول المكتب إلى أن صار واقفًا مباشرة أمام مورت، وحدّق إليه مدّة طويلة.

ثم، في حركة مشوشة، ضرب بيده وجه مورت، وهذا ما أسقطه على الأرض، وقال: «أدعوك إلى بيتي، أدربك، أغذّيك، أبسّط لك الثياب، أوفّر لك فرصًا لا تحلم بها، وبذلك تجزييني. تفتن ابنتي، تتغافل عن الواجب، تحدث تموجات في الواقع سيستغرق إصلاح آثارها قرنًا. أفعالك السيئة أدت إلى إهلاك رفاقك. لن تطلب الآلهة أقل من ذلك، إجمالًا يا فتى، تلك ليست بداية جيدة لوظيفتك الأولى».

كافح مورت ليجلس، مُمسكًا بخده الذي احترق ببرودة، كجليد المذنب: «اسمي مورت».

- إنك تتكلم! ماذا تقول؟

- يمكنك أن تدعهم يذهبون. لقد تورطوا للتوّ. لم يكن ذلك خطأهم. يمكنك إعادة ترتيب هذا بحيث...

- لماذا يجب أن أفعل ذلك؟ إنهم ملكي الآن.

- سأعارك من أجلهم.

- جَميل للغاية. البشر يعاركونني طوال الوقت. ستعود بشريًا.

نهض مورت على قدميه. تذكّر كيف كان شعور كونه الموت. أمسك بالشعور، وتركه يطفو...

قال مورت: «لا».

- آه. إذن، تتحداني كأنداد، أليس كذلك؟

بلع مورت ريقه. لكنْ على الأقل أصبح الطريق واضحًا الآن. عندما تقفز عن حافة منحدر، تأخذ حياتك اتجاهًا محددًا جدًّا، فقال: «إذا لزم الأمر. وإذا فزتُ...».

قال الموت: «إذا فزتُ، ستكون في وضع يُمكنك من فعل ما تشاء. اتبعني».

تجاوز الموت مورت إلى الخارج نحو القاعة، فيما نظر الأربعة الآخرون إلى مورت.

قال كاتويل: «هل أنت متأكد أنك تدري ما تفعله؟».

- لا.

قال ألبرت مُتَنَهِّدًا: «لا يمكنك هزيمة السيد. ثق بكلامي».

قالت كيلى: «ماذا سيحدث إذا خسرت؟».

قال مورت: «لن أخسر. هذه هي المشكلة».

قالت يزابيل بمرارة: «أبي يريد أن يفوز».

قال كاتويل: «أتعني أنه سيترك مورت يفوز؟».

- أوه، لا، لن يتركه يفوز. إنه فقط يريد منه أن يفوز.

أومأ مورت برأسه. فيما كانوا يتبعون ظل الموت الداكن على مستقبل لا نهائي، خادمًا لأي غرض غامض خطط الخالق له، موجودًا خارج الزمن. لم يستطع لوم الموت على رغبته في ترك الوظيفة. قال الموت إن العظام ليست إلزامية، لكنْ ربما لن يكون لذلك أهمية. هل ستبدو الأبدية كأنها مدة طويلة، أم إن جميع الحيات -من وجهة نظر شخصية- لها الطول نفسه تمامًا؟

قال صوت في رأسه: «مرحبًا. أتذكرني؟ أنا أنت. أنا الذي أدخلتك في هذا الموقف».

قال مورت بمرارة: «شكرًا»، فنظر الآخرون إليه.

قال الصوت: «يمكنك أن تتجاوز هذا. لديك مزية كبيرة. لقد كنتَ هو، ولم يكن هو أنت».

عَبَرَ الموت القاعة ودخل الغرفة الطويلة، حيث اشتعلت الشموع بامتثال عند دخوله، فقال: «ألبرت».

- أجل، سيدي؟

- أحضرِ الساعات الرملية.

- حسنًا، سيدي.

أمسك كاتويل بذراع ألبرت الشيخ، وقال: «أنت ساحر. لا عليك أن تفعل ما يقوله!».

قال ألبرت بلطف: «كم عمرك يا فتى؟».

- عشرون.

قال ألبرت: «عندما تصل إلى سني، ستري خياراتك بشكل مختلف»، ثم توجه إلى مورت وقال: «أسف».

سحب مورت سيفه، وكان نصله بالكاد مرئيًا في ضوء الشموع. استدار الموت ووقف مواجهًا له، كصورة نحيفة ضد رف شاهق من الساعات الرملية.

مدَّ ذراعيه، فظهر المنجل بينهما مع دويٍّ صغير.

عاد ألبرت حاملًا ساعتين رملتين من أحد الممرات المبطنة بالزجاج، ووضعهما بصمت على حافة أحد الأعمدة.

كانت إحدى الساعتين أكبر بعدة مرات من الساعات العادية، سوداء اللون، رفيعة ومزينة بنمط معقد من الجماجم والعظام.

لم يكن ذلك أكثر ما يثير الاشمئزاز.

تنهّد مورت في داخله، إذ لم يستطع رؤية أي رمل داخلها.
كانت الزجاجاة الصغيرة بجانبها بسيطة وغير مزخرفة. مدّ يده
نحوها قائلاً: «أيمكنني فعل ذلك؟».

- تفضل.

نُقِشَ اسم «مورت» على الجزء العلوي من الساعة الرملية. رفعها إلى
الضوء، ملاحظاً دون أي مفاجأة حقيقية أن هناك بالكاد أي رمل متبقٍ.
عندما وضعها بالقرب من أذنه، ظن أنه يسمع صوت حياته تتسرب
بعيداً، حتى من بين هدير ملايين من الساعات الرملية المحيطة به،
فوضعها بعناية شديدة.

التفت الموت إلى كاتويل، وقال: «أيها السيد الساحر، هل ستكون
لطيفاً بما يكفي لتعدّ حتى الثلاثة؟».

أوماً كاتويل بحزن، وقال: «هل أنت متأكد أنه لا يمكن تسوية كل هذا
بالجلوس حول منضدة...».

- لا.

دار مورت والموت حول بعضهما بحذر، فلمعتِ انعكاساتهما خلال
صفوف الساعات الرملية.

قال كاتويل: «واحد».

أدار الموت منجله في تهديد.

- اثنان.

تلاقت النصال في الهواء بصوت يشبه انزلاق قطعة على لوح زجاجي،
فقال كيلي: «كلاهما غشاش!»، فأومأت يزابيل وقالت: «طبعاً».

قفز مورت إلى الخلف، ملوِّحًا بالسيف ببطء شديد ليتجنبه الموت بسهولة، محوِّلاً الضربة إلى مسحة منخفضة شريرة تجنبها مورت فقط بقفزة عشوائية.

مع أنَّ المنجل ليس هو الأداة البارزة بين أسلحة الحرب، فإن أي شخص كان في الطرف الخاطئ من ثورة الفلاحين مثلاً، سيعرف أنه سلاح مرعب بين الأيدي الماهرة. حالما يبدأ صاحبه في التلويح به وتدويره، لا أحد -من بين ذلك من يحمله- متأكد تمامًا أين سيكون النصل وأين سيكون بعد ذلك.

تقدّم الموت بابتسامة عريضة. انحنى مورت لتجنب ضربة على مستوى الرأس واندفع جانبًا، سامعًا صوت طنين خلفه عندما اصطدم طرف المنجل بساعة رملية على الرف الأقرب...

...في زقاق مظلم في موريورك، قبض عامل جمع الفضلات الليلية على صدره وسقط على عربته...

تدحرج مورت وهبًا واقفًا مُمسكًا السيف بكلتا يديه فوق رأسه، شاعرًا بإثارة مظلمة فيما تراجع الموت بسرعة خلال البلاط المربع. تلك الهجمة العنيفة شطرت رفاً؛ وبدأت الساعات الرملية تنزلق من عليه نحو الأرض واحدةً تلو الأخرى. كان مورت بالكاد واعيًا بيزابيل وهي تسرع لتلتقطها واحدة تلو الأخرى...

...خلال القرص، نجا أربعة أشخاص بأعجوبة من الموت سقوطًا من علٍ...

...ثم اندفع مورت إلى الأمام، مستغلًا مزيته. تحركت يدا الموت بسرعة كأنها ضبابية ليصدّ ويدفع كل ضربة، ثم غير قبضته على المنجل وجعل النصل يرتفع في قوس تجنبه مورت بشكل غير مريح، مصطدمًا بإطار ساعة رملية بمقبض سيفه وأطاح بها خلال الغرفة...

...في جبال الرامتوب، زلّت قدم راعي ثارجا يبحث في المروج العالية
عن بقرة مفقودة، وسقط من ارتفاع ألف قدم...

...قفز كاتويل إلى الأمام وأمسك بالساعة الرملية الساقطة بيد
ممدودة بيأس، وارتطم بالأرض وانزلق على بطنه...

...ظهرت شجرة مميز معقّدة بشكل غامض تحت الراعي الصارخ
وكبحت سقوطه، وهذا ما أزال مشكلاته الكبيرة - الموت، وحُكم الآلهة،
وعدم اليقين بشأن الجنة وما إلى ذلك - وأتت بمشكلة أبسط نسبياً وهي
تسلُّق مئة قدم من الجرف الجليدي المائل في ظلام دامس.

توقّف القتال وهلةً فيما تراجع المتقاتلان عن بعضهما وبدأ في
الدوران مرة أخرى، باحثين عن ثغرة.

قالت كيلى: «بالتأكيد هناك شيء يمكننا فعله؟».

قالت يزابيل، وهي تهزُّ رأسها: «مورت الخاسر في كلتا الحالتين».
أخرج كاتويل الشمعدان الفضي من كمه الفضفاض وألقاه بحذر من
يد إلى أخرى.

رفع الموت المنجل بتهديد، فحطّم ساعة رملية بجانب كتفه
بالمصادفة...

...في بيس بيلارجك، سقط كبير مُعذَّبٍ الإمبراطور إلى الخلف في
حفرة الحمض الخاصة به...

ضرب الموت ضربة أخرى تفادها مورت بصعوبة. لكنه شعر بالألم
الحار في عضلاته والسموم المسببة للإرهاق في دماغه، وهما عيبان
على الموت ألا يفكر فيهما.

لاحظ الموت ذلك، فقال: «استسلم، قد أعاملك برحمة».

ولتوضيح ذلك، ضرب ضربة جانبية تلقّاها مورت بشكل أخرق على حافة سيفه. ارتدّ نصل المنجل، مُحطماً ساعة رملية إلى ألف شظية...
...أمسك دوق ستو هليت بقلبه، وشعر بألم بارد يخترقه، ثم صرخ بصمت وسقط من على حصانه...

تراجع مورت حتى شعر بخشونة عمود حجري على رقبته. كانت ساعة الموت الرملية الفارغة المربعة على بعد بوصات من رأسه.
لم يوله الموت نفسه اهتماماً كبيراً، إذ نظر بتفكير إلى بقايا حياة الدوق المتناثرة.

صرخ مورت ورفع سيفه، وسط هتافات خافتة من الحشد الذي انتظر منه أن يفعل ذلك منذ فترة، حتى ألبرت نفسه صفّق بيديه المُجعدّتين.
لكنّ بدلاً من صوت تهشم الزجاج الذي توقعه مورت، لم يحدث شيء.
استدار مورت وحاول مرة أخرى، فمرّ النصل خلال الزجاج دون أن يكسره.

شعر بتغيّر في نسيج الهواء، فأدار السيف حوله في الوقت المناسب لصدّ ضربة قاسية. قفز الموت بعيداً لتفادي الهجوم المضاد من مورت، والذي كان بطيئاً وضعيفاً.

قال الموت: «هكذا ينتهي الأمر، يا فتى».

قال مورت: «اسمي مورت»، ثم نظر إلى الأعلى، وكرر: «مورت»، ورفع السيف في ضربة قطعت مقبض المنجل إلى نصفين. تصاعد الغضب بداخله. إذا كان سيموت، فليمت على الأقلّ بالاسم الصحيح.

صرخ مورت: «اسمي مورت، أيها الوغد!»، وانطلق مباشرة نحو الجمجمة المبتسمة بالسيف في رقصة دائرية مُعقّدة من الضوء الأزرق.

تراجع الموت مُترنِّحًا، ضاحكًا، مُنحنِيًا تحت وابل الضربات الغاضبة التي قطعت مقبض المنجل إلى مزيد من الأجزاء.

دار مورت حوله، يضرب ويدفع، وأدرك ببطء، حتى من خلال ضباب الغضب الأحمر، أن الموت يتابع كل حركاته، مُمسكًا بنصل المنجل اليتيم مثل السيف. لم تكن هناك أي ثغرة، ومحرك غضبه لن يدوم. قال لنفسه: «لن تهزمه أبدًا. أفضل ما يمكننا فعله هو صدُّه بعض الوقت. وربما كانت الخسارة أفضل من الفوز. من يحتاج إلى الأبدية، على أي حال؟». من خلال ستار الإرهاق، رأى الموت يمدُّ عظامه ويُحرِّك نصل المنجل في قوس بطيء ومريح كما لو كان يتحرك خلال العسل.

صرخت يزابيل: «أبي!»، فاستدار الموت برأسه.

ربما رحب عقل مورت بفكرة الحياة الآتية، لكنَّ جسده اعترض عليها، فربما شعر أنه الأكثر خسارة في تلك الصفقة. رفع ذراعه بالسيف في ضربة لا يمكن إيقافها أطاحت بنصل الموت من يده، ثم ثبَّت الموت في العمود الأقرب إليه.

في الصمت المفاجئ، أدرك مورت أنه لم يعد يسمع ذلك الصوت المزعج الصغير الذي سمعه خلال الدقائق العشر الماضية. تحرَّكت عيناه جانبًا، فرأى آخر حبات الرمل تتسرب.

قال الموت: «اضرب».

رفع مورت سيفه، ونظر إلى نيران عينيه الزرقاوين، ثم خفض السيف قائلاً: «لا».

ركله الموت بقدمه على مستوى الفخذ بسرعة جعلت حتى كاتويل يتألم.

تحوّل مورت بصمت إلى كرة وتدحرج على الأرض. من خلال دموعه، رأى الموت يتقدم، نصل المنجل في يد والساعة الرملية الخاصة بمورت في اليد الأخرى. رأى كيلى ويزابيل تُطرحان جانبًا باحتقار فيما كانتا تحاولان الإمساك برداء الموت. رأى كاتويل يتلقى ضربة في الأضلاع، وشمعدانه يتدحرج على البلاط.

وقف الموت أمامه، فتمايل طرف النصل أمام عيني مورت لحظةً، ثم ارتفع.

قالت يزابيل: «أنت على حق. لا توجد عدالة. هناك أنت فقط».

تردّد الموت، ثم خفض النصل ببطء. استدار ونظر إلى وجه يزابيل التي ارتجفت من الغضب.

قال الموت: «ما معنى هذا؟».

نظرت إليه بغضب، ثم أرجعت يدها وضربته بصوت يشبه صوت صندوق النرد. لم يكن الصوت بأي حال بعلو الصمت الذي تلاه.

أغلقت كيلى عينيها، فيما استدار كاتويل ووضع ذراعيه فوق رأسه. رفع الموت يده إلى جمجمته ببطء شديد.

ارتفع صدر يزابيل وسقط بطريقة يجب أن تجعل كاتويل يتخلى عن السحر مدى الحياة.

أخيرًا، بصوت أجوف أكثر من المعتاد، قال الموت: «لماذا؟».

قالت يزابيل: «قلت إن العبث بمصير فرد واحد يمكن أن يدمر العالم بأسره».

قال الموت: «أجل؟».

أجابته: «لقد عبثت بمصيره. ومصيري»، وأشارت بإصبع مرتجفة إلى شظايا الساعات الرملية على الأرض وقالت: «وهؤلاء أيضًا».

قال الموت: «حسنًا؟».

- بم ستطالب الآلهة مقابل ذلك؟

قال الموت: «مَنِي؟».

- أجل!

بدت الدهشة على وجه الموت، وقال: «لا يمكن للآلهة أن تطالبني بشيء». حتى الآلهة تؤول إليّ في النهاية».

قالت يزابيل بحدة: «لا يبدو ذلك عادلاً، أليس كذلك؟ ألا تهتم الآلهة بالعدالة والرحمة؟»، ودون أن يلاحظ أحد تمامًا، كانت قد التقطت السيف.

ابتسم الموت، وقال: «أحيي جهودك، لكنها لا تجدي نفعًا. تنحّي جانبًا».

قالت: «لا».

قال الموت: «يجب أن تدركي أن حتى الحب ليس دفاعًا ضدي. أنا آسف».

رفعت يزابيل السيف وقالت: «أنت آسف؟».

قال الموت: «قُلت، تنحّي جانبًا».

قالت: «لا. أنت تنتقم فقط. هذا ليس عدلاً!».

انحنى الموت بجسمته لحظة، ثم نظر إلى الأعلى بعينيه المتوهجتين، وقال: «ستفعلين ما أمرتك به».

قالت: «لن أفعل».

قال الموت: «ستجعلين هذا صعبًا للغاية».

قالت: «جيد».

بدأ الموت ينقر بأصابعه نصل المنجل بصبر نافذ، مثل فأر يرقص على علبة قصدير. بدا كأنه يفكر، نظر إلى يزابيل الواقفة أمام مورت، ثم استدار ونظر إلى الآخرين المنكمشين بجانب رف، ليقول في النهاية: «لا. لا يمكن أن أوامر. لا يمكن أن أجبر. سأفعل فقط ما أعلم أنه صواب». لوّح الموت بيده، فخرج السيف من يد يزابيل بسرعة. قام بحركة معقدة أخرى فارتفعت الفتاة وانضغطت بلطف لكن بثبات على أقرب عمود لها.

رأى مورت الحاصد المظلم يتقدم نحوه مرة أخرى، والنصل يتأرجح إلى الخلف للضربة النهائية. وقف الموت أمامه وقال: «لا تعلم كم يؤلمني هذا».

رفع مورت نفسه على مرفقيه وقال: «ربما أعلم».

نظر الموت إليه بدهشة عدة ثوانٍ، ثم بدأ يضحك. تردد الصوت بشكل مخيف في أنحاء الغرفة، ليرتدّ عن الأرفف، واستمرّ ضحك الموت كزلزال في مقبرة، فيما يمسك بالساعة الرملية الخاصة بمورت أمام عينيه. حاول مورت التركيز. رأى الحبة الأخيرة من الرمل تنزلق على السطح اللامع، تتمايل على الحافة ثم تسقط، وتتقلب ببطء نحو الأسفل. يومض ضوء الشموع على جوانبها الصغيرة من السيليكا وهي تدور برفق نحو الأسفل، لتسقط بلا صوت، محدثة حفرة صغيرة.

توهّج الضوء في عيني الموت حتى ملأ أنظار مورت، وصوت ضحكته جعل الكون يرتجف.

ثم قلب الموت الساعة الرملية.

أُضيئتِ القاعة الكبرى في ستو لات مُجددًا بشموعها، وصدحت بالموسيقى.

توافد الضيوف على السلام ونزلوا إلى البوفيه البارد، فيما استمر مدير الاحتفالات في تقديم المدعوّين دون توقف، مُعلنًا أولئك الذين حضروا متأخرين بسبب أهميتهم أو ببساطة لسبب نسيانهم. على سبيل المثال: المُتعرّف الملكي، مدير غرفة نوم الملكة، صاحب الجلالة إيجنوس كاتويل، ساحر من الدرجة الأولى بالجامعة الخفية.

تقدم كاتويل نحو الزوجين الملكيين، مُبتسمًا، والسيجار الكبير في يده، ثم قال: «هل يمكنني تقبيل العروس؟».

قالت يزابيل، وهي تقدم خدها: «إذا كان مسموحًا للسحرة بذلك».

قال مورت: «لقد أعجبتنا الألعاب النارية. وأتوقع أنهم سيستطيعون قريبًا إعادة بناء الجدار الخارجي. بلا شك ستجد طريقك إلى الطعام».

قالت يزابيل خلف ابتسامتها الثابتة، فيما اختفى كاتويل في الزحام: «يبدو في حال أفضل هذه الأيام».

قال مورت، متبادلًا التحية مع أحد النبلاء المارين: «بالتأكيد هناك الكثير ليُقال عن كونه الشخص الوحيد الذي لا تزعجه طاعة الملكة».

قالت يزابيل: «يقولون إنه المتحكم الحقيقي في العرش».

قال مورت بشكل عابر: «لاحظي كيف أنه لا يؤدي أي سحر هذه الأيام؟».

قالت يزابيل بسرعة: «اصمتُ، إنها قادمة».

قال المُقدّم: «جلالتها العليا، الملكة كيليرهينا الأولى، سيدة ستو لات، حامية المناطق الثمانية وإمبراطورة الجزء الطويل النحيف المتجادل بشأنه من ستو كيريج باتجاه المركز».

انحنى يزابيل ومورت، فابتسمت كيلى لكليهما. لم يستطيعا منع أنفسهما من ملاحظة أنها ظهرت تحت تأثير شيء ما جعلها تميل نحو الملابس التي تتبع شكلها تقريبًا، وبعيدًا عن تسريحات الشعر التي تبدو كمزيج من الأناناس وحلوى غزل البنات.

قَبَلَت يزابيل على خدها ثم تراجعت ونظرت إلى مورت من أعلى إلى أسفل، وقالت: «كيف حال ستو هليت؟».

قال مورت: «جيدة، جيدة. علينا أن نفعل شيئًا بخصوص الأقبية، على أيِّ حال. عمك الراحل كان لديه بعض الهوايات غير المعتادة، و...». همست يزابيل: «إنها تقصدك، هذا هو اسمك الرسمي».

قال مورت: «كنت أفضل مورت».

قالت الملكة كيلى: «لديك شعار نبالة مثير جدًا للاهتمام أيضًا، منجلان متقاطعان على ساعة رملية في ميدان أسود. لقد تسبَّب في صدام كبير للكلية الملكية».

قال مورت: «لا أمانع أن أكون دوقًا، لكنَّ الزواج بدوقة هو ما يصدمني».

قالت كيلى: «ستعتاد ذلك».

أجابها مورت: «أمل ألا يحدث ذلك».

قالت الملكة بحزم: «جيد. والآن، يزابيل، إذا كنتِ ستنتقلين إلى الدوائر الملكية، هناك بعض الأشخاص الذين يجب أن تلتقيهم».

نظرت يزابيل إلى مورت بنظرة يأس فيما جرفتها الحشود، وسرعان ما اختفت عن الأنظار.

مرّر مورت إصبعه حول الجوانب الداخلية من ياقته، نظر إلى كلا الاتجاهين، ثم اندفع إلى زاوية مظلة بالسرخس قرب نهاية البوفيه حيث يمكنه أن يقضي لحظة هادئة لنفسه.

تنحّج مدير الاحتفالات من خلفه، وقد بدت عيناه غائمتين دون تركيز، وقال بصوت بعيد لشخص لم يكن يسمع ما يقوله فمه: «سارق الأرواح، هازم الإمبراطوريات، مُلتهم المُحيطات، سارق السنوات، الواقع المطلق، حاصد البشر، ال...».

قال الموت: «حسنًا، حسنًا. أستطيع الدخول بنفسى».

توقّف مورت وفي يده ورك ديك رومي باردة في نصف طريقها إلى فمه. لم يستدرّ. لم يكن بحاجة إلى ذلك. لا يمكن أن يخطئ معرفة ذلك الصوت، الصوت الذي يُشعر به أكثر مما يُسمع، أو الطريقة التي يتغير بها الجو ويصبح أكثر برودة. تباطأت وبهتت ضوضاء حفل الزفاف وموسيقاه، وقال مورت وهو يتحدث نحو سرخس مزروع: «لم نعتقد أنك ستأتى».

قال الموت: «إلى زفاف ابنتى؟ على أي حال، هذه أول مرة ألتقى فيها دعوة إلى أي شيء. احتوت الدعوة على حواف ذهبية وطلب تأكيد الحضور وكل شيء».

قال مورت: «نعم، لكن ليس في أثناء وقت العمل...».

قال الموت: «ظننتُ ربما أن ذلك لن يكون مناسبًا تمامًا».

- حسنًا، نعم، أعتقد ذلك...

- لأكون صريحًا، كنت أعتقد أنك ستتزوج الأميرة.

احمرّ وجه مورت وقال: «تحدثنا عن ذلك. ثم فكرنا، يجب ألا تتسرع في الأمور، لأنه تصادف أنك أنقذت أميرة فحسب».

- هذه حكمة كبيرة. فعلى سبيل المثال، العديد من النساء الشابات يقفزن إلى أحضان أول شاب يوقظهن بعد نوم مئة عام⁽¹⁾.
- وفكرنا، حسنًا، عندما تعرّفتُ حقًا يزابيل، حسنًا...
- أجل، أجل، أنا متأكد. إنه قرار ممتاز. ومع ذلك، قررتُ ألا أهتم بشؤون البشر بعد الآن.
- حقًا؟

- إلا بالطريقة الرسمية، طبعًا. لقد شوّش ذلك حُكمي. ظهرت يد هيكلية في مجال رؤية مورت واخترقتُ بمهارة بيضة محشوة. استدار مورت بسرعة وقال: «ماذا حدث حينها؟ يجب أن أعرف! في لحظة كُنّا في الغرفة الطويلة وفي اللحظة التالية صرنا في حقل خارج المدينة، وكنا نحن حقًا! أعني، عُدّل الواقع ليناسبنا! من فعل ذلك؟».

قال الموت، وقد بدا غير مرتاح: «تحدثتُ مع الآلهة».

- آه. فعلت ذلك، أليس كذلك؟
- فتجنّب الموت نظرته، وقال: «أجل».
- لا أعتقد أنهم سعدوا بذلك جدًّا.
- الآلهة عادلة. يميلون أيضًا إلى العواطف. لم أستطع السيطرة على ذلك بنفسني. لكنك لا تزال غير حر تمامًا. يجب أن تضمن أن يسير التاريخ كما يجب.
- أعرف، توحيد الممالك وكل شيء.
- قد تندم في النهاية على عدم بقائك معي.

(1) إشارة ساخرة إلى القصة الخيالية «الجمال النائم» التي تعرضت فيها أميرة للعنة سحر أسود جعلها تنام مئة عام، ولا تستيقظ إلا بقبلة من منقذها. (المُترجم)

اعترف مورت: «لقد تعلّمتُ الكثير، طبعًا. لكنّ لا أعتقد أنني كنت مُهيئًا لهذا النوع من العمل. انظر، أنا آسف حقًا...».

- لديّ هدية لك.

وضع الموت طبق المقبلات الخاص به وبدأ يعبث بالأماكن الغامضة في رداءه، ثم ظهرت يده العظمية حاملة كرة صغيرة بين الإبهام والسبابة.

كانت الكرة بحجم يقارب ستة سنتيمترات. ربما كانت أكبر لؤلؤة في العالم، باستثناء أن سطحها دُوامة متحركة من الأشكال الفضية المعقدة، على وشك أن تتحول دائمًا إلى شيء قابل للتعرف، ولكنها تستمر بتفادي حدوث ذلك.

عندما أسقط الموت الكرة في كف مورت الممتد، بدت ثقيلة فجأة وينبعث منها دفء خفيف.

قال الموت: «لكَ ولسيدتك. هدية زفاف. مهر».

- إنها جميلة! ظننا أن حامل الخبز الفضّي هو هديتك.

- ذلك كان هدية ألبرت. يؤسفني أنه ليس لديه الكثير من الخيال.

أدار مورت الكرة بين يديه. الأشكال المتصاعدة داخلها بدت كأنها تستجيب للمسّاته، مُرسلةً خيوطًا صغيرة من الضوء تتقوس خلال السطح نحو أصابعه.

- هل هي لؤلؤة؟

- نعم. عندما يزعج شيء المحار ولا يُمكن إزالته، يغطيه المسكين بالمخاط الذي يتحول إلى لؤلؤة. هذه لؤلؤة من لون مختلف.

لؤلؤة من الواقع. كل تلك الأشياء اللامعة هي واقع متجمد. يجب أن تعرفها، فأنت من أنشأها بالأساس.

تلاعب مورت بالهدية برفق من يد إلى أخرى، ثم قال: «سنضعها مع جواهر القلعة. ليس لدينا الكثير منها».

- يوماً ما ستصبح بذوراً لكون جديد.

تعثّر مورت في التقاطها، لكنه مدّ يده برد فعل سريع وأمسك بها قبل أن تسقط على الأرض، ثم قال: «ماذا؟».

- وجود الواقع الحالي يحافظ عليها مضغوطة. قد يأتي وقت ينتهي فيه الكون وهذا الواقع، وعندها ستنفجر هذه الكرة و... من يدري؟ فحافظ عليها بأمان. إنها المستقبل بقدر ما هي هدية.

مال الموت برأسه جانباً، وأضاف: «إنها شيء صغير، كان بإمكانك الحصول على الأبدية».

- أعرف. لقد كنتُ محظوظاً جداً.

وضعها برفق على منضدة البوفيه، بين بيض السمان ولفائف السجق.

قال الموت: «هناك شيء آخر»، وأخرج شكلاً مستطيلاً ملفوفاً بطريقة غير ماهرة ومربوطاً بخيط من تحت رداءه، وقال: «إنه لك، شخصياً. لم تُظهر أي اهتمام به من قبل. هل اعتقدت أن لا وجود له؟». فك مورت تغليف الطرد وأدرك أنه كتاب صغير مُغلّف بالجلد. كُتِبَ على كعب الكتاب، بحروف ذهبية لامعة، كلمة وحيدة: مورت.

وجد مورت أغلب صفحاته فارغة، فتصفّح إلى الخلف حتى وجد خيط الحبر الصغير، الذي تلوّى بصبر خلال الصفحة، فقرأ ما يُكتب:

(أغلق مورت الكتاب بصوت خفيف يشبه صوت خلق الكون وسط الصمت، وابتسم بصعوبة).

قال مورت: «لا يزال هناك الكثير من الصفحات التي يجب ملأها. كم من الرمل بقي لدي؟ فقد قالت يزابيل إذ إنك قلبت الساعة الرملية، فهذا يعني أنني سأموت عندما أكون...».

قال الموت ببرود: «لديك ما يكفي. الرياضيات ليست كما يُشاع عنها».

سأله مورت: «ما رأيك في أن تُدعى إلى حفل تعميد حفيدك؟». أجاب الموت: «لا أظن ذلك. لم أُخَلَق لأكون أبًا، ولا جدًا بالتأكيد. ليست لديّ الرُكْب المناسبة ليجلس عليها الأطفال».

وضع الموت كأس النبيذ وأومأ إلى مورت قائلاً: «تحياتي إلى سيدتك الفاضلة. والآن يجب أن أذهب حقًا».

- هل أنت متأكد؟ يسعدنا بقاؤك.

- من اللطيف منك أن تقول ذلك، ولكنّ الواجب يناديني، ثم مدّ يده العظمية قائلاً: «تعرف كيف تسير أمور العمل».

تشبّث مورت باليد وهزها، متجاهلاً البرودة، وقال: «انظر، إذا أردت يومًا ما بعض الوقت للراحة، إذا رغبت في إجازة...».

قال الموت بتقدير: «شكرًا جزيلاً على العرض. سأفكر فيه بجدية. والآن...».

قال مورت: «وداعًا»، ليُدْهَش من إحساس الغصة في حلقه، قائلاً: «إنها كلمة غير مريحة، أليس كذلك؟».

قال الموت مُبتسمًا: «تمامًا»، لأنه كما لوحظ كثيرًا، لم يكن لديه الكثير من الخيارات سوى الابتسام. ولكنه ربما فعل ذلك عن عمد هذه المرة. أنهى الموت كلامه قائلاً: «أفضل إلى اللقاء».

النهاية



telegram @
yasmeenbook



عالم القرص DISCWORLD

— مورت —

الموت يأتي للجميع. لكنه عندما جاء إلى مورت..
عرض عليه وظيفة!

الموت هو حاصد الأرواح في عالم القرص. وهو هيك عظمي يرتدي رداءً أسود ويحمل منجلاً يقود به الأرواح إلى العالم الآخر. كما أنه يحب القسط ويشعر بالحيرة من البشرية باستمرار. سرعان ما يبدأ الموت في التوقف إلى تجربة ما تقدمه البشرية حقاً. ولكن لتحقيق ذلك، سيحتاج إلى بعض المساعدة.

إنه عرض لا يستطيع مورت رفضه. فإذا أصبح تلميذاً مساعداً للموت، سيحصل على الإقامة المجانية، واستخدام حصان سحري، وليس من الضروري أن يكون ميتاً. إنها وظيفة الأحلام، إلى أن يقع مورت في حب ابنة الموت، يزابيل، ويكتشف أن رئيسه يمكن أن يكون قاتلاً لحياته العاطفية...



غلاف: محمود هشام



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
f aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb